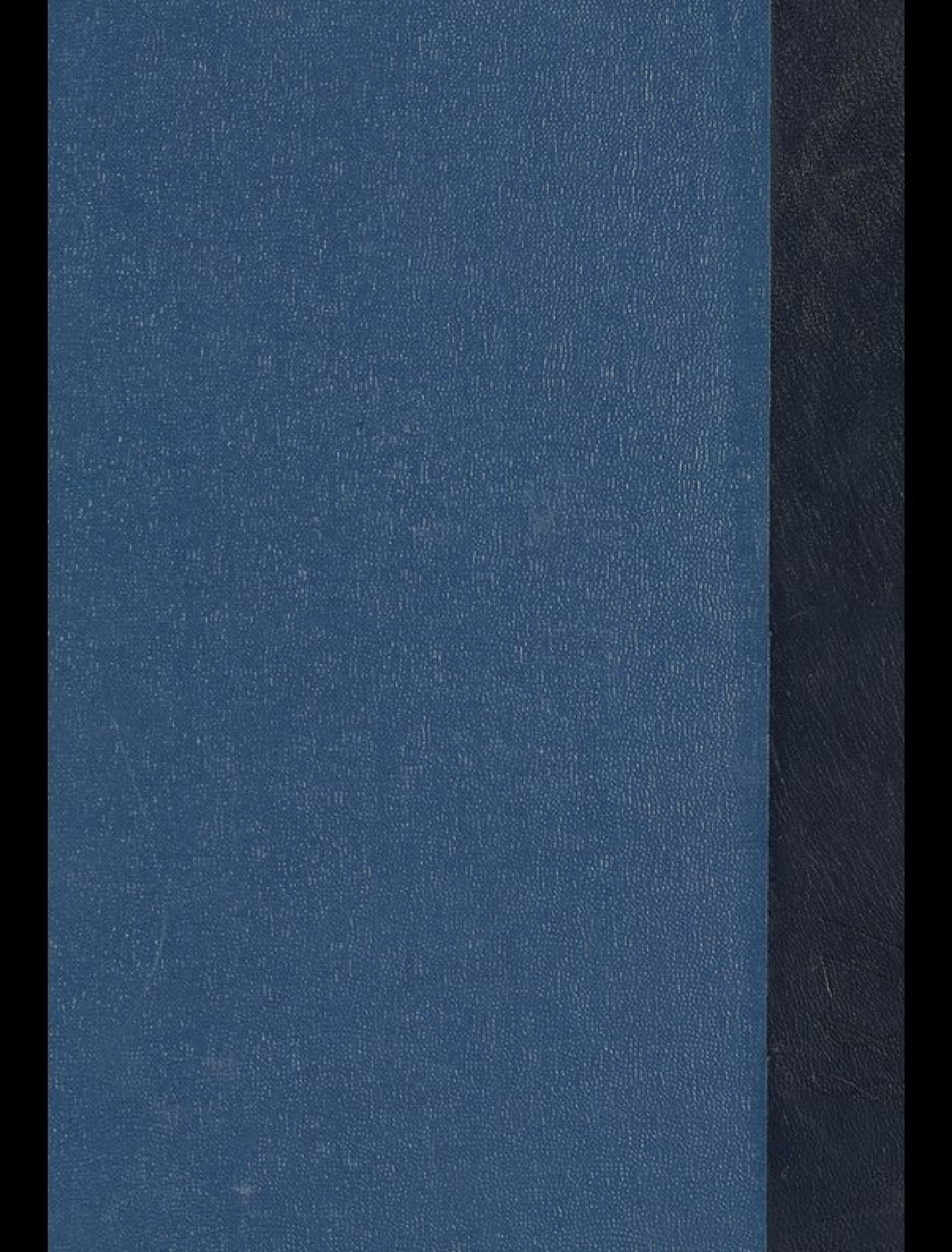
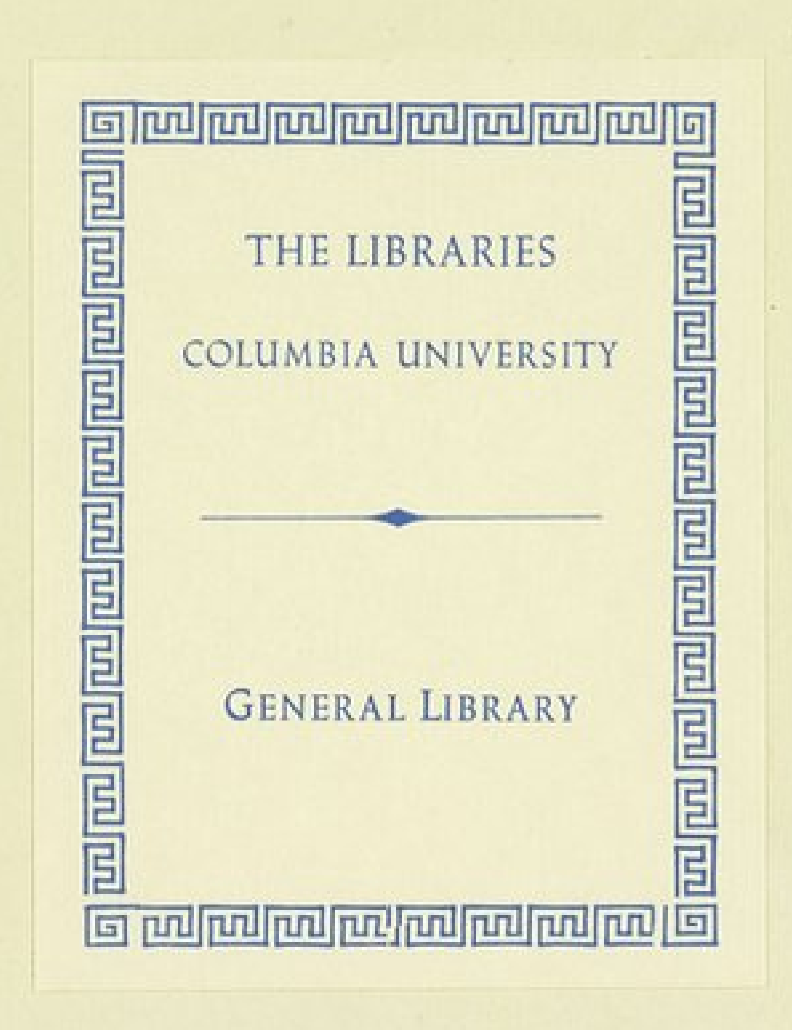
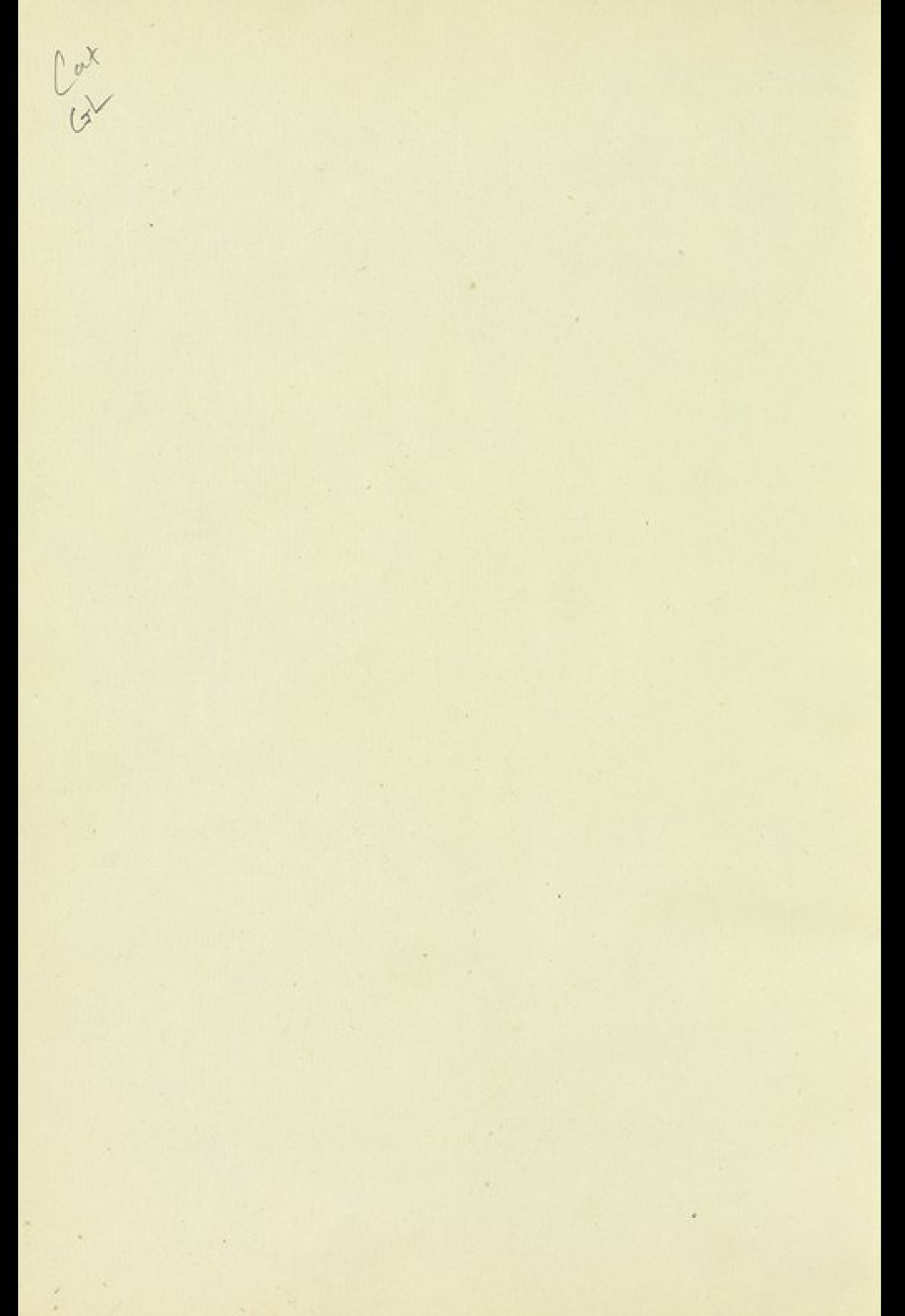






وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة



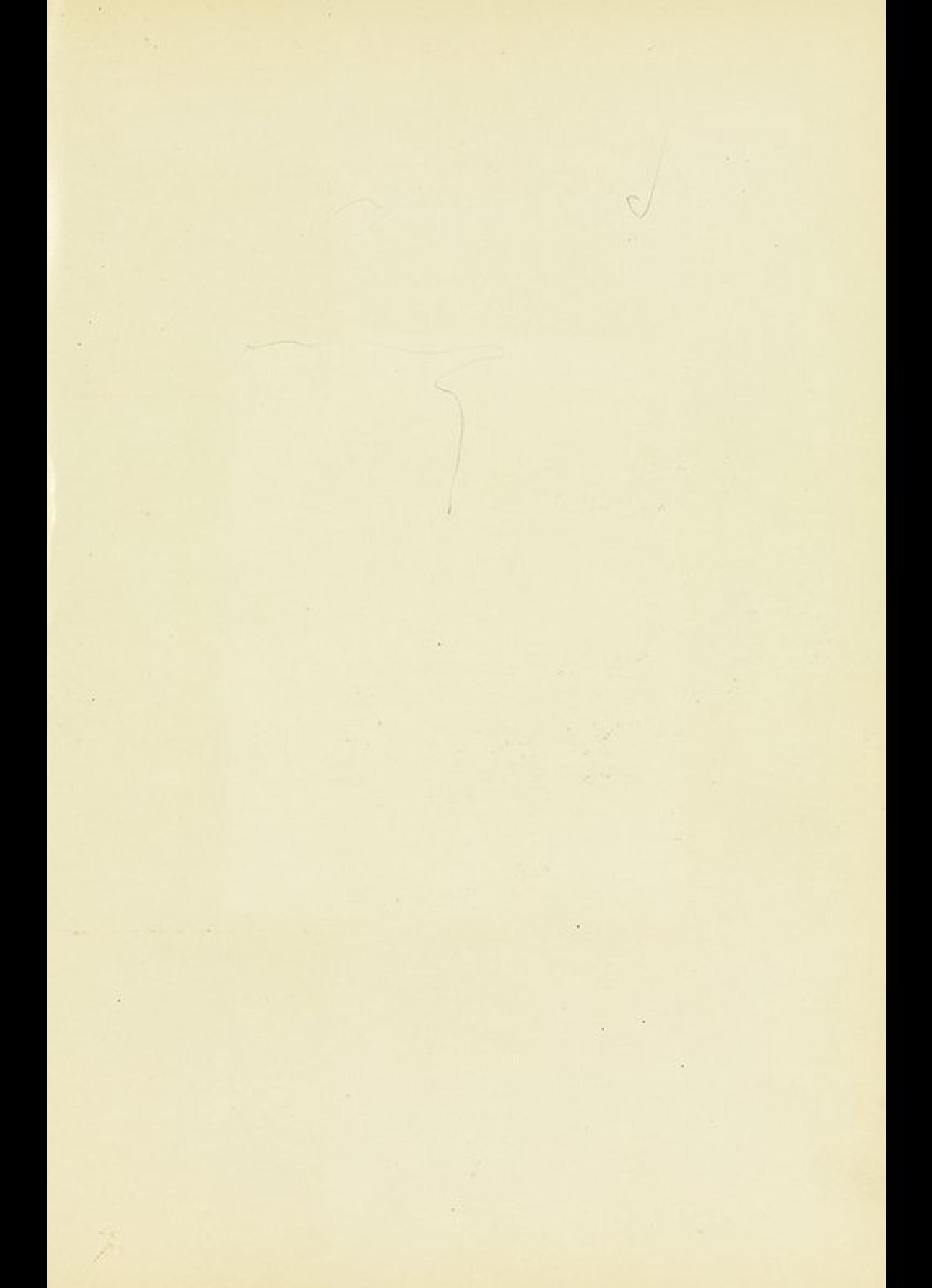
محافظة السويداء

تأليف

شبلي العيسمي　　داوود نمر　　حمود الشوفي

سلسلة بلادنا

-٢-



وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

التعريف بمحافظة جبل العرب

تأليف

شبلي العيسمي
حمود الشوفي
داود نمر

مراجعة
الأستاذ عارف النكدي

سلسلة بلادنا ٢

دمشق ١٩٦٢

المقدمة

عندما أعلنت وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق، عن رغبتها في أن يسهم القادرون على الكتابة بتأليف بعض الكتب حول موضوعات مختلفة ومن بينها التعريف بمحافظة جبل العرب ، وافقنا على الكتابة بهذا الموضوع لسببين اثنين : الأول لأن فكرة تدوين تاريخ شامل للجبل كانت تراودنا منذ أكثر من عامين بل كنا على وشك الشروع بتنفيذها . والثاني لأن انجاز عمل كهذا قد يسد فراغاً ويلبي حاجة طالما شعرت بها وزارة الثقافة والارشاد القومي .

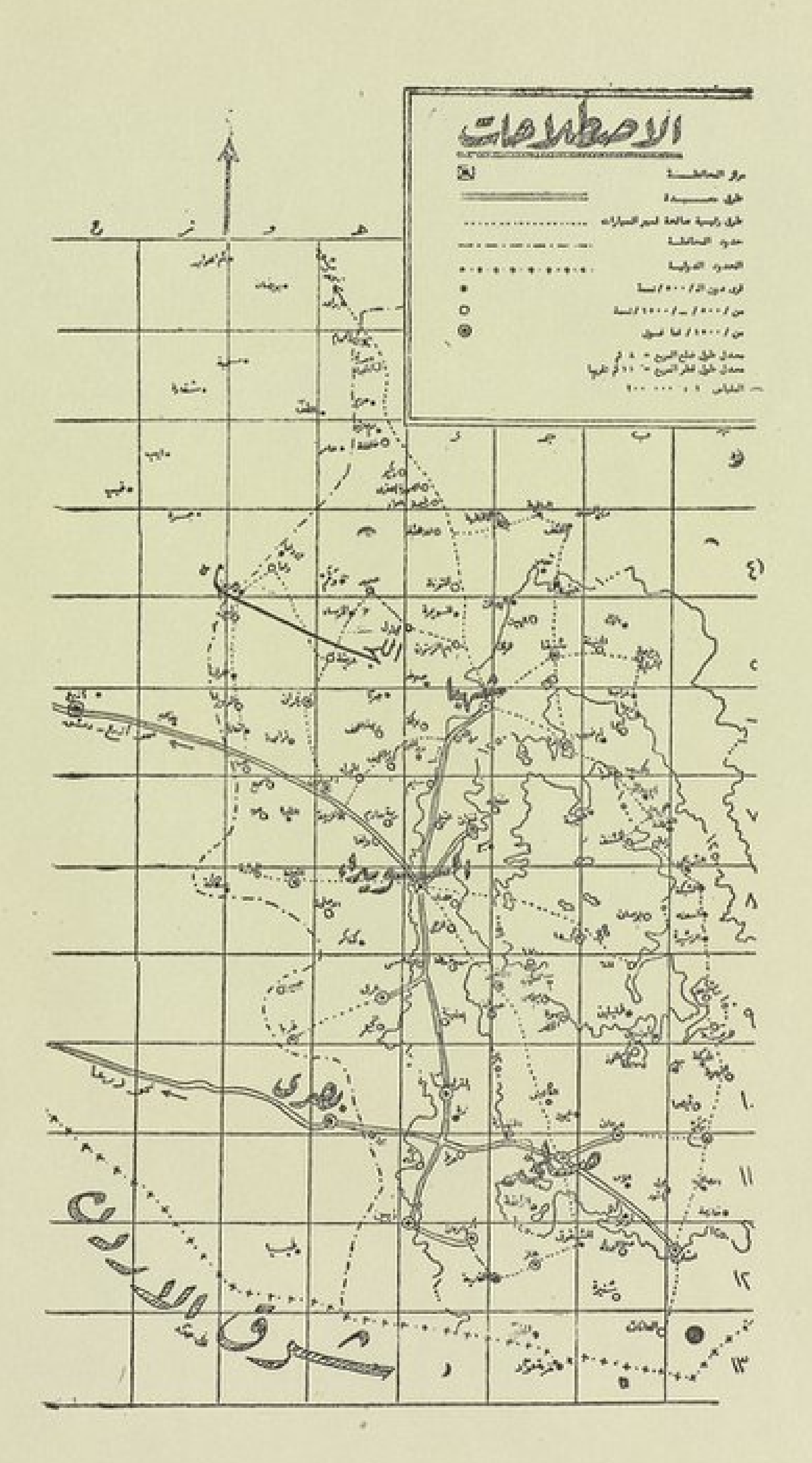
وبعد : فقد كتب الاستاذ شبلي العيسمي لمحة عن تاريخ جبل العرب قبل ان يسكنه بنو معروف ، وعن كيفية نزوحهم اليه ، وعن حروبهم في زمن الاتراك العثمانيين ، واشتراكهم في الثورة العربية الكبرى، وثوراتهم الداخلية ضد الزعامة المستبدة والتحكم الاقطاعي في القرن التاسع عشر ، ثم كتب عن عروبتهم وحياتهم الاجتماعية .

وكتب الاستاذ داود النمر لمحة عامة عن جغرافية الجبل وسكانه وحياته الاقتصادية والادبية والفنية ، وعن اوضاع التعليم فيه .

أما الاستاذ حمود الشوفي فقد كتب لمحة عن مذهب بني معروف وعن الثورة السورية الكبرى وما بعدها حتى الوقت الحاضر .

ونحن اذ نقدم للقراء هذا الكتاب عن جبل العرب نشكر وزارة الثقافة والارشاد القومي على جهدها واهتمامها بنشـــره ، ونعتذر عن أي تقصير في اعطاء بعض الموضوعات الواردة فيه حقها في الدقة والاستقصاء بسبب ضيق الوقت ، ولكن حسبنا اننا نرجو ان يكون فيه بعض الفائدة .

(المؤلفون)



الاصطلاحات
مركز المحافظة
طرق رئيسية صالحة لسير السيارات
حدود المحافظة
الحدود الدولية
شهبا
السويداء
بصرى
شرق الاردن

جبل العرب

قبل أن يسكنه بنو معروف

من المفيد ان نذكر لمحة خاطفة عن تاريخ جبل العرب قبل ان يهاجر اليه بنو معروف ويقطنوا فيه . ففي كثير من بقاعه وخاصة بالقرب من الينابيع وجدت ادوات صوانية منحوتة تشير الى ان انسان ماقبل التاريخ كان يستخدمها ويفيد منها . ويبدو ان تاريخ حوران السهل والجبل ، في الزمن الذي سبق عهد الانباط العرب والسلوقيين اليونان في سورية ، لايزال غامضاً الى حد كبير ومن المعروف ان الصفويين العرب سكنوا في المنحدر الشرقي من الجبل منذ القرن الاول للميلاد ، وكانت لغتهم على قول المستشرق « هاليفي » وسطا بين اللغة الفينيقية وعربية القرآن ، وتركوا رسوما وكتابات كثيرة اشهرها تلك التي وجدت في قصر النمارة بالصفا شرق الجبل .

اما الانباط [١] العرب فقد دخلوا الجبل على اثر موقعة (موتانا) — وهي اليوم قرية امتان الواقعة شرق صلخد — حيث انتصروا فيها على السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني عام ٨٨ ق.م وقتلوا ملكهم انطيوخوس الثالث عشر . ثم اصبحت (قاناتا) اي قنوات والسويداء وصلخد من المراكز التجارية المشهورة في عهدهم .

وفي هذه البلدة الاخيرة كتابة نبطية دينية موجهة الى (اللات) الهة الخصب . وفي السفح الغربي لتل القليب عثر على هيكل نبطي للاله ذي الشراة وفي سيع بالقرب من قنوات ، والى الجنوب الشرقي منها وجد مذبح

---

(١) الانبـاط من العرب الذين سكنوا في شرق الاردن منذ القرن السادس قبل الميلاد ، واشتهرت عاصمتهم البتراء بآثارها الجميلة المحفورة في الصخر قرب خليج العقبة. وامتدت سلطتهم حتى دمشق وسهل البقاع .

لهذا الاله كما وجد له معبد آخر في السويداء ، والجدير بالذكر ان هذه الآلهة النبطية كانت معروفة عند عرب الجاهلية في شبه الجزيرة العربية .

كتب الانباط بالآرامية واصبحت هذه في القرن الثالث الميلاد كتابة عرب الشمال ، ثم تحولت الى الخط العربي النسخي ذي الشكل المستدير ، واقدم كتابة عربية من هذا النوع هي تلك التي وجدت في قصر النمارة الآنف الذكر ،وترجع الى عام ٣٢٨ م وهي تؤرخ قبر امرىء القيس احد ملوك العرب .

وعندما احتل الرومان سورية عام ٦٤ ق.م لم يتمكنوا من السيطرة على بلاد الانباط اول الأمر فأخذوا يتوددون لهم « وعقد سكورس الحاكم الروماني اتفاقية مع الحارث حسما للنزاع ومنعاً لتحرشات العرب بحدود الامبراطورية ، وافق بموجبها ملك العرب اي النبط على المحافظة على الأمن وعلى التعاون مع الرومان في هذا الشأن[1] » . وفي مطلع القرن الثاني للميلاد اغتنم الرومان فرصة وفاة الملك رئبال الثاني وضعف الانباط فهاجموا بلادهم واعلنوا الحاقها بامبراطوريتهم الرومانية عام ١٠٦ م واطلقوا عليها اسم الولاية العربية وجعلوا عاصمتها بصرى ، مما ادى الى حدوث اضطرابات واسعة ، حتى اذا ما استتب الامر للرومان بعد جهد ومشقة بنوا فيها الحصون والمراكز العسكرية وشقوا الطرقات الكثيرة وعبدوها لكي يسهل عليهم السيطرة عليها وتأمين التجارة والأمن فيها . ومن هذه الطرق التي انشأوها ، الطريق الآتية من دمشق فشهبا عبر اللجاه ومنها الى قنوات فالسويداء فعرى . ثم طريق بصرى فصلخد فامتان فالعراق .. وطريق السويداء فساله شرقاً .

ومما هو جدير بالذكر ان الانباط لم يتخلو عن لغتهم وكتابتهم في ظل الرومان بدليل العثور على حجر ذكرت عليه المسافة بين بصرى والمفرق (بالأردن) بحروف نبطية . ويقول الدكتور فيليب حتي « بعد بدو الحويطات

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام – الدكتور جواد علي ص ٣٨٤ ج ٢ .

اليوم من سلالة الأنباط [١] » . هذا ويجب ان نذكر ان في كثير من قرى الجبل آثار الابراج والمسارح والحمامات والفنادق والقصور والمقابر والمعابد الدينية التي بنيت في عهد الرومان ، ومنها المعبد الشمالي في قرية عيتل (شمالي السويداء)، بناه الامبراطور « كاراكالا » ذي الأصل القرطاجي العربي ، تكريماً للاله النبطي « تياندريتس » الذي يقابل الاله ذا الشراة ، الامر الذي يدل على ان آلهة سكان البلاد الاصليين ومعتقداتهم بقيت على ما كانت عليه . ولم يسع الرومان لمحاربتها والقضاء عليها . ومن الملحوظ ان آثار السدود والبرك الكبيرة لجمع الامطار عند هطولها ، ثم الأقنية الفخارية التي تجر فيها المياه الى المدن والقرى من اماكن بعيدة ، لا تزال ظاهرة حتى الآن . وتجدر الاشارة في هذه المناسبة الى ان أشهر آثار الجبل تشاهد في قنوات وشهبا ، ففي الأولى معبد الاله الشمس وكان له (٣١) عاموداً تنتهي بتيجان كورنثية . ومعبد الاله زوس سيد السماوات بالقرب من خزان المياه ، ثم « الاوديون » وهو نوع من المسارح تقام فيه الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية . وعلى الصف الاول من درجاته كتابة يونانية . ثم هنالك كنيسة قنوات المدينة حيث كانت مكاناً يقام فيه العدل للاجتماعات العامة ، وبابها الرئيسي الوسطي يزدان بالنقوش الجميلة على شكل اثمار وازهار واغصان تشكل احدى الروائع الأثرية ، وفي هذه البلدة ايضاً اسوار وخزانات للمياه وحمامات وفنادق ونوافذ من حجر البازلت منحوتة باسلوب نبطي ومزينة بعناقيد العنب ، وبصورة عامة « ان آثار قنوات تؤلف متحفاً اثرياً قائماً بذاته لما لهذه الآثار من اهمية تاريخية لانها تجمع بين مختلف آثار العصور الرومانية المتعاقبة » . اما آثار شهبا فأشهرها المعبد الذي بناه الامبراطور فيليب العربي في القرن الثالث الميلادي ، وتشهد على عظمة اعمدته الاربعة الباقية منه ذات التيجان الكورنثية الجميلة . وهنالك ايضاً ابنية دينية كانت اصلاً للكنائس المسيحية البيزنطية او اصلاً لقبابها على

---

(١) تاريخ العرب المطول – الدكتور فيليب حتي ج ١ ص ٩٠ .

الاول اما مسرح شهبا فانه يعطي نموذجاً واضحا للمسارح الرومانية وكان له طابق علوي ، وكانت حماماته تحتوي على غرف للثياب وللمطالعة والمحادثة والرياضة واللهو الى جانب المطاعم والمنتزهات ، ولمدينة شهبا طرق واسعة مبلطة منذ عهد الرومان وسور ضخم لاتزال بعض ابوابه الجميلة قائمة حتى الآن. وفي عام ٢٤٤ م توصل فيليب العربي من سكان هذه المدينة الى عرش روما وكان ابوه من رؤساء القبائل العربية خرج الى اللجاه ليعيش فيها مدة من الزمن ويمارس حياة البداوة ، ثم التحق بالجيش الروماني وبرهن عن ذكاء ومقدرة ، مكنتاه من الوصول الى عرش الامبراطورية الرومانية، ولاسيما بعد ان تغلب على الفرس .

وفي القرن الرابع للميلاد شعر الروم البيزنطيون بأن تعليمات حكامهم لم تعد نافذة ، واصبحت تقابل بالاستنكار فتركوا الحكم للأمراء العرب من الغساسنة ، بعد ان نظمت علاقاتهم بالقناصل الرومان[1] .

ويقول المستشرق الافرنسي دوسو الذي ارتاد جبال حوران واللجاه والصفا ان الغساسنة « أقاموا خط دفاع في اطراف حوران (الجبل) يفصل بينها وبين البادية ، ويتألف من عدة حصون ، منها القصر الأبيض والنمارة ، ودير الكهف والقلعة الزرقاء (وكلها تقع شرق جنوب الجبل) . وفي القصر الابيض مثلاً نقوش جميلة فيها صور طيور وخيول وفهود واسود وبقر وافيال حتى السمك[2] » ، أضف الى ذلك ما بنوه من قصور في السويداء والقريا بلدة سلطان الاطرش اليوم .

هذا ويقول الدكتور فيليب حتي « أما القضاء الذي نراه اليوم قفرا موحشاً فقد كان في زمن غسان عامراً بالقرى والدساكر ، وفيها المنازل التي

---

(١) حوران – سليمان عبد الله المقداد – ص ٢٣ .
(٢) العرب قبل الاسلام – جرجي زيدان ج ١ ص ١٨٤ .

شيدت من الرخام الاسود ، والقصور واقواس النصر ، والحمامات العمومية والاقنية الارضية والمسارح والبيع ، ولا تزال انقاض قصورهم ظاهرة في بصرى وفي انحاء الشرق والجنوب من جبال حوران . وبلغ الغساسنة درجة كبيرة من الرقي والنفوذ في عهد الحارث بن جبلة الذي أعطي لقب « فيلارك » اي رئيس قبيلة وشيخها ، وهي مرتبة تلي الامبراطور . ثم عين رئيساً على جميع عرب سورية بعد انتصاره العظيم على الفرس عام ٥٢٨ م وخلفه ابنه المنذر الذي نازع البيزنطيين سلطتهم وثار عليهم ، ولكنهم قبضوا عليه ونفوه الى صقلية ، ثم هاجم الفرس حوران الجبل السهل عام ٦٠٨ م وخرج الأمر من أيدي البيزنطيين ، ولم يستعيدوا هذه المنطقة إلا بعد ان انتصر هرقل ملك الروم على الفرس عام ٦٢٩ م فنصب جبلة بن الايهم ملكا عليها . وفي هذه الفترة حدث كثير من التهديم والتخريب من جراء الفوضى السياسية والحروب المتواصلة بين الفرس والروم حيث كانت حوران السهل والجبل مسرحاً لهذه الحروب . وفي نهاية هذه الفترة كانت جيوش العرب المسلمين تضغط على حوران وتتحفز لاحتلالها، وكان هؤلاء الغساسنة القحطانيون همزة وصل بين عرب الجزيرة وبين سكان سورية الشمالية والبيزنطيين ايضاً . وقد انضم كثير منهم الى اخوانهم العرب المسلمين الذي فتحوا بلاد الشام في القرن السابع للميلاد . « وفي عام ٦٣٦م أقر عمر بن الخطاب مالكا بن الحارث (من الشهابيين) اميراً بحوران لنجدة العساكر التي تجيء من صوب الحجاز فاتخذ له الشهبا احدى قرى حوران موطناً له ولعشيرته ، وقام هنالك بالمرصاد للنصارى من بني غسان ومنع عنهم حوران بعد ان جرت له معهم مواقع عديدة[1] » .

ويرى بعض المؤرخين ان اسم الشهابيين مشتق من « شهبا التي سكنوها خمسة قرون منذ الهجرة[2] » ثم خضع الجبل للدول التي تعاقبت على الحكم في

---

(١) ذخائر لبنان ص ٢٤٣ عزتلو ابراهيم بك الاسود .

(٢) الدروز – الكابتن وورون ص ٩١ .

سورية منذ عهد الامويين والعباسيين. وفي عام ٧٣٧ م جهز الامير قاسم الشهابي اخاه وقاحاً بثلاثة الاف فارس ليحاربوا مع مسلمة بن عبد الملك الروم بالقسطنطينية ، وخلف الامير قاسم ولده شهاب ، وفي سنة ٧٨٠ م وجه شهاب أخاه سليمان مع الرشيد بن المهدي لقتال الروم عند خليج القسطنطينية. وتوفي قيس (الشهابي) فخلفه عامر الملقب بالاذرعي نسبة الى قرية يقال لها اذرعات المعروفة اليوم باذرع ، استوطنها بعد ان دحر العساكر التي جهزها احمد بن طولون صاحب الشام لقتال من سمع بقدومهم من عرب الحجاز الى حوران ، ثم توفي عامر فخلفه ولده سعيد ، وفي سنة ٨٩٥ م قاتل الامير سعيد القرامطة وهم يبغون الاستيلاء على حوران ومنعها عليهم [١]. ذلك لان القرامطة عندما قصدوا الشام « دفعهم عنها اهلها فارتدوا الى حوران وبصرى واذرعات والبثنية من اعمال جبل الدروز ينشرون دعوتهم في يد ويسلطون السيف في اخرى [٢]».

وعندما بدأت الحملات الصليبية استطاع سكان الجبل ان يصدوها عنه وكان الايوبيون قد تمركزوا فيه وبنوا الحصون والقلاع كما في صلخد حيث زادوا في تحصين قلعتها النبطية الاصل . وفي أعلى مئذنة صلخد الحالية اسم اول سلاطين المماليك عز الدين ايبك . وربما أضيفت هذه الكتابة بعد بناء المسجد الايوبي ومئذنته عندما انتقل الحكم الى المماليك . وكان لصلخد شأن في الاسلام ولاسيما في زمن صلاح الدين اذ كانت قاعدة ملك عز الدين بن اسامة ، واقوش الاقرم أحد أمراء بني ايوب ، كما كانت قاعدة « جبل بني هلال » نسبة الى سكانه [٣].

هذا ومن الجدير بالذكر ان الامير منقذ الشهابي واقرباء الامراء مالوا الى صلاح الدين ، ولما اضرم هذا الحرب على الافرنج اعانوه كثيراً عليهم وكان يوليهم طليعة جيوشه ، ولما تصافى نور الدين وصلاح الدين ورجع هذا الى الديار المصرية ووقعت النفرة بينهما مرة اخرى اوجس الامير منقذ من نور الدين

---

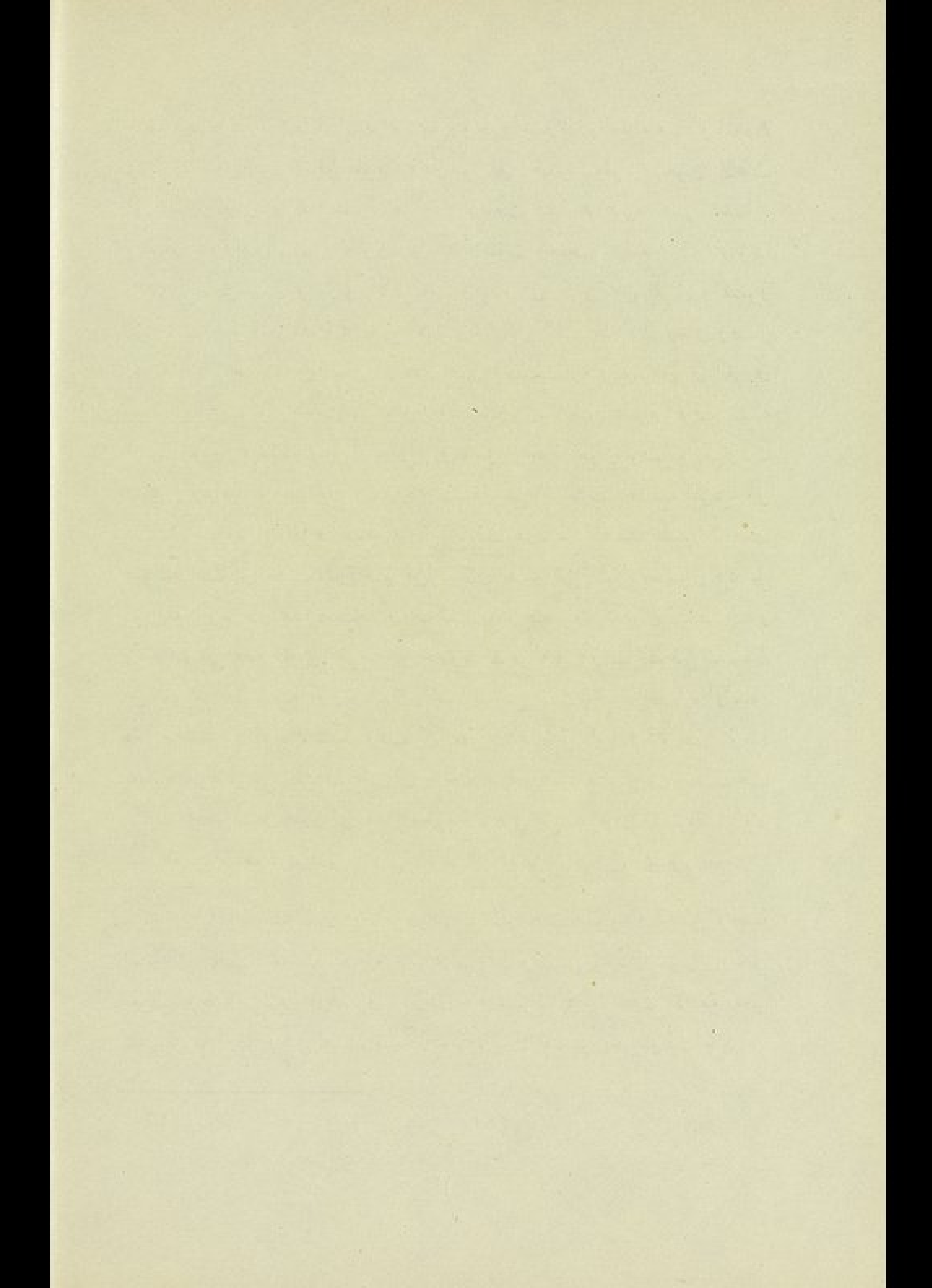
(١) ذخائر لبنان – الاسود ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .
(٢) الدروز – ابو اسماعيل ص ١٩٣ .
(٣) بنو معروف في حوران – النجار ص ٧١ .

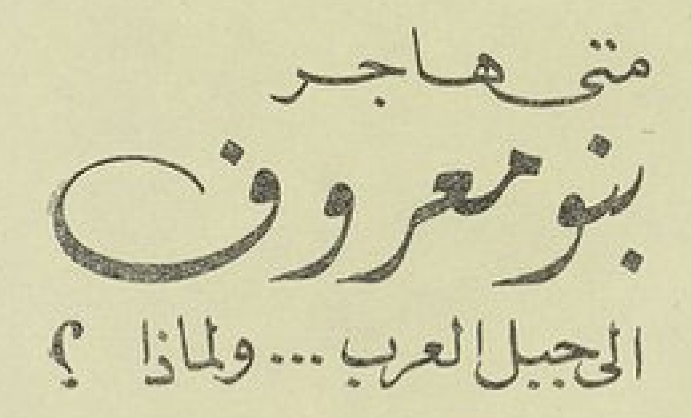
خيفة فجمع لديه الامراء ابناء اعمامه ووجوه عشيرته والعقلاء فيها وشاورهم في الرحيل من حوران فوافقوه ، فانتزحوا الى الجسر اليعقوبي يبغون الذهاب الى الديار المصرية وكانوا عشرة امراء .. وبلغت عشائرهم خمسة عشر ألفاً . ولما علم نور الدين انهم راحلون ارسل يلاطفهم ومنحهم المنح [١] ، ثم نزلوا وادي التيم في لبنان وحاربوا الافرنج . ويبدو ان كثيرا من القرى والقصور التي كانت عامرة مزدهرة في جبل العرب عهد الانباط والرومان وصدر الاسلام قد اقفرت من السكان وجفت فيها الحضارة والعمران بين القرنين العاشر والتاسع عشر حيث لم يتجاوز عدد سكان الجبل عشرة آلاف نسمة حسب تقدير الاستاذ محمد كرد علي ، وتقدير الرحالة جون لويس بركهاردت الذي زاره عام ١٨١٠ م . ولو رحنا نتساءل عن الاسباب الحقيقية المؤدية الى ذلك لما استطعنا ان نعرفها بدقة ، فهل اصيبت هذه المنطقة بسنوات قحط متوالية ادت الى مغادرة قسم من السكان القرى التي كانوا يعيشون فيها على الزراعة ؟ ربما كان هذا صحيحاً ، ولكننا نرجح ان يكون تسلط البدو وهجماتهم على هذه القرى القريبة من حدود الصحراء في فترات الفوضى السياسية من العوامل الاساسية لنزوح السكان نحو الداخل حيث الحياة الحضرية الآمنة. هذا وقد ذكر الرحالة بركهاردت ان بعض الأهلين تركوا قراهم تحت وطأة الهجوم الوهابي على اطراف حوران والجبل سنة ١٨١١ م . كما ان صاحب كتاب ذخائر لبنان اشار الى هذا الهجوم الوهابي على حوران بقيادة الامير عبد الله بن مسعود الوهابي التيمي الامر الذي يؤيد هذا الرأي ويرجحه .

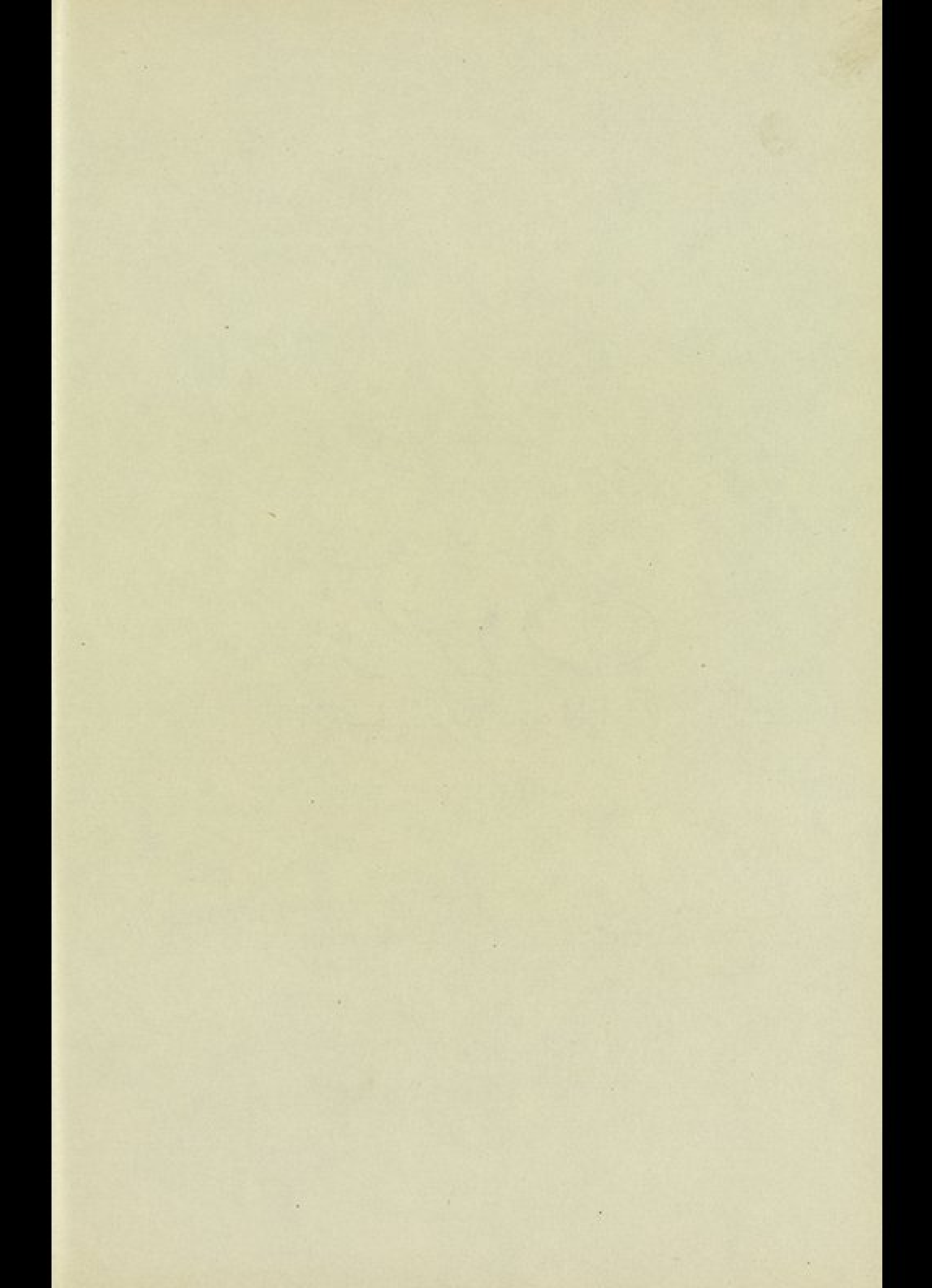
وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت السويداء احدى الاقضية الستة التي كانت تابعة لمتصرفية مركزها المزيريب وتشمل يومذاك حوران وجبل العرب وجزءاً كبيراً من شرق الاردن ، وسيمر بنا في الابحاث القادمة بعض التفاصيل عن اوضاع جبل العرب منذ أن حكم الاتراك العثمانيون حتى الوقت الحاضر .

---

(١) ذخائر لبنان – الأسود ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .




متى هاجر
بنو معروف
الى جبل العرب... ولماذا ؟



في القرن السابع عشر للميلاد كان يسكن في قرى الجبل الغربية المجاورة لحوران عدد قليل من سكانه الاصليين المسيحيين الذين اعتمدوا في معاشهم على الزراعة البدائية وتربية المواشي ، وعاشوا حياة حافلة بالفقر والقلق والاضطراب بسبب الغزوات والتعديات المتكررة من القبائل البدوية الضاربة في بقية انحاء الجبل ، حيث كانت قبيلة الفواعرة تبسط نفوذها على المنطقة الغربية حتى حدود اللجاه ، وقبيلة الجوابرة اتخذت منطقة اللجاه موطناً لها ومرعى لمواشيها. وقبيلة الشنابلة تقيم في المنطقة الوسطى من الجبل ، وقبيلة الحسن تمد نفوذها على المنطقة الواقعة شمال شهبا ، بالاضافة الى القبائل الاخرى مثل عنزة التي كانت تتخذ من جنوب جبل العرب مرحلة تمر بها اثناء ذهابها الى الحماد شتاء وعودتها منه ربيعاً [1] .

في عام ١٦٨٥ هاجر من لبنان الى الجبل مئتا رجل مع عيالهم بقيادة احد الامراء المعنيين (وفي رواية اخرى من آل علم الدين) هربا من جور الحكام الاتراك ومن ظلم الامراء الشهابيين زعماء القيسية . وظل هذا الامير يحكم جماعته مدة ثلاثين عاما في قرية نجران (شمال غرب السويداء) التي حل بها ، وعندما رغب في العودة الى لبنان استدعى احد الامراء الحمدانيين ليقوم مقامه في حكم عشيرته وتمكن رئيسهم حمدان الحمدان الذي اتخذ لنفسه مقراً في نجران من فرض احترامه وهيبته على الدروز [2] ولكن الشيء الذي يتفق عليه المؤرخون هو ان عدداً كبيراً من بني معروف هاجر من لبنان الى جبل العرب على أثر موقعة عين دارا الشهيرة التي تغلب فيها القيسيون على اليمنيين عام

---

(١) جبل الدروز في العهد العثماني - الزغبي ص٣٢ .

(٢) هجرة الدروز الى الجبل - الجهيم ص ٩.

١٧١١ م . ونزل المهاجرون ضيوفا على اخوانهم في الجبل ثم مالبثوا ان انتشروا في القرى الشمالية منه بعد صراع دام سنوات مع البدو . وعقب هذه المعركة لم تنقطع الهجرة من لبنان الى الجبل . وفي مطلع القرن التاسع عشر هاجر اليه عدد كبير من الذين كانوا يقطنون منطقة الجبل الاعلى غرب حلب وذلك على اثر فتنة نشبت بينهم وبين السكان الآخرين في هذه المنطقة كما هاجر اليه عدد من دروز فلسطين هربا من جور الحكام وخاصة في عهد احمد باشا الجزار . ويقول المستشرق جون لويس بوركهاردت الذي مر في قرية عرى بتاريخ ٢٦ نيسان عام ١٨١١ « وفي اثناء اقامتي في عرى وصلت الاخبار الى هناك ان جماعة مؤلفة من مئة وعشرين درزيا قد تركوا الجبال الدرزية وجاؤوا يستقرون في حوران[١] » . ويبدو ان هجرة بني معروف من لبنان الى حوران استمرت طوال حكم الامير بشير الشهابي الذي قاومهم وقسا عليهم . ولكنها اشتدت اثناء حكم ابراهيم باشا في سورية حيث فرض السخرة والضرائب الجديدة والجندية الاجبارية ، واراد جمع السلاح ، وتعاون مع خصمهم الامير بشير ، حتى اذا ما خرج ابراهيم باشا من سورية نشطت الدولة العثمانية والدول الاوربيــة الاستعمارية في تغذية الخلافات الطائفية واثارتها ، واصبحت المنازعات الطائفية بين عامي ١٨٤٢ – ١٨٦٠ طاغية على المنازعات الاقطاعية والقبلية ، وبلغت ذروتها في حوادث الستين المشؤومة بين المسيحيين والمسلمين من دروز وسنة . وكان من نتيجتها ان « هاجر نحو ثلاثة آلاف رجل الى حوران حاملين معهم ما غلا قيمة وخف محملا . فمروا بمجدل شمس وتحركوا منهــا خائضين السهل الحوراني حتى اجتازوا اللجاه وبلغوا جبل الدروز[٢] » . ثم عاد عدد قليل من هؤلاء بعد ان هدأت الاحوال « ويمكن القول ان هذه الموجة من المهاجرين اي موجة ١٨٦٠ م هي التي عمرت المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية من الجبل

---

(١) جبل حوران في القرن التاسع عشر – تعريب عبيد ص ٦٥ .
(٢) الحركات في لبنان - ابو شقرا ص ٦٣ .

لأنها رات ان تستقل في سكناها[1] » وهكذا لم ينته القرن التاسع عشر حتى تجاوز سكان الجبل ٢٥ ألفا بينما لم يتجاوز عدد المسيحيين فيه خمسة آلاف حسب بعض التقديرات في حين ان الرحالة بركهاردت قدر سكان الجبل في مطلع هذا القرن اي عام ١٨١٠ م بعشرة آلاف نسمة بينهم حوالي ثلاثة آلاف مسيحي [2] . ولنذكر اخيراً ان عدداً غير قليل من بني معروف هاجر من لبنان الى جبل حوران قبيل الحرب العالمية الاولى واثناءها ثم عاد بعضهم الى لبنان بعد الحرب في حين استقر فيه بعضهم الآخر .

ولو تساءلنا الآن عن الاسباب الاساسية للهجرات المذكورة لامكننا ان نجملها فيما يلي :

١ ـ العصبية القبلية كالقيسية واليمنية التي سبق لها الظهور بوضوح في معركة مرج راهط عام ٦٤ هـ في عهد مروان بن الحكم رابع خلفاء بني امية . واستمرت الى يومنا هذا حيث لا نزال نعاني من آثارها الوخيمة الشيء الكثير في المدن والارياف على وجه الخصوص .

٢ ـ الاضطهاد الديني والمنازعات الدينية التي غذاها الاتراك العثمانيون والدول الاستعمارية وادت الى هجرة بني معروف من المناطق السهلية في جهات حلب وانطاكية ودمشق وغوطتها الى جبل لبنان وجبل حوران .

٣ ـ فداحة الضرائب وظلم الحكام كموقف الامير بشير من خصومه حيث كان يقسو عليهم ويهدم بيوتهم وخاصة « بيوت جماعة الشيخ بشير جنبلاط ومساكنهم في معظم البلاد والقرى وقطع مغروسات اراضيهم واودع كثيراً منهم السجون وحملهم على الاغلال والقيود الى غير ذلك من انواع العذاب والظلم والاستبداد التي الجأت جانباً عظيماً من دروز لبنان الى المهاجرة

---

(١) الحركات في لبنان ـ ابو شقرا ص ٦٣ .

(٢) جبل حوران في القرن التاسع عشر ـ بركهاردت وتعريب عبيد ص ٤٤ .

الى جبل حوران[1] ، حيث توجد الحرية المطلقة وجودة الهواء والمساكن الرحبة في قراه القديمة المهجورة تحيط بها الارض الواسعة الكثيرة الخصب[2] ، ومما تجدر الاشارة اليه ان بني معروف الذين هاجروا الى الجبل لم يجدوا مقاومة من سكانه المسيحيين بل من البدو الذين راحوا يشنون عليهم الغزوات المتلاحقة ويريدون اخراجهم من منطقة يعتبرونها لهم ولمواشيهم ولكن بني معروف استطاعوا بشجاعتهم ان يثبتوا اقدامهم في هذه المنطقة وان يتوسعوا فيها ، وخاصة بعد ان توصلوا الى التحالف مع قبيلة الجوابرة الضاربة اطنابها في اللجاه ، ثم مع قبيلة الشنابلة جنوب شرق السويداء . وربما كانت الحياة القبلية التي عاشها آل معروف والحروب الكثيرة التي خاضوها ضد خصومهم ، من العوامل الاساسية التي ادت الى ظهور زعامة شديدة النفوذ بينهم ، تضمن لهم التماسك والتعاون الفعال ، كزعامة آل الحمدان . وسكنوا اول الامر في قرى متجاورة ليتمكنوا من الدفاع عن وجودهم ، فكانوا والحالة هذه يعتبرون الشجاعة والصبر والحذر افضل مايتحلى به الرجل ، ولم يكن سلاحهم يفارقهم طرفة عين حيث لاتوجد قوى أمن تحميهم وتدافع عنهم . وفي هذا يقول الشاعر الشعبي شبلي الاطرش :

عالسين سيفك لا يفارق وسادتك	خليك فرز من الرجال حريص
ترى عدوك مايخلي عداوته	بالليل يسري وبالنهار يتيس
القاف قلنا الصبر يشفي من العلل	صبرنا كما تصبر سوادي العبس[3]

وهكذا لم يمض طويل وقت حتى سيطر بنو معروف على الجبل وصاروا يأخذون الاتاوة من البدو ، وذلك بدليل ماذكره الرحالة « بورتو »

---

(١) الحركات في لبنان – ابو شقرا ص ١٥ .

(٢) ابراهيم باشا في سورية – سليمان ابو عز الدين ص ١٩٥ .

(٣) ديوان شبلي الاطرش – ص ٥٠ – ٥١ .

الفرز : الرجل الحر النبيه – يتيس : يختبيء ويهرب – العبس : الابل .

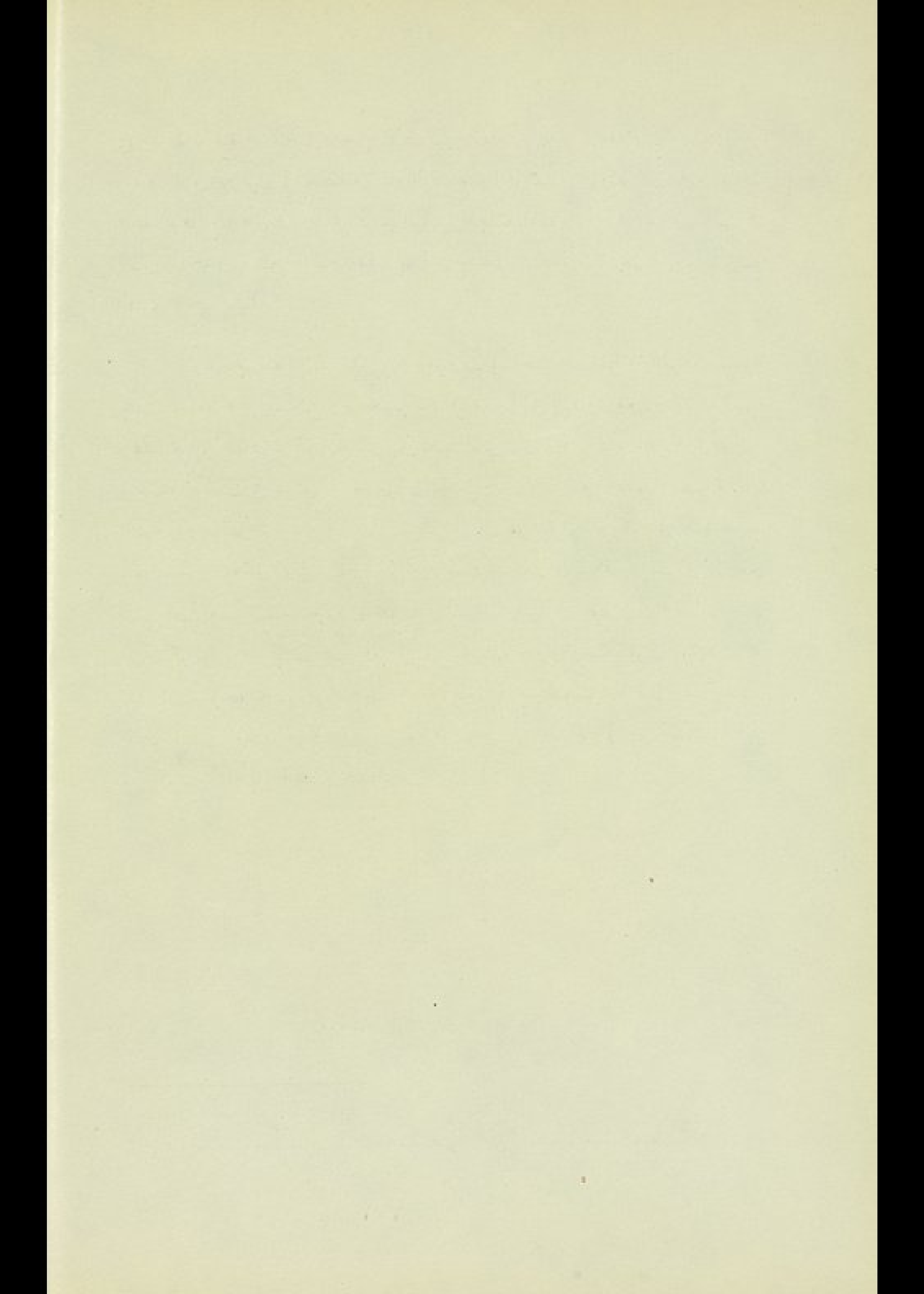
في مقابلة له مع الشيخ اسماعيل الاطرش عندما سأله عن العلاقات بينه وبين البدو الذين ينزلون في منطقته اثناء الربيع والخريف ، فأكد بأن التعديات قليلة الوقوع وقال « ان كل قرى السهل تدفع اتاوة ، الا الدروز فانهم هم الذين يأخذونها من البدو مقابل السماح لهم بسقاية مواشيهم من ينابيع القرى وخزاناتها[1] » .

وعندما شعر البدو ان بني معروف في الجبل اصبحوا من القوة والسطوة بحيث لم يعد من الممكن زحزحتهم عنه ، عمدوا الى التعاون معهم والتودد اليهم ، وهذا ما يؤكده لنا الرحالة بركهاردت الذي زار الجبل عام ١٨١٠ م فقال : « عندما كنت في عرى اتيح لي أن اشهد حادثاً يدل على حسن التفاهم بين الدروز وعرب السردية ، وقد اشرت الى ان هؤلاء البدو كانوا في حالة حرب مع الباشا (العثماني) في الفترة التي زرت فيها حوران . فقد رأيت في احدى السهرات بعض البدو يلوذون بحوش الشيخ (من آل حمدان) فسألت عنهم من يكونون ، فاجبت بانهم من عرب السردية جاؤوا يستنشقون الاخبار عما اذا كان سيوجه عليهم قوات عسكرية جديدة من دمشق[2] » . ومن هذا يتبين لنا ان العداء بين البدو وبني معروف في المرحلة الاولى من سكنى الجبل لم يكن طائفياً بل قبلياً واقتصادياً .

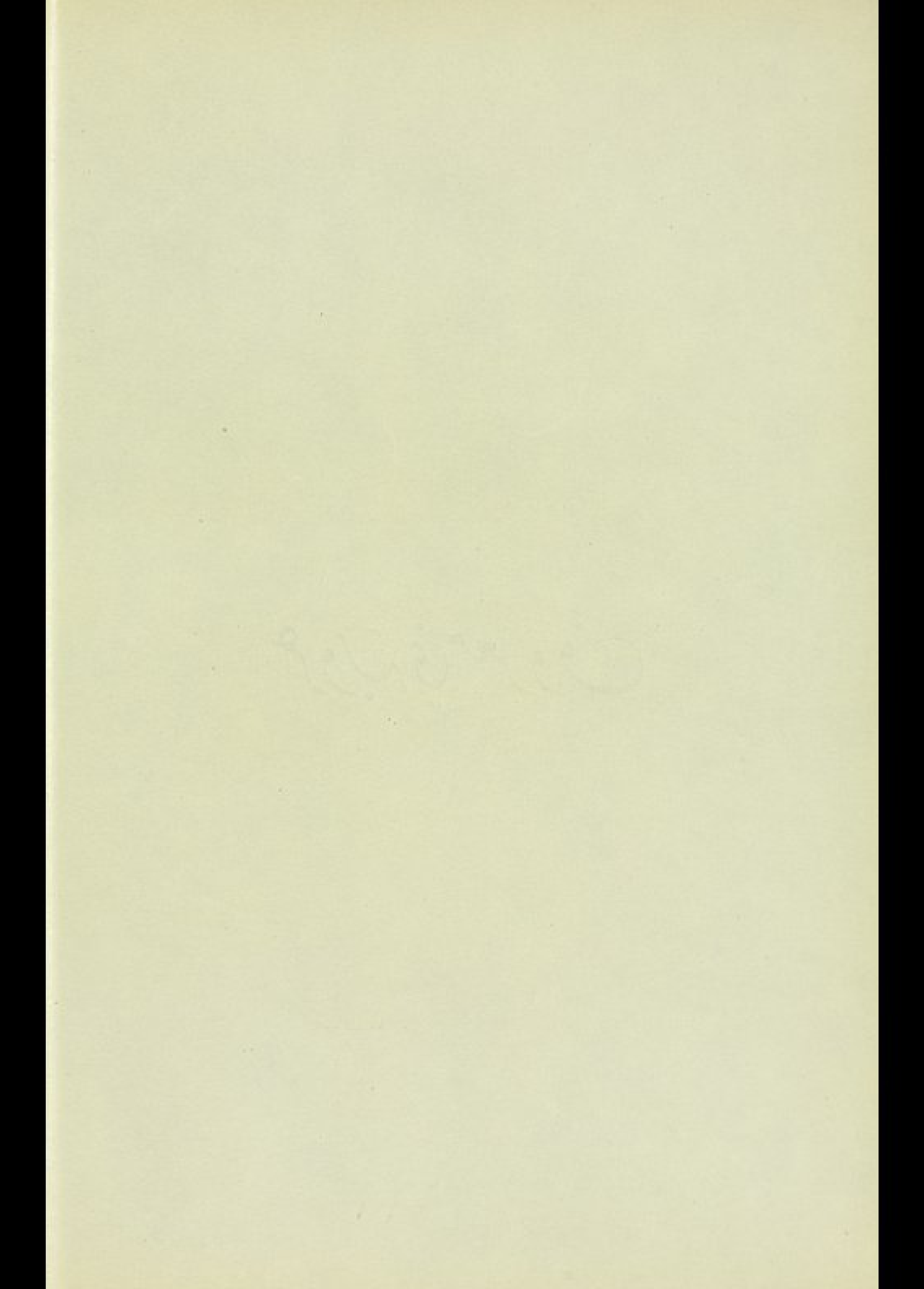
---

(١) جبل الدروز في العهد العثماني - زغبي ص ٤ ؛ .

(٢) جبل حوران في القرن التاسع عشر - بركهاردت وتعريب عبيد ص ٩٦ ؛



عروبة بني معروف



بعد ان ذكرنا تاريخ نزوح بني معروف الى جبل العرب ، وكيف استوطنوا فيه ، قد يخطر على بال القارىء ان يتساءل : لماذا اطلق عليهم اسماء بني معروف والدروز والموحدين ؟

ان اطلاق لقب بني معروف على الدروز ربما يرجع الى انهم يكثرون من عمل المعروف ،أو لأن أحد اجدادهم اسمه معروف كما يروي بعض العارفين ولعله احد اجداد الارسلانيين التنوخيين ، ويقول الاستاذ محمد كرد علي « اطلقت كلمة بني معروف على الدروز تحبباً وتعني انهم اشتهروا بعمل المعروف » . هذا وكان اليمنيون الدروز ينتخون بقولهم « يالمعروف » بينما اتخذ القيسيون شعاراً لهم «البار» وتعني هذه الكلمة الله تعالى . اما تسمية الدروز فقد اطلقت على اتباع محمد بن اسماعيل المجوسي الباطني المشهور بنشتكين الدرزي .. فقتله الموحدون (الدروز) عام ٤١١ هـ ورغم ذلك فقد اطلق عليهم الجهال كنيته تشفياً منهم أو جهلا بحقيقتهم (١) » . اما السيد سليم ابو اسماعيل فانه ينفي نسبة الدروز الى محمد بن اسماعيل الداعي الفاطمي المعروف بنشتكين الدرزي ، ويرى ان نسبة الدروز أو تسميتهم بهذا الاسم هي تسمية عسكرية وليست مذهبية دينية وذلك « لمحاربتهم تحت راية الامير انوجور ابي منصور المعروف باسم انوشتكين الدرزي المنسوب الى طراز خراسان ربيب الحاكم وأسير الظاهر وقائد المستنصر وفاتح الشام وقاهر المرداسيين ومدوخ الروم (وهذا غير نشتكين الدرزي الآنف الذكر) ـ وعلى مقام شعيب القائم في الاقحوانة ما بين طبريا وحطين عقدت المواثيق وتليت الاقسام

---

(١) الدروز : ظاهرهم وباطنهم ـ محمد علي الزعبي ص ١٠ .

وعرفت الدرزية بأخوة سلاح [1] » . ويرى بعضهم ان الدروز سموا كذلك لانهم اندرزوا اي اندرجوا تحت تعاليم المذهب الفاطمي ودخلوا فيه ، ويقال أيضاً من كلمة درسي أي درس كتب حمزة بن علي المتعلقة بالمذهب . أما بالنسبة للقب الموحدين فيقول بعضهم « دعوا انفسهم موحدين لاعتقادهم ان الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ، ليس له بداية تعرف ولا نهاية توصف [2] » .

اما عروبة بني معروف فهي عريقة اصيلة تؤكدها اصولهم وعاداتهم العربية ثم نضالهم الطويل في سبيل العروبة . وهذا ماسنوضحه فيما يلي :

١ – من المعروف ان العائلات الدرزية تهتم بانسابها واصولها . وان كثيراً منها يحتفظ بشجرة نسبه كما تفعل العائلات العربية العريقة ويفتخر بعض من بني معروف بانهم من احفاد المناذرة كما يفتخرون بمعركة ذي قار الشهيرة التي جرت بين العرب والفرس عام ٦١٣ م على اثر اختلاف النعمان مع كسرى ملك الفرس ، ويروي الكثيرون منهم ومن الذين يهتمون بالانساب انهم أتوا من اليمن ثم نزحوا الى العراق وانتقلوا الى شمال سورية واقاموا حول حلب وادلب والمعرة وانطاكية ثم هاجر قسم منهم الى لبنان وفلسطين . ولو ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر تاريخ بعض عائلات بني معروف لتبين لنا بما لا يقبل الشك انهم عرب صراح . فقد ورد في دائرة معارف البستاني « ان التنوخيين وعشيرتهم حضروا الى العراق والجزيرة والمعرة الداخلية .. وفي صدر الاسلام جاء بعض الصحابة لفتوح الشام ، فاتى بعض التنوخيين وعشيرتهم لنصرتهم . وفي سنة ٢٠٥ هـ قدموا بيروت وهم اول المجاهدين في فتوح بر الشام ، واقاموا شعائر الهدى وملكوا جبل بيروت (لبنان) وطردوا سكانه واقاموا به ، وانتسبت هذه الطائفة الى الملوك الفاطميين في مصر واصبحوا اعز رجالهم ولما ولي الحاكم عليهم الدرزي نسبوا اليه مع انهم يرفضون عقائده وقتله احد اكابرهم [3] » .

---

(١) الدروز – سليم ابو اسماعيل ص ٦٣ ، ٦٥ .
(٢) بنو معروف – الصغير ص ٢٣٦ .
(٣) دائرة معارف البستاني ج ٧ ص ٦٧١ .

وجاء في تاريخ فخر الدين المعني لاسكندر معلوف « اما التنوخيون في لبنان فقد مالأوا الخلفاء العباسيين .. وكانوا اول قبيلة عربية تدبرت هذه الجهات وحكمت فيها وصدت غارات الروم ومنهم الامراء الارسلانيون والبحتريون وآل علم الدين ممن قبلوا الدعوة الدرزية » وكان لهم شأن في الحروب الصليبية، فصلها كثير من المؤرخين ومن جملتهم صالح بن يحيى في كتابه « تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين» وابن سباط من عاليه في تاريخه المخطوط الموجود في خزانة اسكندر معلوف المتصلة بخزانة الجامعة الاميركية ببيروت. هذا ويفتخر الارسلانيون بانهم تنوخيون وآباء بني معروف جاءوا الى الشـــام مع ابي عبيدة الجراح .

ويرى الاستاذ محمد كرد علي « ان الدروز لم يفقدوا اصولهم العربية التي من شأنها الشمم والاباء [1] » بينما يقول الاستاذ مارون عبود :

يمشي الدم العربي في اعراقهم صرفاً صراحاً والدليل المنطق

ولو اردنا استقصاء تاريخ عائلات بني معروف وتتبع انسابها لاستطعنا ان نثبت أن اكثريتها الساحقة ترجع الى اصل عربي عريق[2]، وان بعضها ربما يعود الى اصل كردي ، كعائلة آل جنبلاط ، ولكنها تعربت مـع مرور الزمن كما تعربت مثلا العائلة الايوبية التي ينتسب اليها صلاح الدين الايوبي البطل الذي طرد الصليبيين الاجانب من الوطن العربي وعزز بذلك شأن الامة العربية.

٢ – ثم ان تاريخ بني معروف الحافل بالانقسامات والمنازعات القبلية على اساس القيسية واليمنية ، ولهجتهم التي هي اقرب اللهجـــات العربية الى

---

(١) خطط الشام – ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) من اراد المزيد من الاطلاع على انساب بني معروف يمكنه الرجوع الى كتاب « الدروز » تأليف سليم ابو اسماعيل – طبع لبنان . وكتاب ذخـــائر لبنان – تأليف عزتلو ابراهيم بك الاسود – المطبعة العثمانية – بعبدا ١٨٩٦ .

الفصحى ، ونضالهم العربي ثم تمسكهم الشديد بالتقاليد والعادات العربية ، كل هذه الوقائع الحية دليل على اصالة عروبتهم وعراقتها . وما دام واقعهم الحي الراهن هو هذا فلم يعد من الضروري ان نتوقف عند حدود النسب والحسب ، ولا امكننا القول انهم تعربوا كما تعرب اسماعيل عليه السلام ، على ما تقول كتب التاريخ العربية ، وهو الذي تحدرت فيه اعرق السلالات العربية واكثرها خدمة للعرب كقبيلة قريش التي ينتسب إليها بطل العروبة والاسلام محمد بن عبد الله .

ومن ذا الذي يستطيع ان يفرق اليوم بين العربي الدرزي او السني او المسيحي او الاسماعيلي من حيث اللغة والصفات والعادات العربية ، اما اذا وجدت الاختلافات المذهبية عند العرب واذا كانت هنالك فروق ومميزات لكل فرد تعطيه هويته ولونه الخاص به المميز له عن غيره من الافراد ، فليس من المنطق ولا من العلم في شيء ان تتخذ هذه الاختلافات المذهبية والمميزات الفردية دليلا على التمييز العرقي والاختلاف القومي ، ذلك لأن هذه الاختلافات والمميزات لا تنفرد بها الامة العربية بل نراها عند جميع الامم والشعوب وفي كل زمان ومكان .

٣ - ولعل المواقف والاعمال التي تقوم بها الاقوام والجماعات هي التي تعطيها الطابع المميز لها ، وتشير الى حقيقتها ، كما ان النضال العملي من اجل فكرة معينة ، هو خير مفصح واقوى معبر عن الايمان بهذه الفكرة والاخلاص لها . وبالاستناد الى هذه الملاحظة لا بأس من الاشارة الى شيء مما ذكره بعض الكتاب والمؤرخين عن مواقف بني معروف ونضالهم في سبيل العروبة :

آ - وبالنسبة لمقاومتهم الصليبيين يقول الاستاذ محمد كرد علي « اثبت الدروز عن شدة بأس وكثرة مضاء في مقاتلتهم الصليبيين في هذه الديار ، فكان قتالهم لهم اشد من مناجزة بعض الطوائف الاسلامية من سكان ارجاء

الساحل لهم »[١] . وجاء في الغرر الحسان « لما سمعت الافرنج بنزول آل شهاب في وادي التيم (بعد مجيئهم من جبل حوران ١١٧٢ م)جمعوا عساكرهم من صيدا وصور وعكا الى حاصبيا وقدمت آل شهاب الى قتالهم .. وتعاركوا عراك الابل ،واول من قدم الى المعركة الامير منقذ واولاده واخوته وبنو عمه .. وقد قتل من الافرنج نحو ثلاثة آلاف نفس ثم افترقا عن القتال . وعند الصباح رجعوا الى الحرب والكفاح ، وتضاربوا بالسيوف والرماح ، ولم يكن الا القليل حتى فرت الافرنج من تلك الأرض وتحصنوا في الجبال وترجلت آل شهاب واقتحموا تلك الصخور فازاحوا الافرنج من تلك الديار وحاصروا الباقين في قلعة حاصبيا»[٢] وبصورة عامة يمكن القول ان الشهابيين « اعانوا صلاح الدين كثيرا على الافرنج وكان يوليهم طليعة جيوشه »[٣].

ب ـ اما بالنسبة للاتراك العثمانيين الذين بلاهم العرب وابتلوا بهم مدة اربعة قرون ، فقد حاربهم بنو معروف كثيراً ، وسنفصل فيما بعد ، حروبهم ضد الدولة العثمانية في جبل العرب ، اما حروبهم لها في الشام فيروي محمد كرد علي كيف تحصن جيش باشا دمشق وحلفاؤه في المزة لصد الهجوم الذي قام به الدروز بقيادة الامير بشير في ١٤ أيار سنة ١٨٢١م وكيف تمكن هؤلاء من ثغر سور القرية ودخولها بعد معركة حامية استعمل فيها المحصورون المدافع ، وفرت عساكر الوالي درويش باشا .. وغنم الدروز وحلفاؤهم « خياماً وذخائر وخيلاً وسلاحاً ..ومضت عدة أيام وفي نهر بردى تطفو الغرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم ١٢٠٠ رجلاً بين قتيل وجريح[٤] » .

ج ـ وفي لبنان يقول الدكتور عمر فروخ « لا يستطيع أحد أن

---

(١) خطط الشام ـ محمد كرد علي جـ ٣ ص ١٠٤ .
(٢) الغرر الحسان جـ ١ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .
(٣) ذخائر لبنان ـ ابراهيم الاسود ـ ص ٢٤٤ .
(٤) خطط الشام ـ محمد كرد علي ـ جـ ٣ ص ٣٦ .

ينكر ان التاريخ على الشاطىء الشرقي من البحر الابيض المتوسط في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان يدور في لبنان وأن تاريخ لبنان في ذينك القرنين كان تاريخ الدروز ثم انهم لم يتركوا مسرح التاريخ لا في القرن التاسع عشر ولا في القرن العشرين (١) » .

د – وعندما ورث الاستعمار الغربي تركة « الرجل المريض » تركيا واصبحت سورية تحت النفوذ الفرنسي بموجب مؤامرة سايكس – بيكو الاستعمارية التي عقدت سراً بين فرنسا وانكلترا ، مالبث بني معروف ان شعروا بظلم الفرنسيين وهبوا للثورة ضدهم عام ١٩٢٥ م بقيادة القائد العام للثورة السورية الكبرى سلطان الاطرش .

واستمرت الثورة سنتين فقد فيها بنو معروف آلاف الضحايا، وانتصروا في معارك عديدة ، وأظهروا بطولات عربية أعادت الى النفوس الثقة والايمان بقدرة الشعب على التضحية والنضال في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ، وسنأتي على ذكر هذه الثورة بالتفصيل فيما بعد ، وعلى الرغم من ان الفرنسيين سعوا لاسترضائهم بتشكيل دولة خاصة بهم في الجبل ، وأرادوا ان يغذوا فيهم روح الانفصال والطائفية ، فانهم أدركوا هذه المقاصد الاستعمارية وعملوا على إحباطها ونادوا بالوحدة بين الدويلات المصطنعة التي أقامها الاستعمار الفرنسي في سورية ، ثم يتابع الوعي القومي طريقه الطبيعي في النمو والاتساع حتى أصبح شعار الوحدة العربية والتحرر طاغياً بين ابناء جبل العرب ، هذا وسيتضح الجانب النضالي لبني معروف اكثر من ذلك عند الكلام عن الثورة العربية والثورة السورية الكبرى ، وعن اعمالهم ومواقفهم في العهد الوطني . كما ستتضح كذلك تقاليدهم وعاداتهم العريقة في العروبة عند الكلام عن الحياة الاجتماعية .

---

(١) عن « بني معروف » – الصغير ص ٦٩ .

هـ ـ ولم يقتصر نضال بني معروف في سبيل العروبة على الميدان الحربي بل تعداه الى ميادين السياسة والفكر ، ففي مؤتمر جنيف مثلا المنعقد عـام ١٩٢١ م للمطالبة باستقلال سورية وفلسطين والغـاء الانتداب ووعد بلفور اشترك فيه منهم الامير شكيب ارسلان وطعان عمار ونجيب شقير ...

وكان عدد غير قليل منهم قد انتسب الى المنظمات الوطنية قبل الحرب العالمية الاولى كجمعية العهد والعربية الفتاة .. وقد ترك عادل ارسلان وعارف النكدي وفريد زين الدين وفؤاد حمزة ، وعلي ناصر الدين وغيرهم آثارا فكرية وسياسية قيمة . اما الامير شكيب ارسلان الذي كانت حياته الطويلة حافلة بالكفاح من اجل العروبة فقد قالت عنه مجلة المصور القاهرية « كانت للامير الفقيد جولات صادقة في السياسة والادب والشعر والتاريخ والتنقيب والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والنقد والترجمة والتصنيف والشرح والتفسير ، وقلما نجد له مثيلا بين نوابغ العرب قديماً وحديثاً » .

وقال احد الكتاب الفرنسيين روبير مونتاني في كتابه عن الوحدة العربية « منذ ١٩٢٠ وشبيبة افريقيا الشمالية عظيمة الشغف بكل ما يقوله ويكتبه الامير شكيب ارسلان الذي يلقبونه في الاوساط الوطنية برسول العروبة [١] » .

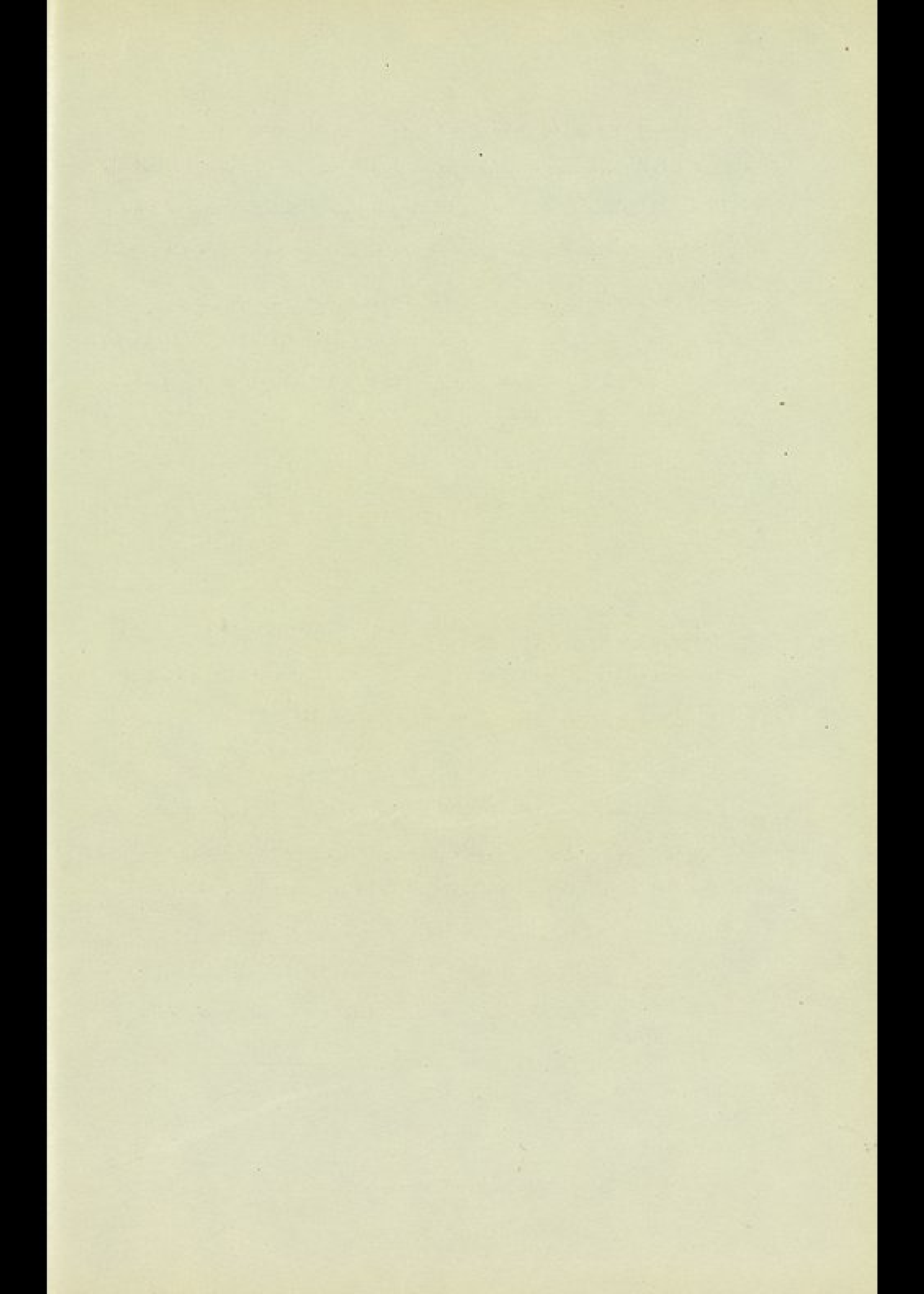
من كل مـا تقدم نستطيع القول مع الدكتور فيليب حتي ان بني معروف « اظهروا في جميع مراحل تاريخهم عزيمة حربية بالاعجاب ، وكان لهم في الشؤون القومية العامة في لبنان وسورية النفوذ مايفوق نسبتهم العددية [٢] » .

وبعد : فما دامت هذه اعمال بني معروف ، وهذا تاريخهم الحـافل بالنضال من اجل الحرية والقضية العربية ، فلم يعد ثمـة مجال للمنطق المجرد والاستنتاجات المغرضة اذا وجدت ، لأن الوقائع الحية تبقى دوماً اقوى من كل منطق مجرد بالغاً ما بلغ هذا المنطق من القوة والوضوح .

---

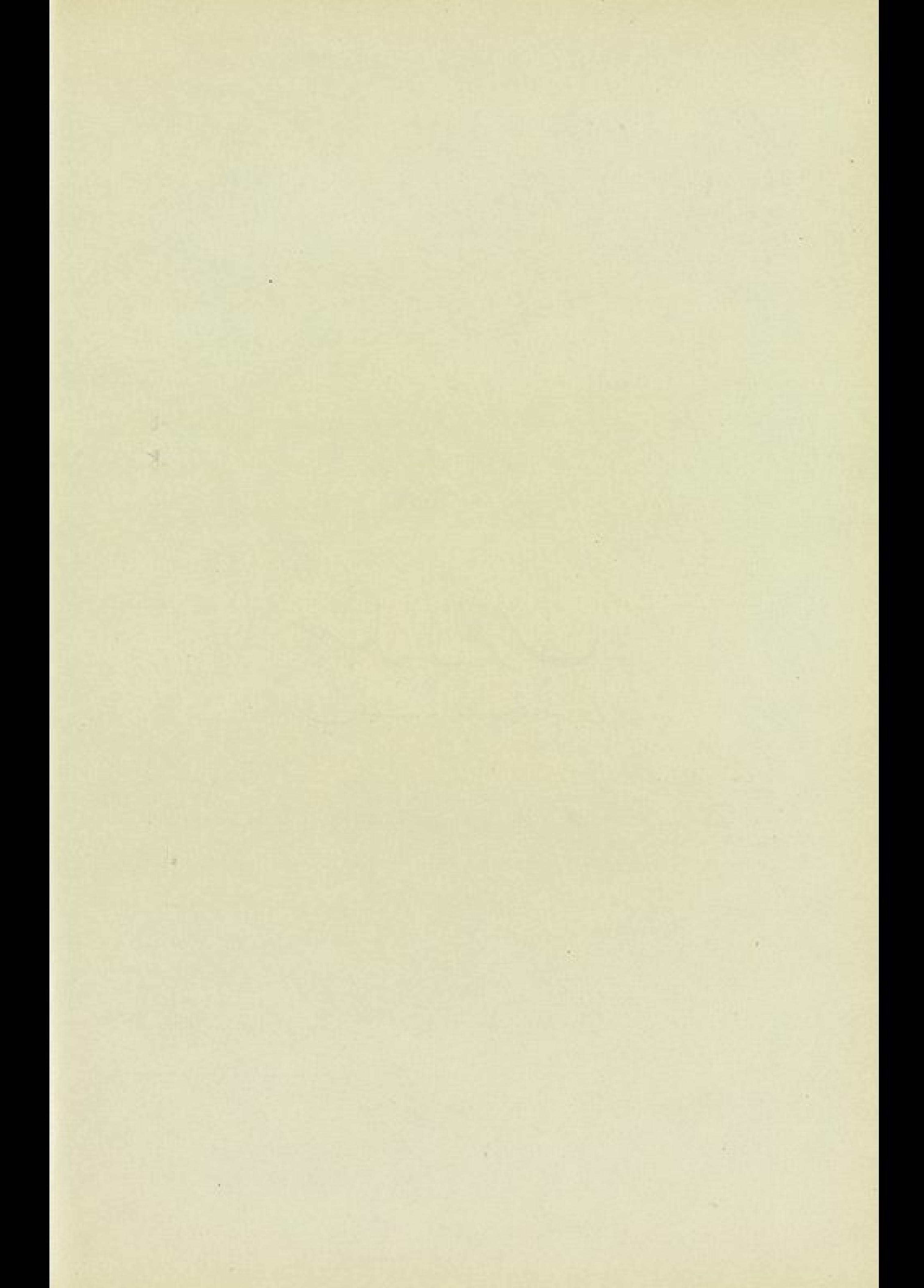
(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ج. ٢ الدكتور حتي ص ٢١٩ .

(٢) كتاب الوحدة العربية ـ مونتاين ص ٤٠ .



جبل العرب

في عهد العثمانيين



عندما استقر بنو معروف في جبل العرب وثبتوا اقدامهم فيه بالقوة، اعترفت لهم الدولة العثمانية ببعض الامتيازات كحمل السلاح والاعفاء من الخدمة الاجبارية ، فراحوا يمارسون حياة مستقلة بعيدة على الاغلب ، عن ضغط الحكام العثمانيين وظلمهم ، واصبح الجبل ملجأ يقصده كل من لا يطيق أذى الحكام . وفي ذلك يقول الشاعر الشعبي شبلي الاطرش :

اليالفو حوران عزوا وانفهوا يرتاح مطلوب الملوك ان جاه[1]

ولكن ابراهيم باشا المصري والحكام العثمانيين أرادوا إخضاع هذه المنطقة ، ومنع المتمردين من اللجوء اليها والاحتماء بها ، فوقعت بسبب ذلك حروب كثيرة نجملها فيما يلي :

آ ــ الثورة على ابراهيم باشا

حينما احتل ابراهيم باشا سورية وافق أول الامر على اعفاء سكان الجبل من الخدمة العسكرية وابقاء اسلحتهم بأيديهم وتخفيف الضرائب عنهم والامتناع عن بناء الحصون في جبلهم ، ولكنه أراد فيما بعد ان يبسط نفوذه عليه ليمنع من اللجوء اليه كل متمرد على أوامره او ناقم على حكمه او هارب من ضريبة فادحة او فار من جندية اجبارية ، ولذلك بنى خطته على ان يجبي الاسلحة منهم اولا ثم يعمد لبناء الابراج المحصنة قرب الينابيع الرئيسية المجاورة لمجاه ويطلب بالتالي تقديم المجندين منهم فاذا رفضوا مطاليبهم يسرع الى ضربهم فوراً[2] .

---

(١) ديوان شبلي الاطرش ص ١٣٧ - بمعنى عندما يأتون الجبل يعتزون ويتنفسون الصعداء .

(٢) الدروز وابراهيم باشا المصري - السعدي ص ٢٢ .

وبعد مفاوضات فاشلة بينهم وبين شريف باشا ارسل هذا حملة معها اربعمائة فارس بقيادة علي آغا البصيلي ، تمركزت في قرية الثعلة غرب السويداء في تشرين الثاني من عام ١٨٣٧م ولكن ما ان اسدل الليل ستاره حتى هاجموا هذه الفرقة واعملوا القتل في افرادها ولم ينج منهم سوى ثلاثين رجلا وقد اشار الشيخ ابو علي الحناوي في قصيدته الى هذه الوقعة فقال :

اول فتوح الشر ذبح البصيلي . اخذنا خمسمائة حصان فرد نهار

وغضب ابراهيم باشا لهذه النتيجة ، فارسل حملة من ثمانية آلاف مقاتل بقيادة محمد باشا والتقت بهم بالقرب من بصر الحرير حيث جرت معركة حامية في مطلع عام ١٨٣٨م ، وانسحبوا على اثرها الى اللجاه متظاهرين بالانكسار ، فلحقهم محمد باشا « وسار مع اركان حربه في مقدمة الجيش ولما بلغوا مكاناً شديد الوعورة انقض عليه الدروز من مكانهم ففتكوا عند افتتاح المعركة بمحمد باشا قائد الحملة وامير اللواء ايوب بك[1] » ، وتم لهم الانتصار الساحق واستولوا على كميات من الميرة والذخيرة والسلاح . وعلى اثر هذه المعركة اراد ابراهيم باشا أن يقود بنفسه حملة جديدة لاخضاعهم لولا ان الجيوش العثمانية بدأت تتقدم نحو سورية من الشمال ، فانشغل بها وطلب عندئذ من والده ان يرسل الحملة الى حوران بقيادة احمد فيللي باشا وزير الحربية فاصطحب هذا معه ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل وتوغل في اللجاه ثم عسكر بالقرب من قرية جدل – في اطراف اللجاه الغربية – حيث بدأت طلائع المحاربين تناوش جنوده ، ولكنها اخذت تتراجع الى الوراء بقصد استدراجهم الى الاماكن الوعرة حتى اذا تم لها ذلك امطرتهم بوابل من رصاص محكم التصويب . وعندما ادرك الدروز ان الجنود قد اعتراهم الكلل انقضوا عليهم وناجزوهم بالسيوف فهزموا الحملة وكبدوها خسائر جسيمة قدرت بنحو اربعة آلاف ما بين قتيل وجريح

---

(١) ابراهيم باشا في سورية – ابو عز الدين ص ٢٠٣ .

وأسير وكان في عداد الجرحى أحمد منيكلي باشا[1] » .

وعلى اثر هذا الانكسار ادرك ابراهيم باشا ان قمع ثورة بني معروف تتطلب الى جانب الجيوش النظامية عدداً من المحاربين غير النظاميين الذين تعودوا القتال في المناطق الجبلية ، فجهز الحملة المطلوبة من عشرين الف مقاتل ، وقادها بنفسه في اواسط نيسان من عام ١٨٣٨م وكان يساعده في ذلك سليمان باشا الفرنساوي وكبار الضباط ، وقرروا محاصرة بني معروف في اللجاه والاستيلاء على ينابيع المياه واتلاف مازاد منها عن حاجة جيشه واشتد القتال حول هذه الينابيع وكثرت المعارك حتى بلغت الستين على حد قول الشيخ ابو علي الحناوي :

ستين كون نقابلو وما نهابو   ونكسر جيوشه بقوة المختار[2]

ولكن عندما تمكن ابراهيم باشا من تدمير عدد كبير من برك المياه في صيف ذلك العام ، وشدد الحصار على الثائرين ، شعر هؤلاء بحراجة موقفهم فعمدوا للاستنجاد ببني معروف المقيمين في وادي التيم ، واشعال الثورة في هذه المنطقة جهات راشيا وحاصبيا واستطاع شبلي العريان ومعه مئتا رجل ان يحتلوا قلعة راشيا مع طلوع الفجر ، حتى اذا ما اتسع نطاق هذه الثورة واشتد اوارها اخطر ابراهيم باشا ان يترك اللجاه ويأتي بنفسه الى وادي التيم ليقمع الثورة الناشبة فيه . وكانت اشهر المعارك التي خاضها مع الثوار وهي معركة وادي بكا ثم معركة جنعم - بالقرب من قرية شبعا بين جبل الشيخ والجبل الوسطاني - في اواخر تموز من عام ١٨٣٨م حيث انتصر ابراهيم باشا وقبل مصالحة الثائرين عندما ابدوا استعدادهم لذلك ، ثم عفا عنهم واستلم اسلحتهم ، وعاد لينهي الثورة في اللجاه بأي ثمن خوفاً من تدهور الموقف الداخلي وازدياد خطر التآمر الخارجي من الدولة العثمانية والدول الاوربية ، فأصدر أوامره

---

(١) ابراهيم باشا في سورية - ابو عز الدين ص ٢٠٦

(٢) الكون : المعركة - المختار : النبي المختار .

بالعفو عن بني معروف واكتفى منهم بتقديم بعض الاسلحة « وتعهدت الحكومة ان تعفوهم من التجنيد والسخرة والضرائب واذنت لهم بحمل سلاحهم وبأن يكون لهم حق انتخاب شيوخهم كما انها وعدت بعدم اقامة تحصينات في بلادهم[1] » .

وهكذا لم يحصل ابراهيم باشا على النتائج التي كان يتوخاها من محاربة بني معروف في جبل العرب .

ب — ثورات بني معروف ضد الدولة العثمانية

عندما عاد العثمانيون الى حكم سورية بعد خروج ابراهيم باشا منها ، ارادوا اخضاع جبل العرب وبسط سلطتهم عليه ، واتبعوا من اجل ذلك طرقا فاسدة ملتوية كالاثارات الاقليمية والطائفية واحداث الوقيعة بين ابناء الوطن الواحد بالاضافة الى استخدام القوة كلما وجدوا اليها سبيلا .

ففي عام ١٨٥٢ م ارسلت الدولة العثمانية جيشاً كبيرا الى الجبل بقيادة والي دمشق محمد باشا القبرصي لاخضاع بنيه وجباية الاموال الاميرية منهم . ولكنهم فاجأوه بالقرب من ازرع ودارت معركة « دام القتال فيها بضع ساعات فانهزم والي دمشق ووضع الدروز ايديهم على مهمات الجند والمدافع . . وتعرف هذه الوقعة بوقعة صاري عسكر[2] » . ولكن الاتراك العثمانيين عمدوا بعد هذه الهزيمة « لاثارة الحوارنة واغرائهم بالمساعدة على استخلاص قرى الجبل الغربية » . كما ارسلوا بعض قواتهم لضرب بني معروف الذين تجمعوا في قرية امسيكي — في اطراف اللجاه الغربية — ودارت معركة حامية بين الفريقين عام ١٨٥٦ م انتهت بانتصار آل معروف وانتزاعهم قرى : تعاره — الطيره — صما

---

(١) ابراهيم باشا في سورية — ابو عز الدين ص ٢٢٠ .
(٢) خطط الشام — كرد علي — ج ٣ ص ٧٩ .

ـ الداره ـ الدويرة ـ سميع ـ الثعلة ـ الاصلحة ـ الدور ـ خربا المجيمير ـ بكا ـ انظر الخريطة ـ وبعد سنوات ارسلت الدولة العثمانية حملة جديدة الى الجبل لمطالبة سكانه بارجاع القرى المذكورة وتقديم الاموال والاعشار الى الحكومة وطرد كل دخيل يلتجيء الى جبلهم . ولكن الشيخ ابا علي قسام الحناوي من قرية السهوة ، تكلم باسم الوفد الذي قابل العثمانيين فقال :

« اما الاموال الاميرية فانها تدفع بطيبة خاطر لأنها تدفع كزكاة اموال وفرض واجب ، اما تسليم القرى لاصحابها فهذا امر لاتقبله العشائر ، فكما أخذناها نحن بالسيف فليأخذوها هم بالسيف ايضا ، واذا اردتم ان تستلموها بالقوة فسنسلمها بعد ان نروي ترابها بالدم . واذا مشيتم علينا فلانقابلكم الا بالبارود واليوم المقرود [1] (المشؤوم) » .

وبعد ذلك دارت المعركة في ارض قراصة ـ غرب نجران ـ انتهت بهزيمة الاتراك .

وعندما وقعت حوادث عام ١٨٦٠ م المشؤومة في لبنان لضعف الوعي القومي وسوء تصرف الحكام وتحريض العثمانيين والاوروبيين ، استنجد بنو معروف في لبنان باقاربهم في جبل حوران فانجدهم هؤلاء بما يقرب من الفي مقاتل على رأسهم اسماعيل الاطرش شيخ بلدة القريا ، وكان بينهم عدد من بدو السردية والسلوط سكان اللجاه ، فاشتركوا في حوادث زحلة ولكنهم لم يمكثوا في لبنان الا قليلا ثم عادوا الى الجبل .

وفي عام ١٨٧٨ م صادف ان لجأ الى ياسين الحريري شيخ قرية بصر الحرير احد الاعراب من الجوف ، احدى مدن الشمال في المملكة السعودية ، ومعه امرأة جميلة اسمها فهيدة ، فأحبها الشيخ ياسين واستأثر بها ، فشكا الاعرابي أمره الى حمود نصر شيخ قرية الدويرة المجاورة ، حتى اذا لم تثمر وساطته في

---

(١) جبل الدروز ـ حنا ابو راشد ص ٥٣ .

الموضوع ارسل مع الاعرابي خمسة اشخاص لاختطاف الزوجة في جنح الظلام ولكن اهالي بصر الحرير شعروا بوجودهم فلحقوا بهم وقتلوا اثنين منهم ثم تطورت القضية وقتل عشرة من اهل بصر ، وتمكن مدحت باشا والي سورية من حل المسألة صلحا . ولكن بعد اعفائه من ولاية سورية ارسلت الدولة العثمانية جيشاً كبيرا بقيادة جميل باشا ، فاشتبك مع بني معروف في معركة حامية بالقرب من قرية قراصة ، وفقد فيها هؤلاء مايقرب من ستمائة شخص . وقد وصف شبلي الاطرش هول هذه المعركة فقال :

اول فتوح الشر جازة فهيدة	وجرى عقبها عركات يابو الهمايم
قام الحريري جرد الترك والحضر	وجميل باشا قائد الجيش حازم
بنو على خربة تعارة خيامهم	في يوم اسود مثل الظلايم
جرى يوم قراصة الذي تخبرونه	ياما فقدنا كل قرم مخاصم[1]

وانتهى الامر اخيراً الى المصالحة بين اهالي بصر الحرير واهالي الدويرة من آل نصر الذين « انتقلوا الى نجران وسكن مكانهم آل عزام تفاديا لتجدد الخصام[2] » .

وفي عام ١٨٨٠ م افادت الدولة العثمانية من شجار عشائري بين اهل الجبل وجيرانهم ، فأرسلت على آل معروف حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا وتمكنت « من تأسيس قائمقامية جبل الدروز مؤلفة من ثمان نواح وتعيين القائمقام والمديرين منهم[3] » .

وبعد سنوات هاجم بنو معروف قلعة المسمية في اطراف اللجاه منعاً لتمركز القوات العثمانية فيها واتخاذها نقطة انطلاق لتطويع الجبل .

---

(١) ديوان شبلي الأطرش ص ٨٥ .
جازة : زواج – عركات : معارك – ياما : كم و كم – قرم : شجاع قوي .

(٢) جبل الدروز في العهد العثماني – الزغبي ص ٦٦ .

(٣) خطط الشام – كرد علي جـ ٣ ص ١٠٥ .

وبعد عامين من هذا الهجوم نشبت ثورة شعبية داخل الجبل عرفت باسم « العامية » وسنتكلم عنها في فصل خاص لأهميتها .

وفي اواخر عام ١٨٩٢ م اعتقلت الدولة العثمانية شبلي الاطرش وارادت نفيه من الجبل ، وقيل ان اخاه ابراهيم شيخ السويداء ، اتهمه بمحاولة تحريك العامية من جديد واثارة المشاكل بقصد الوصول الى الزعامة بدلا منه فحرض الدولة عليه حتى اعتقلته . وبينما هو في طريقه الى معتقلات دمشق هاجم عدد من آل معروف الجنود المرافقين له فأجبر هؤلاء على اللجوء الى قلعة المزرعة ، وعندما اشتد الحصار عليهم اضطرت الدولة العثمانية لاطلاق سراح شبلي بعد ان قبلت وضع ابنه محمود مكانه كرهينة في القلعة .

وبعد اربعة اعوام يقع شجار عشائري لأسباب مادية بين جماعة من اهل قرى صلخد ونجران و كحيل والحراك ، وتغتنم الدولة العثمانية هذه الفرصة فترسل حملة الى الجبل لتطويع سكانه بقيادة ادهم باشا الذي اشتبك معهم في معارك عديدة : في قراصة ، والسجن ، ونجران ، وام العلق ، ثم تمكن بعدها من دخول السويداء والتمركز في قلعتها ، ولكنه شعر بحراجة موقفه بعد ان تكررت هجماتهم على القلعة فارسلت اليه الدولة العثمانية نجدة بقيادة ممدوح باشا الذي جعلته حاكما عسكريا للمنطقة الجنوبية . وعندما لم يستطع اخضاعهم بالقوة تودد اليهم وامنهم ثم طلب المفاوضة معهم ، ولكنه عاد فغدر بهم والقى القبض على زعمائهم ونفى المئات منهم الى الاناضول واخذ يجمع السلاح من الباقين ويقسو في معاملتهم واضطهادهم . وقد وصف شبلي الاطرش غدر الاتراك بقوله :

اللي وثق بهم بلا شك مجنون	من آمن الثعبان مالو سلامه

كما انه وصف ظلمهم بعد أن سيطروا على الجبل بالحيلة . فقال :

اول طلب قالوا علف للمواشي	شعير وتبن شندي مع الصبح لازم
هاتوا احطب ، هاتوا فحم للعساكر	برغل وآت وباغ جامد وعايم

ستين ليلة والمطاليب قـائمة
كلونا مثل خطو السنين الهشايم
ولما وصلنا الحبس بالذل والشقا
بقا الدم من كل المحابيس عايم
من بعدها صارت على الناس ثقله
طلبوا اموال من السنين القدائم
عدوا الحلال وطوبوا الارض كلها
وصرنا مثل اهل الغجر للظلايم
صار الحواله يسحب الجيد منـا
ويقشطونا مثل قشط السوايم
يقلوا اللحم بالسمن والجاج مثله
من غير هذا فحشهم بالكلايم
سر كس وكردو ترك عليه محوجه
لاما دعوا حوران للحشر نايم (١)

ويبدو أن ممدوح باشا قد ملأه الغرور ، وتمادى في الظلم والتنكيل واشاعة الرعب والارهاب معتقداً ان هذا افضل اسلوب يتبعه مع سكان الجبل ، ولكن الواقع ان الظـــلم الشديد الذي وصفه الشاعر الشعبي بدقة ووضوح ، ولد ثورة جديدة عارمة عام ١٨٩٧ م ، ومما يذكر في اسبابها المباشرة ان احد نواطير حمى قرية عرمان تشاجر مع اعرابي اعتدى على هـذا الحمى ، وما أن شكا الاعرابي الى ممدوح باشا بالسويداء حتى ارسل هذا حوالي ثلاثين جندياً الى عرمان بحجة القبض على النواطير وتأديبهم ، ولكنهم كانوا في الحقيقة يريدون اعتقال وجوه هذه القرية الذين سبق لهم أن اجتمعو سراً مع وجوه القرى المجاورة لمعالجة مظالم الاتراك وسوء معاملتهم للأهلين ، وعندما هرب الناطور المذكور من قبضة الجنود اطلقوا عليه الرصاص ولكنه نجا ، ثم خرج السيد محمود ابو خير ليستطلع الخبر ، حتى اذا ما صادف جندياً واحتج على العنف المتبع اطلق الجنود النار عليه فأردوه قتيلا . وكنتيجة لهذا الحادث هاجم الاهلين الجنود وابادوهم باستثناء اثنين حيث تمكن احدهمـا من الهرب واستجـــار الثاني بالنساء فحمينه . وعلى اثر ذلك ارسل ممدوح باشا اربعـة طوابير مشاة وكتيبة من الخيالة لتأديب الثائرين ، وما ان بدأ القتال في مكان

---

(١) ديوان شبلي الاطرش - ص ٨٩ - ٩٠ .

شندي (بالتركي : حالا - آت : لحم - باغ : سمن - الهشايم : من حطم وهشم - الغجر : النور - الحوالة : الجابي - قشط : ساق - محوجة : خليط - لاما : الى ان .

يدعى « عيون » شمال صلخد حتى توافدت النجدات من اهالي ملح وامتان وام الرمان وصلخد وجرت معركة حامية الوطيس اشترك فيها الجانبان بالسلاح الابيض كما اشتركت فيها النساء واشتد حماس بني معروف حتى قضوا على الحملة ولم ينج منها سوى افراد قلائل ويصف الشاعر الشعبي طرودي ابو حسون هذه المعركة فيقول :

كون جرى وسـط عيون   اجوهن من هون ومن هون
والنشـامـا شـالوهن   نسمـع سوق الحـداذين
خسرف يصيح يا ممـدوح   وين نهـرب وين نروح
القـائد والعسكر مـذبوح   والضبـاط ملقحـين (١)

اما شبلي الاطرش فيقول :

الفين من حمر الطرابيش سـقهان   بعيون ذبحوا من القروم العيـالي
ضبع الكويرس عازموضبع حبران   وصار اللحم بالعون مثل التلال (٢)

وتابع المنتصرون زحفهم على السويداء وحاصروا قلعتها بضعة ايام . ولكن الدولة العثمانية حقدت على نتيجة هذه المعركة فارسلت قوة كبيرة جداً مؤلفة « من اربعة طوابير وخمسين كتيبة بقيادة المشير طاهر باشا » (٣) وتمكنت من دخول السويداء وانقاذ الحامية المحاصرة فيهـا . وفي اليوم التالي لاحقت الثائرين نحو الشرق ثم زحفت نحو قنوات ومنها الى شهبا حيث جرى حولهـا معركة حامية انتقل على اثرها آل معروف الى اللجاه لحمل الاتراك على خوض المعارك فيها باعتبارها منطقة وعرة كثيرة الاشجار ، وكان على رأسهم ابوطلال

---

(١) اجوهن : اتوهم – هون : هنا – النشاما : الشجعان – شالوهن : ازاحوهم – خسرف : قائد الحملة – ممدوح : حاكم المنطقة الجنوبية – وين نهرب : اين نهرب...

(٢) ديوان شبلي الاطرش ص ٧٤ – سقهان : اموات – القروم العيالي : شجعان بني معروف – الكويرس وحبران : قريتـان قريبتان من مكان المعركة – بالعون : عون الله

(٣) خطط الشام ج ٣ ص ١١١ محمد كرد علي .

وهبه عامر الذي هرب من منفاه في الاناضول مع نفر من جماعته ، وراحوا يغزون فرق التموين الآتية الى الجيش من دمشق ويفاجئون المراكز العسكرية ويخربونها ، ولكن الاتراك العثمانيين اتبعوا معهم الخطة نفسها التي اتبعها ابراهيم باشا المصري من حيث محاصرتهم في اللجاه وحرمانهم من المياه . ومع ذلك كله لم يستطع ممدوح باشا ان يخضع الثائرين تماما ومال الى مصالحتهم ،وعقد الثائرون اجتماعات عديدة في عرمان وقنوات والسويداء وطالبوا الدولة بتحقيق المطاليب التالية :

١ - اعادة جميع المنفيين الى الجبل ٢ - رفع التجنيد الاجباري عن بني معروف ٣ - تخفيف الضرائب ٤ - اخراج المساجين من دمشق ٥ - تقليل عدد الجنود وعدم بناء قلاع جديدة ٦ - عدم القاء السلاح قبل تنفيذ هذه المطاليب .

ومما يروى في هذه الفترة عن المرحوم احمد المقوش انه اتكأ على سيفه وقال لرئيس الوفد العثماني المفاوض : « يا افندينا. اكلنا كمش . وحكينا دفش ،وقرعة ما منحطش ، وقلاع ما نعمرش ، واهل البلاد غائبين مسركلين (منفيين) الدوله لها بلاد ومالها عباد ، ماترمي سلاحنا ، وماترجع عن الثورة قبل ان يعود اهل البلاد (المنفيون) لها[1] » . .

قبلت الدولة العثمانية هذه المطاليب وبدأت بتحقيقها . فأعادت المنفيين واطلقت سراح المعتقلين واعطتهم بعض الهبات والمساعدات وبذلك هدأت الثورة وخيم الهدوء على الجبل في الوقت الذي كانت فيه الدولةاحوج ماتكون الى الهدوء بعد نشوب ثورة الارمن في الاناضول وثورات العشائر والعناصر الناقمة على استبداد السلطان عبدالحميد ورجعيته في مناطق مختلفة . وبقي الهدوء مخيماً على الجبل حتى عام ١٩١٠ م وقويت شوكة ابنائه في هذه الفترة ولم

(١) رواية السيد صلاح مزهر .

يتمكن الاتراك من ان يحركوا ساكناً عندما التجأ سلطان بن رشيد امير نجد الى الجبل هرباً من ظلمهم عام ١٩٠٧ .

وفي عام ١٩٠٥ م اعتدت قبيلة المعجل على قافلة تجارية لبني معروف آتية من دمشق ثم تمكنت من قتل عدد من حماتها بالقرب من قرية محجة في حوران ، فراح شيخها دحام ينظم القصائد الشعبية مفتخرا بنفسه وبقبيلته ، هاجياً بني معروف معيراً لهم بالجبن ، فثارت ثائرتهم وزاد من رغبتهم بأخذ الثأر انهم عندما كانوا يذهبون الى دمشق كان أهلها يمازحونهم بقولهم : « اوعى دحام بالفجلة ، دحام بالثوب ... » ولهذا اجتمع بنو معروف بقيادة مصطفى الاطرش شيخ قرية امتان ، وانضم اليهم شيوخ السردية والسوالمة من بدو الجبل ، وهذا مايؤكد ان طابع هذا القتال لم يكن طائفياً بل قبلياً ومصلحياً ، ولم يشأ آل بنو معروف ان يأخذوا دحاماً وقبيلته على حين غرة فأرسلوا اليه نذيراً يخبره بقدومهم لمنازلته ، ثم التقى الخصمان بالقرب من ضمير جنوب شرق دمشق عام ١٩٠٦ م وجرت معركة حامية انتصر فيها بنو معروف وحلفاؤهم من البدو انتصاراً حاسماً ولم يفقدوا منهم سوى رجلين ، بينما فقدت قبيلة المعجل ثمانية رجل وفر الباقون ومعهم الشيخ دحام .

وبهذه المناسبة تجدر الاشارة الى ان بني معروف ، خاضوا منذ دخولهم ارض الجبل ، معارك قبلية عديدة مع جيرانهم البدو والحضر من أجل بسط السيطرة ومد النفوذ ، وكثيراً ما كانت تأخذ طابع الغزو القبلي المعروف بين العشائر العربية كغزو ابن سمير ثم غزوهم له ... ولم نشأ التبسط بها لانها حدثت بدوافع العصبية القبلية ولا تنطوي على اهمية تاريخية .

وفي عام ١٩١٠ م قررت الدولة العثمانية اخضاع الجبل بعد ان كثر لجوء المتمردين اليه ، فاغتنمت فرصة شجار وقع بين بعض الاهالي في قرى حوران والجبل ، وارسلت « حملة مؤلفة من ثلاثين الف جندي بقيادة سامي

باشا الفاروقي [1] ، الذي اعتمد أول الامر على الحيلة حيث استطاع القبض على يحيى الاطرش شيخ قرية عرى وأودعه السجن ثم زحف على الجبل من درعـا ووزع منشوراً وعد فيه بالعفو التام عن كل من يلقي سـلاحه ، ولهذا وقعت البلبلة في صفوف بني معروف ، واجتمع بعضهم في قرية الكـفر بينما اجتمع بعضهم الآخر في قرية مفعلة فهاجمهم سامي باشا في هذين الموقعين ، غير انه هزم ولم يستطع السيطرة على الموقف إلا بعد ان تظاهر باللين وأغدق الوعود الجميلة للمسالمين الذين راحوا يؤدون السلاح ويعلنون الولاء للدولة ، وما ان اطمأن القائد التركي الى ضعف مقاومتهم حتى اعتقل المئات منهم وارسلهم الى سجون دمشق وعكا ونفذ حكم الاعدام شنقاً في كل من ذوقان والد سلطان الاطرش ، ويحيى ثم مزيد عامر وهزاع عز الدين ، ومحمد القلعاني وحمد المغوش ... وبهـذا الارهاب سيطر العثمانيون على الجبل وراحوا يحصون نفوسه ويسوقون شبابه الى الجندية ويستوفون الاعشار ورسوم الاغنام ... وفي هذه الفترة من الحكم الارهابي نشبت ثورة في الكرك بشرق الاردن ، وخشيت الدولة العثمانية من انتفاض بني معروف فمالت الى مسايرتهم واتبـاع اللين معهم واطلقت سراح المعتقلين منهم واستمرت في سياستها هذه اثناء الحرب العالمية الاولى والثورة العربية الكبرى . وسنذكر في الفصل التالي كيف اشترك بنو معروف في هذه الثورة واسهموا في مقاومة الاتراك واخراجهم من البلاد العربية .

جـ — موقف بني معروف من الثـورة العربية الكبرى

عندما عين جمال باشا السفاح قائد الجيش الرابع التركي حـاكماً على سورية في مطلع الحرب العالمية الاولى ، تودد الى العرب اول الأمر وتظـاهر بعطفه على أمانيهم القومية . ولكنه سرعان ما كشف عن نياته المبيتة ونفسيته الحاقدة فبطش باحرار العرب وحكم على ابشع مـا يكون الظلم والاستبداد

(١) خطط الشام ج ٣ كرد علي ص ١١٢ .

« ولم يسلم من يده الا دروز جبل حوران فانهم خدعوه بوعودهم ولم يتجندوا بحجة العمل في اراضيهم لاخراج الحبوب للجيش ، ولكن الغلات التي استغلوها لم يقدموا منها شيئاً للدولة على الرغم من الحاح القائد العام عليهم . . ولوخرجت دولته ظافرة لارسلوا حملة على هذا الجبل تهلكه وتخربه »[1] . وكان جمال باشا قد صرح بعد وصوله الى سورية فقال : « اذا كان هنالك ما اخشـــاه فهؤلاء الدروز الذين اريد ان يظلوا بعيدين عن الافكار باضرام ثورة ضدنا »[2] . وتحقيقاً لرغبته هذه زار الجبل وتودد لسكانه وقدم لزعمـــائه الخلع والأوسمة والمنح المالية ، وسمح لهم بالتسلح ووافقهم على طلب اعفائهم من الخدمة العسكرية وبذلك انجرف معه عدد منهم ، ولكنه نشر الجواسيس بينهم غير ان غـــايته لم تنطل عليهم وخاصة انه قد سبق لهم ان عرفوا الشيء الكثير من غدر الاتراك وخداعهم ولعل ما قاله الشاعر شبلي الاطرش عن صفات الاتراك هـذه يعبر بوضوح عن نظرة بني معروف اليهم وذلك في قوله :

اللي نجن يلعن فرايا طوارهم	وحكامهم ما يقضبون امان
لكن خصال الخون والعيب كارهم	من يأمن النـادوس والثعبان[3]

والحق اننا لو اضفـنا الى نظرة بني معروف هذه للدولة العثمانية ، ما قاسوه منها في حروبهم الطويلة ضدها ، وما اقدمت عليه من التنكيل بهم واعدام عدد من زعمائهم عام ١٩١٠م ، واضفنا ايضـــاً ان بعضهم كنسيب الاطرش وسليم المقوش قدسبق لهم ان اشتركوا بجمعية العربية الفتاة وبالنشاط السياسي ضد الاتراك ، نقول لو اضفنا ذلك كله ولاحظنـــاه لوجدنا الموقف الطبيعي لا كثر ابناء الجبل هو دعم الثورة العربية الكبرى والعمل على الخلاص

---

(١) خطط الشام جـ ٣ - كرد علي ص ١٤٦ .
(٢) سورية ولبنان في الحرب العالمية ص ١١١ .
(٣) ديوان شبلي الاطرش ص ١٠٠ .
نجن : اختبر - النادوس : ناقل الفساد والنميمة - خصال : صفات.

من حكم العثمانيين الحافل بالظلم والفساد . ولهذا ما كاد الشريف حسين يطلق الرصاصة الاولى ايذاناً باعلان الثورة على الاتراك[1] حتى اصبح جبل العرب ممراً للمناضلين ومقراً للسياسيين الهاربين من ظلم الاتراك وملجأ للفقراء الذين منعتهم ظروف الحرب من الحصول على قوت يومهم . وقد اشار الى ذلك المجاهد فايز الغصين في مذكراته المنشورة في جريدة القبس . ومما قاله عن آل المقوش مثلا :

« انهم آووا المرحومين عبدالغني العريس وعارف الشهاب وتوفيق البساط وعمر حمد وابراهيم هاشم (رئيس حكومة الشرق العربي) ، مدة طويلة وخدموهم خدمات جلى وحافظوا عليهم طوال المدة التي وجدوا فيها بالجبل الى ان خرجوا منه برضاهم » كما ان الدكتور احمد قدري اشار في مذكراته عن الثورة العربية الكبرى المطبوعة عام ١٩٥٦ الى انتساب بعض رجال الجبل الى العربية الفتاة واشار الى مروره من قرى هذا الجبل مع جماعة من المجاهدين وشعورهم بالاطمئنان عند وصولهم الى القرية بلدة سلطان باشا الاطرش » .

اما الاستاذ محمد كرد علي فيقول « واخرى هي تعد من مآثر الدروز وهي انهم آووا في جبلهم نحو عشرين الف لاجيء من العرب على اختلاف مذاهبهم فراراً من الجندية اوغيرها واطعموهم مدة الحرب بلا عوض فكانت مضافات الرؤساء منهم اشبه بفنادق ومطاعم مجانية ، خدامها اصحاب تلك البيوت من اعيان الجبل فمثلوا بعملهم القرى العربي والمروءة والشهامة[2] » .

هذا وقد جرت مراسلات واتصالات عديدة بين فيصل بن الحسين واعيان الجبل حول تهيئة الثورة العربية والاستعداد لها . وكان للسيد نسيب البكري من دمشق دور فعال في هذه الاتصالات بحكم صلته الوثقى مع ابناء الجبل . ففي عام ١٩١٧ م ارسل فيصل كتابا الى سلطان الاطرش هذا نصه : « الجيش الحجازي طهر مكة المكرمة من الاتراك ، وجيش الحلفاء

---

(١) خطط الشام جـ ٣ – كرد علي ص ١٤٧ .
(٢) خطط الشام جـ ٣ – كرد علي ص ١٤٦ .

المنضم اليه الجيش السوري قد افتتح بئر السبع عن طريق غزة في ٣١ اكتوبر ١٩١٧ ويافا في ١٦ نوفمبر والقدس في ٩ ديسمبر ، وعليه كن على استعداد مع رجال حزبك وقريباً سندخل جبلكم المنيع بواسطتكم، الله ينصر العرب» وكان الامير فيصل قد ارسل كتابين الى السيد خليل المقوش احد اعيان القضاء الشمالي وقد جاء في الكتاب الأول « بعد السلام عليكم ورحمة الله . ارسلنا لكم هذا الكتاب ونحن على ثقة من المولى عز شأنه ان بلاد معان والطفيلة والكرك ستقع بايدينا بهذين اليومين وعقبه متجهين الى دياركم لنكون نحن واياكم يداً واحدة على اعداء العرب والانسانية ، وقد سمعنا عن شجاعتكم وشيمتكم ماسرنا ، والأمل ان تكونوا جميعاً على اتم الاستعداد للقيام العام كما هو مأمول منكم . وقريباً انشاء الله تأتيكم نجدة مدافع ورشاشات وخلافها والله الموفق (٢٥ ربيع الاول ١٣٣٦ - قائد الجيوش الشمالية - ختم فيصل بن الحسين) - صورة الرسالتين اللتين بعث بهما فيصل الى المجاهد خليل (شكل ١ و ٢) وكان السيد نسيب البكرية قد اتفق مع سلطان باشا الاطرش على دعم الثورة العربية والدعوة لها فحضر الى القريا وام الرمان بعد ان كان اعيان القضاء الجنوبي قد اجتمعوا سرا في تل بركات ،بين عنز والقارية ـ وقرروا تأييد الثورة ، ولهذا منعوا قائمقام السويداء وقواته العسكرية من ان تعتقل السيد البكري عندما كان في الرمان ، واضطر القائمقام الى العودة تفاديا للاصطدام ، ثم اتخذ السيد البكري مركز الاتصال بينه وبين ابناء الجبل في كلتة بلهان ، جنوب قرية الغارية [١] . وفي هذه الفترة كان الاتراك ينشطون مع بعض انصارهم في الجبل واستطاعوا ان يستميلوا اليهم الشيخ مصطفى الاطرش ، فارسل هذا كتابا الى فيصل ، عندما بعث قواته الى الازرق، يطلب اليه مغادرة هذا المكان وعدم المرور من الجبل لئلا يضطر مع انصاره لمقاومته. ومهما يكن من امر فقد كان من نتيجة النشاط الذي قام به قادة الحركة العربية

---

(١) رواية السيد فرحان العبد الله احد الذين اشتركوا في تلك الاجتماعات .

ان « قام الدروز بتأليف عصابات لالقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي[1] » كما انهم اجتمعوا في بلدة القريا ، وارسلوا ثلاثمائة فارس ليلتحقوا بقوات الثورة في العقبة على ان ينضم الاخرون الى الجيش العربي عند وصوله الى سورية . وكان فرسان الجبل ينشدون يومذاك قصيدة من نظم الشاعر الشعبي معذى المقوش وان دلت ابياتها على شيء فانما تدل على ثقة بالنفس واطمئنان للنصر وتدل بوضوح على روح عربية صادقة بعيدة عن الاقليمية الضيقة .

قال الشاعر :

يا مير ما ودها سكوت	لازم تزور بلادنا
لا بد عاجلق تفوت	وتشوف عج طرادنا
عيال الجبل حي ثبوت	يغنى العدى ملكادنا
من مصر لساحل بيروت	لنجد لبغدادنا
لاجلها نحيا ونموت	ونحمي حما اجدادنا
رجال العرب اهل البخوت	بالسيف نبني امجادنا[2]

وعندما اقترب الجيش العربي من سورية عقد اجتماع في « كاف » بين الجبل والازرق حضره بعض قادة الثورة العربية الكبرى ومن بينهم حسين الاطرش كمندوب عن الجبل ، وبعد فترة وجيزة « خف السيد نسيب البكري من الازرق بأمر الامير فيصل الى جبل الدروز ولقي صديقه سلطان الاطرش وجيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس وذهبوا الى بصرى وهناك التحق بهم بعض الحورانيين ولا سيما آل المقداد وساروا الى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الاتراك قليلا في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانتظام ، ودخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ما عدا

---

(١) خطط الشام – محمد كرد علي ج ٣ ص ١٤٧ .

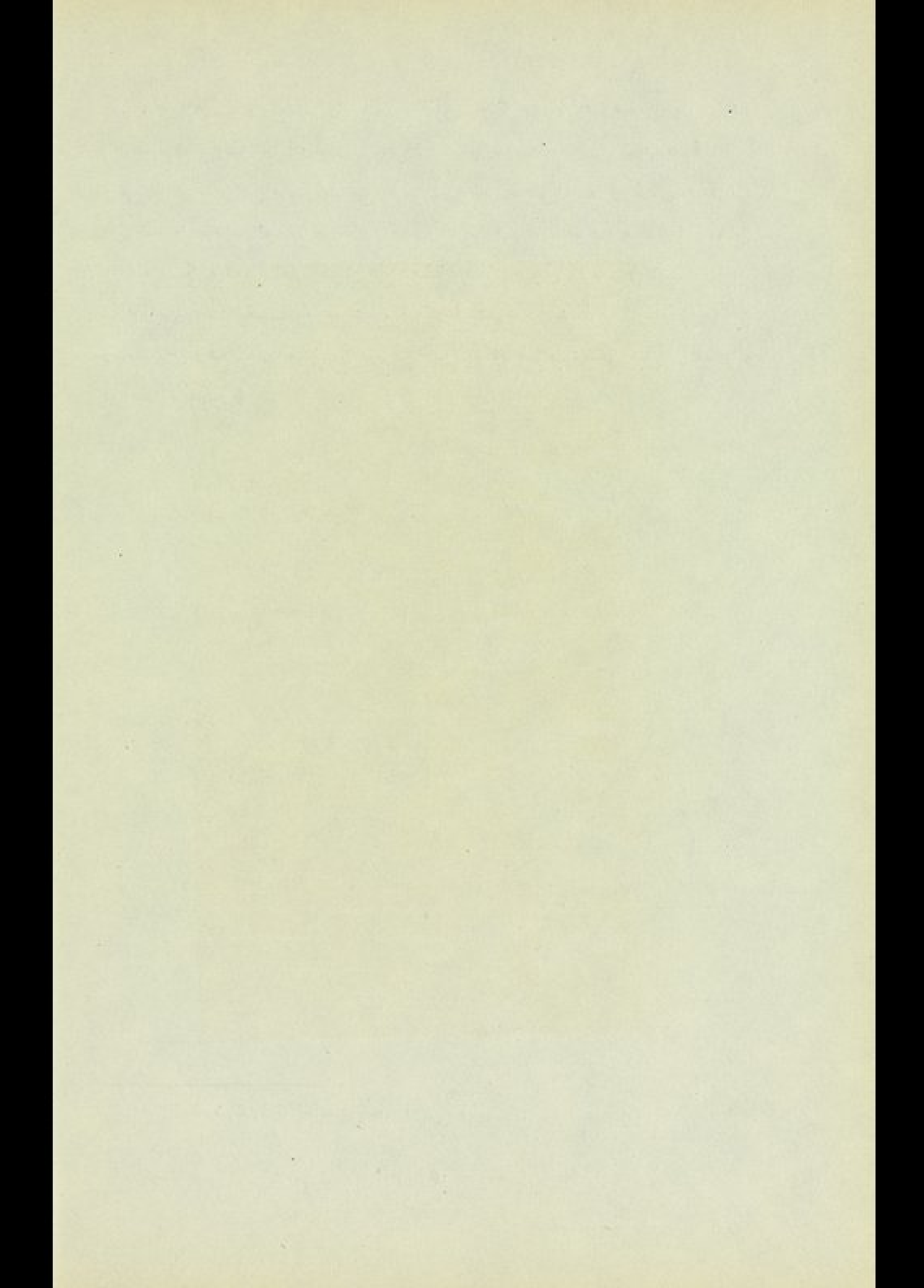
(٢) ما ودها : لا تحتاج – تشوف عج طرادنا : تشاهد غبار خيولنا الراكضة – عيال الجبل : رجاله – ملكادنا : هجومنا – البخوت : الحظوظ .

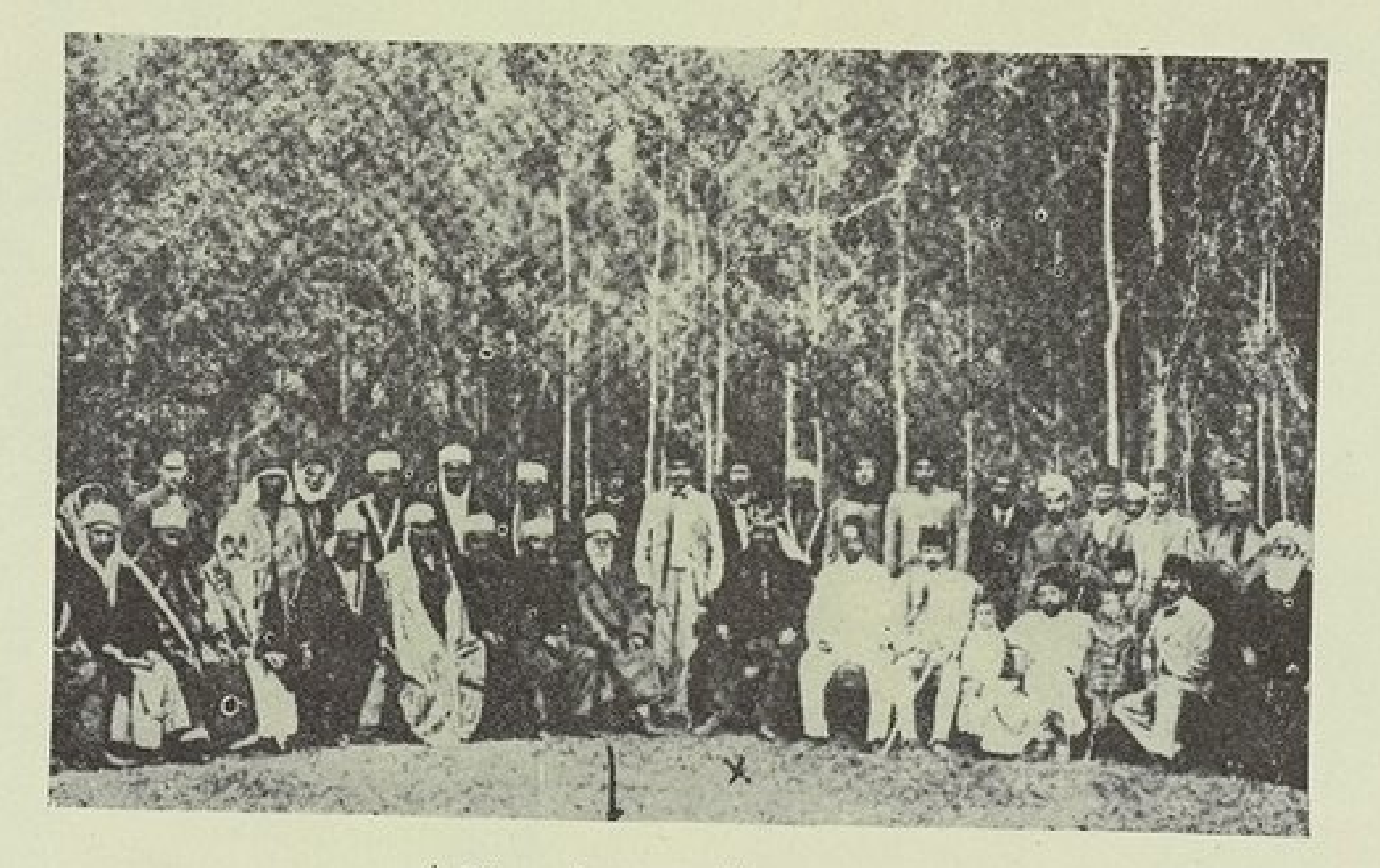
المشاة من اهـــالي البلاد الى دمشق واتفق دخول هذه الحملة مع اوائل الحملة البريطانية الزاحفة على الفيحاء عن طريق جسر بنات يعقوب « القنيطرة »[1]

وعلى اثر انتصار بني معروف على الاتراك في معركة جبل المانع وكسبهم مايقرب من عشرين مدفعاً استثار سلطان باشا الاطرش روح النخوة العربية في نفوس جماعته لـكي يرفعوا العلم العربي على دمشق قبل وصول الانكليز اليهـا ووعد بمكافأة مادية لمن يقـــدم على ذلك ، فتبرع السيد داود طربين وشخص آخر وتمكنا من رفع العلم العربي على سراي الولاية في جنوب دمشق قبل ان تدخلها قوات الانكليز .

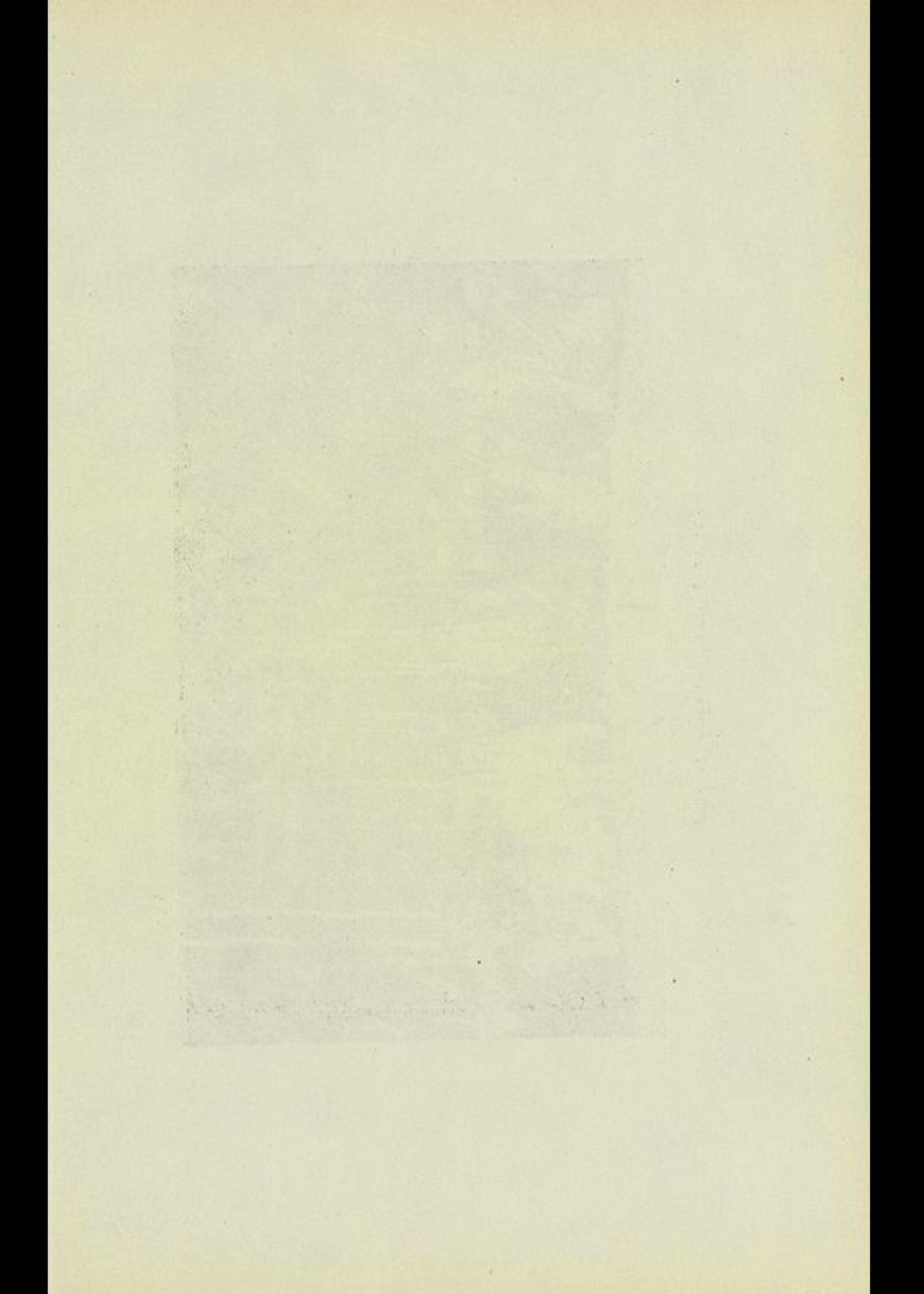
---

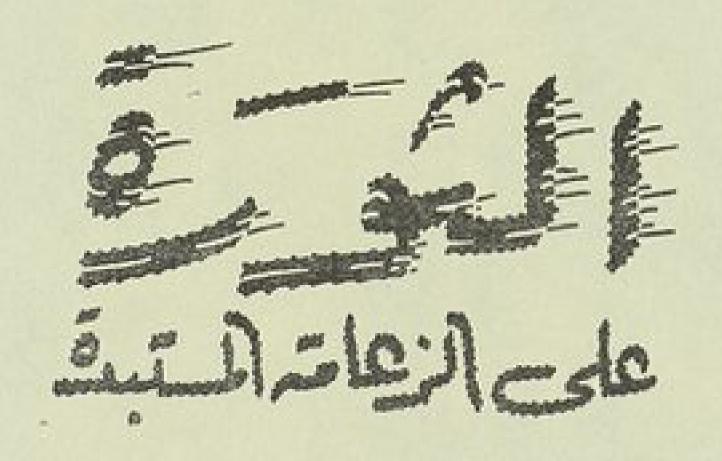
(١) خطط الشام - كرد علي جـ ٣ ص١٥٤ .

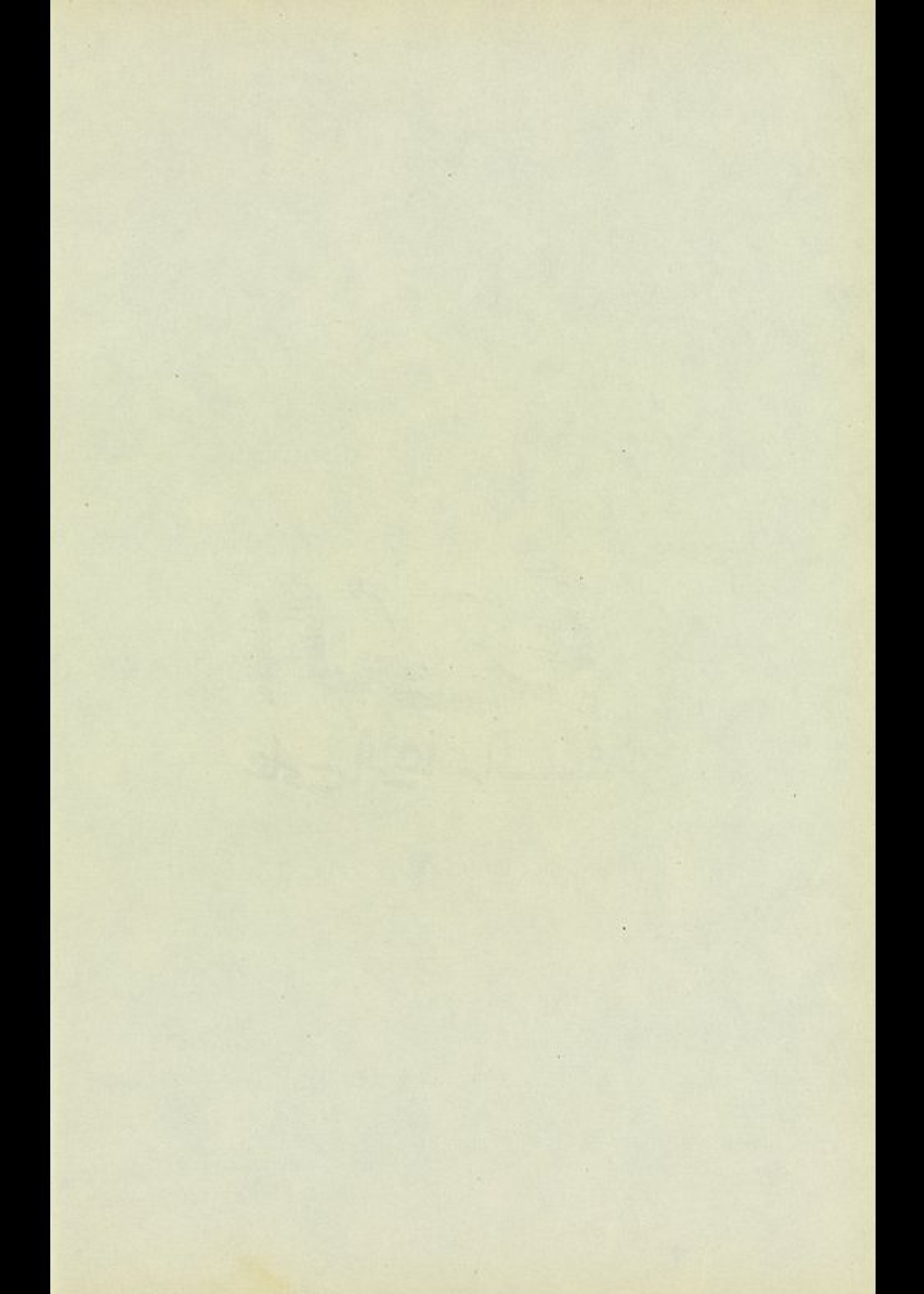




اجتماع بعض وجوه الجبل بدمشق في عهد الاتراك




الثورة
على الزراعة المتبعة



طبيعة النظام القبلي تفرض ظهور زعيم نافذ الكلمة بين افرادها مطاع منهم ، ومن المعروف بالنسبة لمبررات الزعامة في القبيلة العربية ان يكون صاحبها شجاعا حازم الرأي سديده، كريما نبيلا في اخلاقه وسلوكه . وفي القرون الاخيرة من حكم الاتراك العثمانيين حيث انتشرت الفوضى واشتدت العصبيات القبلية نتيجة لضعف الحكومة وعجزها عن ضمان راحة الافراد وأمنهم. كان من الطبيعي ان يتمتع زعيم القبيلة بسلطة واسعة ونفوذ كبير بين افراد قبيلته. وهذا ما كان يتمتع به آل الحمدان عندما استوطنوا جبل العرب في مطلع القرن الثامن عشر . ولكن ثورة شعبية نشبت حوالي عام ١٨٦٨ ضد هذه الزعامة المستبدة وانتهت بانتقال الزعامة الى آل الاطرش. فما هي اسباب هذه الثورة وما هي نتائجها؟

أتى آل الحمدان الى جبل العرب « من جبل الشوف ، من مقاطعة الغرب الأعلى من قرية كان يقال لها كفرة وهي الآن خربة فوق عيناب ،فيها آثار ورسوم كثيرة » [١] . ويروى ان جدهم القديم حمدان الحمدان « قد نزح اولا من الجبل الاعلى من اعمال حلب الى لبنان ثم جاء الى جبل العرب برفقة الامير علم الدين ونال الزعامة الاولية ثم استولى على السويداء واخذها عنوة من عشيرتين قديمتين هما من بني سويدان ، احداهما عشيرة اسلامية والثانية عشيرة مسيحية معروفة بدحدل وكانتا تتوخيان المشيخة مناوبة فيما بينهما ورحلها عنها . فالأولى قطنت خربة غزالة من اعمال حوران والثانية قطنت معربة وعضم وطيبة (في حوران) . ولم يزل نسلهما الى اليوم » [٢] .

---

(١) تاريخ الامير حيدر الشهابي (الروض النضير ج ٣) ص ٩٦٥ .

(٢) حوران الدامية ص ١٧٨ - ١٧٩ ابو راشد .

ويروى عن اسباب نزوح الحمدانيين من لبنان ١١٠٣ ه (١٦٩١)م انهم قتلوا اربعة رجال من القيسية في بلدة كفرة فاضطروا الى الجلاء عنها الى الدلي في حوران ثم رحلوا الى قرية بريكه في الجبل وكان عددهم خمسة وخمسين رجلا، ثم نزل آل ابي فخر في العام التالي حول قرية ريمة وتعاونوا الدفع غزوات البدو عنهم . وفي عام ١١٠٥ ه (١٦٩٦) م استنجد الحمدانيون بجماعتهم في لبنان لصد البدو من ولد علي الذين انذروهم باخلاء المنطقة والعودة الى لبنان خلال فرصة لاتتجاوز خمسة ايام ، وحضر مايزيد على خمسمائة محارب في هذه الفترة واستطاعوا مجابهة البدو والانتصار عليهم في قرية داما بالقضاء الشمالي .

وبعد أن سكن الحورانيون بضع سنوات حوالي ازرع نزحوا الى قرى نجران وعريقة و كفر اللحف ثم الى السويداء وعرى ورساس حيث اشتد نفوذهم في هذه القرى وزادت ثروتهم ، ولكنهم لم يحافظوا على وحدة الزعامة كما يبدو اذ غدا للحمدانيين مركزان للزعامة احدهما في السويداء والثاني في قرية عرى وقد يكون هذا عاملا على ايجاد بعض التنافس بينهما واضعاف وحدة القيادة التي لا بد منها لبقاء السيطرة والنفوذ . ومهما يكن من امر فان السبب الأساسي الذي ولد الشعور بالظلم ثم الثورة عليه هو تمادي الحمدانيين في التحكم والاستبداد ، حتى قيل « ان الزعيم الحمداني كان يشنق متى شاء »[1] وكانت الاراضي تعتبر ملكا له يتصرف بها كيفما شاء فيطرد الفلاحين المغضوب عليهم من الأرض التي يستخدمونها ولا يتورع عن ضرب العامل اثناء الحصاد عندما يتوقف قليلا عن العمل طلباً للراحة ؛ ويجبي منهم الجزية والضرائب التي يدفع بعضها للدولة العثمانية ، كما انه يأخذ « الخاوة » اي الاتاوة التي يدفعها البدو لبني معروف ، وكثيراً ما أساء جباته التصرف مع الفلاحين الذين تركوا خيرات جبل لبنان ونزحوا عن اراضيه الخصبة هرباً من تسلط الاقطاعيين وطمعاً في التمتع بالحرية والكرامة ، ولكنهم سرعان ما وجدوا آل الحمدان يمارسون عليهم زعامة اشد قسوة واكثر تعنتاً . ومما يذكره الشيوخ عن قسوة

---

(١) بنو معروف في جبل حوران – النجار ص ١١٠.

الحمدانيين وسوء تصرفهم ان زعيمهم في السويداء ارسل احد اعوانه من آل ابي راس الى محمد الاطرش واقاربه في قرية حبران يطلب منهم أداء «المعلوم» اي كل ذكر من المواشي والبقر يجب ان يعطي لابن الحمدان – ولكن محمداً رفض هذا الطلب. واقدم احد اقاربه على قتل رسول الحمدان عندمـا هدد الاطارشة واغلظ لهم القول . وما كان من الحمدانيـين الا ان تحينوا الفرصة المواتية واخذوا مواشي الاطارشة عن طريق الغزو المتبع عادة بين القبـائل العربية مما اضرم نار العداوة والحقد بين هاتين الاسرتين . ويروى كذلك ان الزعيم الحمداني اختلف مع قاسم ابي فخر في كفر اللحف واراد ترحيله مـع اقاربه من الجبل فهاجم مع اعوانه هذه القرية واحرقوها ، فالتجأ آل ابي فخر الى قرية ريمة وعمدوا الى خـدعة حربية طريفة وهي انهم علقوا الثياب على سطوح المنازل واوهموا جماعة الحمدانيين بان في ريمة حشوداً كثيرة مستعـدة للقتال . كما قيل ان كل محارب حفر امامه خندقاً وأقسم ألا يغادره حتى يموت ويدفن فيه . وعندئذ توسط بعض العقلاء فتوقف القتال وحقنت الدماء بعدان اشتد العداء بين الجانبين . وهنالك امثلة عديدة من هذا النوع لا مجال للتبسط بها . وفي الوقت الذي كان سلوك الحمدانيين على النحو الذي ذكرناه كان آل الاطرش يهتمون بتنمية ثروتهم والتودد الى العائلات الاخرى بمسايرتها والتزاوج معها ، وكان ابرز الاشخاص فيهم واقواهم اسمـاعيل الاطرش في القريا حيث صد هجمات البدو وبرهن عن شجاعة وحمية وكرم ، وذاعت شهرته بين ابناء الجبل فراحوا يتطلعون اليه ويلتفون حوله وخاصة بعد ان صار يهتم بقضاياهم وينتصر لمن يطلب منه المساعدة . ومثال ذلك انه انتصر لتاجر من لبنان كان البدو قد سلبوا منه بضاعته في قرية زيزوم قرب المزيريب ، فاعاد له اسمـاعيل مسلوباته بينما لم يكترث واكد الحمدان بشكوى التاجر المذكور ، كما ان اسماعيل الاطرش ذهب الى لبنان على رأس فئة من أبناء الجبل لنصرة اقربائهم في حوادث عام ١٨٦٠ م . واصبح الشعب بعد هذه المواقف ينظر اليـه على انه صاحب الحمية والغيرة والذي يستحق الزعامة والتقدير . وكانت هذه السمعة

الطيبة لاسماعيل تثير حفيظة الزعيم الحمداني ، فعمد هذا الى الاتفاق مع محمود كيوان - وكان صاحب عشيرة قوية في القضــاء الجنوبي - لكي يقضي على اسماعيل الاطرش مقابل مساعدته على ان يصبح زعيما في هذا القضاء ، ولكن محاولة الاغتيال ، اثناء اجتماع في قرية السهوة ، باءت بالفشل وادرك اسماعيل ان ابن الحمدان هو الدافع لتلك المحاولة فلم يغضب من محمود كيوان بل صالحه وتودد اليه حتى اعتذر هذا ومال اليه ، ثم حضر اجتماعات كانت تعقد للتداول في مظالم آل الحمدان وسوء معاملتهم للمواطنين . ويبدو ان اسماعيل الاطرش لم يغفل رأي السلطة يومذاك واراد ان يدعم موقفه بالحصول على تأييدلزعامته من الوالي بدمشق . وبما ان السياسة العثمانية تخضع للامر الواقع وتقر الاقوى على زعامته فقد مال متصرف حوران مع اسماعيل الاطرش عندما ظهر تفوقه في النفوذ والمقدرة على واكد الحمدان .

من كل ماتقـدم يتبين لنا ان استبداد آل الحمدان وسوء تصرفهم مع المواطنين من جهة ثم مهارة اسماعيل الاطرش وحسن معاملته وتدبيره من جهة ثانيــة كانت من الأسباب الاساسية لفشل آل الحمدان وزوال زعامتهم من جبل العرب دون ان تراق قطرة دم دفاعاً عن هذه الزعامة . اما السبب المباشر فخلاصته كما يروى ان بائعاً لبنانياً من أصل يهودي جلب معـه الى قرية عرى امواساً للحلاقة وكان شيخها يومذاك يحيى الحمدان ، فقال له هذا هازئاً «اذهب الى اسماعيل الاطرش في القريا فانه بحاجة الى هذه الامواس» ، وذهب التـاجر فعلاً الى القرية وذكر لأهلها ماقال له الزعيم الحمداني ففهموا مايعنيــه من ذلك وهو ان يحلقوا لحاهم (وهذا شيء معيب في تقاليـد بني معروف) . وعندئذ جمع اسماعيل الاطرش انصاره من القرى المجاورة وهاجموا قرية عرى واحتلوها دون مقاومة من آل الحمدان وجماعتهم . ثم انتقل اليهااسماعيل الاطرش واستقر فيها وكان ذلك فيما يرجح الرواة عام ١٨٦٨ م .

وفي هذه الفترة كان الشعب في السويداء يضغط على زعيمها واكد الحمدان لتحقيق المطاليب الآتية :

١ – عدم ترحيل الفلاحين من قراهم .
٢ – جعل الارض التي يستعملها الفلاحون ملكا لهم .
٣ – السماح لأهالي السويداء بتحويل الاراضي المشاع الى أراض زراعية تغرس بالاشجار .
٤ – ان يدفع الضريبة المتأخرة للدولة من اموال « القلاط » اي الاموال التي يأخذها من البدو مقابل السماح لهم برعاية مواشيهم في اراضي السويداء .
٥ – الا يأخذ ضرائب على اراضي الفلاحين بصورة تعسفية .

ولكن الزعيم الحمداني لم يلب هذه المطاليب فاشتدت نقمة اهالي السويداء عليه وعقدوا الاجتماعات السرية للانتفاض ضده ، وقيل ان ابراهيم الاطرش زار السويداء . وفي رواية اخرى ان الذي زارها هو والده اسماعيل ونزل ضيفاً في بيت حسين قطيش واتصل مع الناقمين على واكد الحمدان [١]. فأعربوا عن تأييدهم له وشجعوه على الانتقال الى السويداء وقيل انهم وقعوا معه وثيقة تعهدوا له فيها بتقديم المساعدة على طرد الحمدانيين منها مقابل التعهد بتحقيق المطاليب الآنفة الذكر . وعندما لمس اسماعيل الاطرش هذا التشجيع ذهب الى الوالي العثماني في الشيخ سعد ومعه عدد من وجوه السويداء ليتم الاتفاق النهائي بحضور الوالي وضمانه . وفي رواية اخرى ان اسماعيل اتصل مع الوالي وحصل منه على أمر يوافق فيه على ان يكون مسؤولا بدلاً من واكد الحمدان ولكن هذا أحس بالموضوع فذهب الى الوالي ورشاه بثلاثة آلاف ليرة ذهبية حتى يقضي على اسماعيل الاطرش ، وعمد الوالي الى الخداع فأرسل مع اسماعيل كتابا الى قائمقام بصرى يأمره فيه ان يتخلص من اسماعيل بأية وسيلة ، وكان يرافقه في الطريق احد المقربين منه ، فارتأى عليه ان يفض كتاب الوالي خوفاً من ان يكون فيه مالا يشتهي ، فأجابه اسماعيل « ان الكتاب امانة معي ولن

---

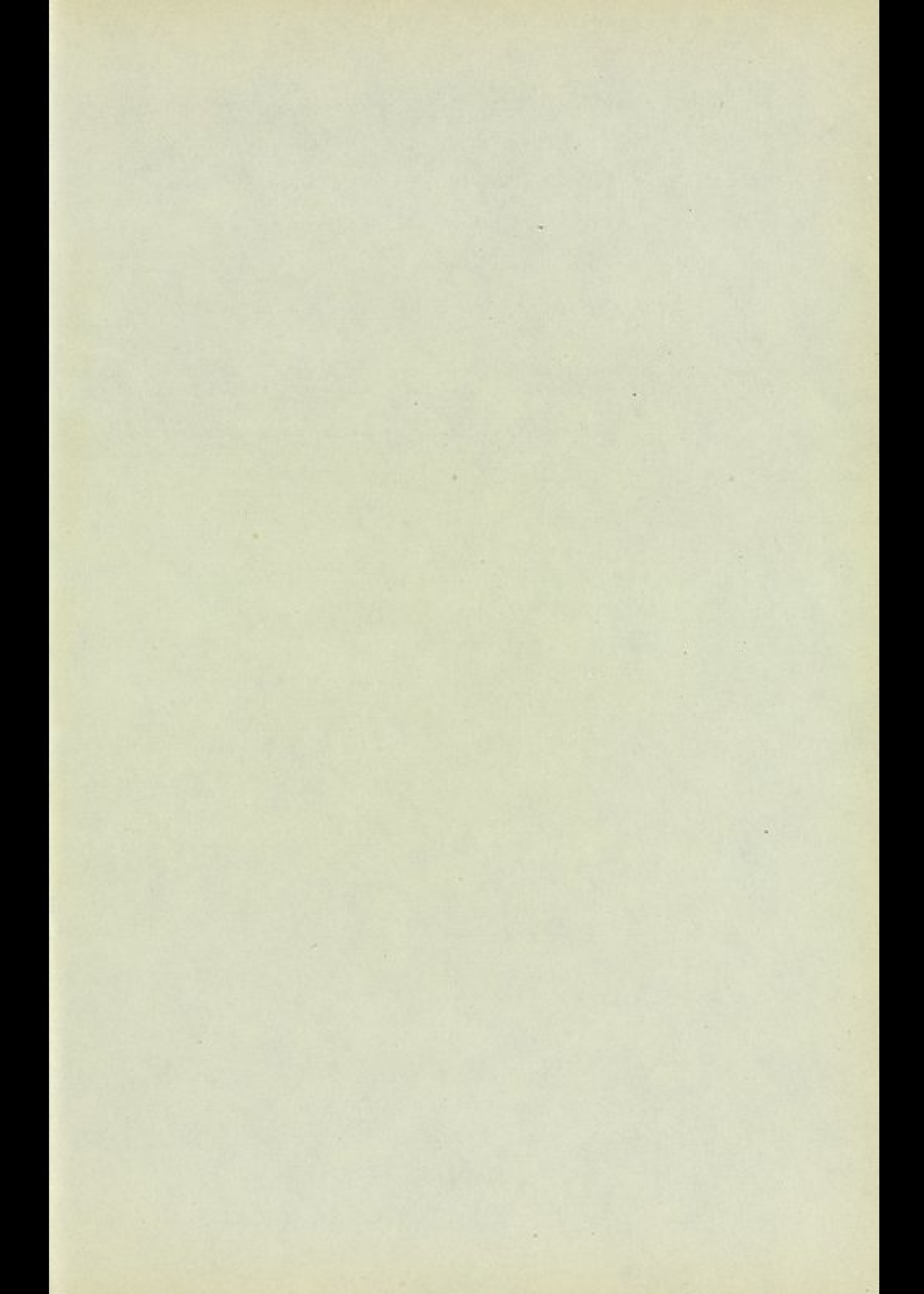
(١) ما أكده الشيخ سالم قطيش والشيخ فرحان العبد الله وهما من اكبر المعمرين في الجبل .

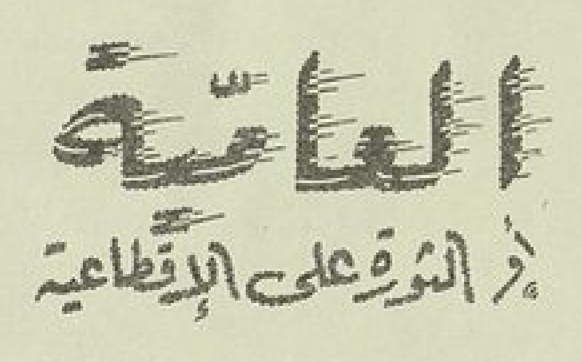
أفضه ولو كان فيه أمر بقطع رأسي ، ويمضي الرواة فيذكرون ان قائمقام بصرى وضع له السم في القهوة حتى اذا ماشربها اسماعيل أحس بألم في جسمه وغادر بصرى فوراً ووصل الى بيته في عرى وعاش بضعة ايام ثم فارق الحياة عام ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١) م

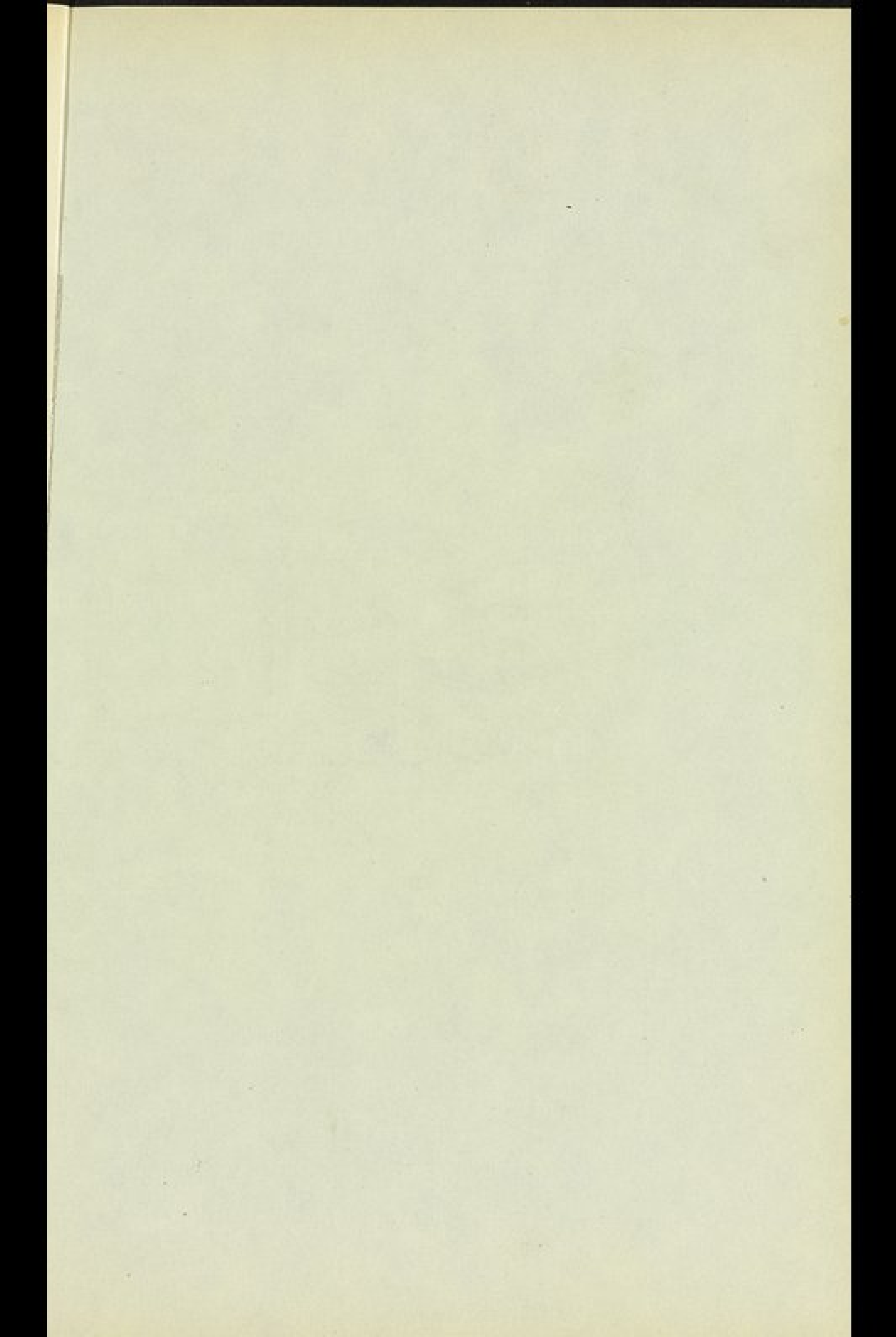
وفي هذه الفترة كان ابنه ابراهيم في القدس يحضر الاحتفال الذي اقامته الدولة العثمانية لاحد رجال النمسا المسؤولين ، حتى اذا ما عاد الى عرى وجد وصية من ابيه اسماعيل يطلب منه فيها الانتقال الى السويداء وكان الظرف مواتياً حيث كثر الناقمون على آل الحمدان وكثر في الوقت نفسه انصار الاطارشة وخاصة في القضاء الجنوبي واحتشدوا مع بيارقهم في الكوم على مسافة ثلاثة كيلو مترات جنوب السويداء ، وعندما رأى الحمدانيون ان لا قدرة لهم على مقاومة هذه القوى المحتشدة انسحبوا من السويداء الى قرية ولغا ثم الى بصرى الحرير دون مقاومة ، ودون ان يتمكنوا من اخذ اموالهم واثاثهم . ولكن المنتصرين اخذتهم الرأفة وتملكتهم النخوة العربية فبعثوا اليهم اموالهم واثاث دورهم . ويبدو ان الحمدانيين تضايقوا من زوال زعامتهم وابتعادهم عن الجبل وخاصة بعد ان صادفتهم حوادث مزعجة لهم في مقرهم الجديد ، ولهذا ارسلوا كتاباً الى وهبه عامر في شهبا يتذمرون فيه من الابتعاد عن جماعتهم ويشكون اليه من وقوع بعض الحوادث المزعجة ، ويستحثونه للنظر في امرهم وقد اعتبر الشيخ وهبه عامر هذا الكتاب نخوة له واستنجاداً به ، فدعا وجوه العائلات بالجبل لاجتماع عقد في شهبا وتقرر العمل على اعادتهم ، اما ابراهيم الاطرش فقد وافق على ذلك شريطة الا يجتمعوا في مكان واحد ، وان يوزعوا في اكثر من قرية ، فتم له ذلك حيث توزع الحمدانيون في قرى سليم وشهبا والعفينة وكناكر ولايزال احفادهم في هذه القرى حتى الوقت الحاضر .

وعندما أتت حملة عثمانية بقيادة جميل باشا وهاجمت قرى الجبل أبلى الحمدانيون في مقاومتها بلاء حسناً بينما تراخى ابراهيم الاطرش في صدها الأمر

الذي أثار اهالي السويداء عليه حتى ان احدهم لامه صراحة وقال له مهدداً : ان صاحب السويداء سيعود اليها . وقيل ان ابن الحمدان في « سليم » اعتزم العودة اليها فعلا لولا ان فاجأته المنية ، ثم أراد اخوه بعد وفاته ان ينتقل اليها ، ولكن المنية ايضاً عاجلته قبل تحقيق رغبته ، وهكذا لم يتمكن الحمدانيون من استعادة زعامتهم المفقودة حتى اذا ماثبت ابراهيم اقدامه ورسخ زعامته ماطل بتحقيق مطاليب اهالي السويداء المذكورة آنفاً . فلم يعترف بملكية الفلاحين للأرض التي يستغلونها واستمر بترحيل من يغضب عليه منهم ، وبقي في عهده كثيرمن التصرفات السيئة التي كان الشعب يعاني منها في عهد سلفه مما مهد السبل لثورة شعبية جديدة بعد سنوات معدودة سميت بثورة العامية .




العامّة
أو الثورة على الإقطاعية



في الربع الاخير من القرن التاسع عشر نشبت في الجبل ثورة شعبية ذات بذور اشتراكية اصيلة عرفت بين ابناء الجبل باسم « العامية » ومن المرجح انها حدثت بين عامي ١٨٨٧ ١٨٩٠ م . فما هي وقائعها وما هي اهدافها ونتائجها ؟.

بعد ان استلم آل الاطرش الزعامة من آل الحمدان تمتعوا بامتيازات اجتماعية كثيرة منها : ان لأي فرد منهم ان يتقدم على افراد الشعب في شرب القهوة او في الدخول الى اي مكان او التوقيع على عريضة او كتاب ... ثم ان الاطارشة قبل ثورة « العامية » لم يعترفوا للفلاحين بملكية الارض التي يفلحونها ، واستمر بعضهم في اهانة من يغضبون عليه ، وفي تسخيره لخدمتهم وزراعة ارضهم وحصادها .. وكان يطلق على هذه السخرة اسم « الفزعة » اي مساعدة الشيخ وخدمته . ليس هذا فحسب بل كان بعضهم يعمد الى ترحيل الفلاح ، اي فلاح ، من قريته عندما يتمرد عليهم ولا يعجبهم سلوكه ، كترحيل حسين الاطرش آل بلان من قرية ملح الى قرية الهيت في القضاء الشمالي لضربهم رجلا من انصاره ، وكترحيل ابراهيم الاطرش لحسين قطيش من السويداء الى مصاد .. ويبدو ان بعضهم كان مندفعاً مع شهوة التحكم والاستعلاء ، متجاهلا الطاقة الثورية العظيمة الكامنة في نفوس الفلاحين فاندفع في مواقف جائرة مثيرة ، تحرك كوامن الثورة وتفجرها ، من ذلك مثلا ان امرأة من اهالي ملح قالت لرفيقتها في الطريق ان الشيخ حسين الاطرش اخطأ عندما طلق امرأته الجميلة وتزوج من امرأة اخرى اقل جمالا ، فما كان من الشيخ الا ان استدعى تلك المرأة اليه وانهال عليها ضرباً بالسياط .. ومنها ان فلاحاً نفدت مؤونته فاضطر لأن يحصد شيئاً من القمح وقت « المدة » اي فترة الامتناع

المشترك عن الحصاد ، فما كان من الشيخ المذكور الا أن احرق ما حصد هذا الفلاح عقاباً له على مخالفة الاوامر ..

ومما لا شك فيه ان مثل هذه التصرفات السيئة المثيرة وتلك الامتيازات الاجتماعية المذكورة قد ولدت بذور النقمة والشعور بالظلم بين الفلاحين ودفعت الاقوياء المتحمسين منهم الى عقد الاجتماعات السرية وابرام الاتفاقات الخفية بينهم لضمان مصالحهم والخلاص من الاوضاع الجائرة . ولنذكر على سبيل المثال الاجتماع الذي عقد سراً على ضوء الشمعة في « مجدل الشور » حيث حضره كل من صالح رزق وصالح غزالة من ملح وحمد العيسمي وقاسم الدبيسي من امتان واسماعيل العطواني وصالح الحلبي من عرمان .. واتفقوا على ان يكونوا يداً واحدة عندما يقع الاصطدام بين الشيوخ والفلاحين هذا وقد عقد رجال « العامية » اجتماعات كثيرة في السويداء وعقيل والرحا والسهوة وغيرها من قرى الجبل ، وكان من ابرز قادتها ، بالاضافة الى من ذكر منهم حمد النجم جربوع ، واسعد عربي (السويداء) ، وسليمان الخطيب (عقيل) ، ووهبه عامر (شهبا) ، وظاهر كيوان (السهوة) ، وحسين الاباظة (غرة) علي الديك (معقله) ، وابراهيم القضماني (شقا) ، وحامد العبد الله (حوط)، وسعيد نصر (نجران) ، ومحمد زين الرطل (شهبا) ، ومنصور الحسن (لاهثه)، وحمد المغوش (خلخلة) ، ومنصور الشوفي واحمد بلوط(صلخد) وعقاب البربور (ام الرمان) ،وقاسم قرقوط (ذيبين) ، جابر السلام(الهويا). وابراهيم الجرمقاني واسماعيل الشريطي (عرمان) ، وعمار فرج (الغارية) . وغيرهم كثيرون ممن لعبوا دوراً هاماً في الحركة العامية ولم نتمكن من معرفة اسمائهم والدور الذي قاموا به في هذه الحركة .

يقول بعضهم ان شبلي اخذته الغيرة من ابن عمه شيخ قرية عرمان لانه احتكر « القلاط » اي الاموال التي كان يأخذها من البدو الواردين على نبع حبكه في القضاء الجنوبي ، حتى اذا ماقام بزيارة الى عرمان وشكا اليه الفلاحون مظالم شيخها اصغى الى شكواهم وابدى لهم عواطف التشجيع ومما يؤيد هذا

الرأي ان بعض رؤساء العامية من مختلف القرى ذهبوا الى عرى واجتمعوا سرا مع شبلي واتفقوا معه على دعم زعامته واطلاق يده اذا وقف الى جانب الفلاحين .

وفي رواية اخرى ان شبلي هو الذي بادر بدعوة وجهاء قرى القضاء الجنوبي الى عرى ، وبحث معهم قضية اسكان اخيه يحيى في عرمان مقابل تأييده لهم ضد الشيوخ ، ثم دعاهم مع سواهم من مختلف انحاء الجبل لاجتماع عقد سراً في عرى وأثار فيه سوء تصرف الشيوخ وضغطهم على الفلاحين ، وتعهد بدعم الحركة « العامية » مقابل اعتراف رجالها بزعامته وان يبقى له ربع اراضي قرية عرى . ويذكر السيد محمد ابو هدير [1] . ان هذا الاجتماع اسفر عن الاتفاق على اشعال الثورة في يوم معين ، ضد كل شيخ لايقر ملكية الفلاحين للأرض ولا يكتفي بنصف ربع اراضي القرية .

ويقال كذلك ان شبلي كان ينافس اخاه ابراهيم على النفوذ في السويداء ويعارضه في انجرافه مع الدولة العثمانية ، ويعيره لذلك او من أجل ذلك بلقب « ابو الطربوش » . ولعل في هذه المعارضة استرضاء لعواطف الاكثرية من ابناء الجبل التي تكره الاتراك وتسيء الظن بهم . ومهما يكن من أمر فقد كان لشبلي الاطرش اتصالات كثيرة مع رؤساء الحركة العامية تهدف تشجيعهم والافادة من حركتهم . ولعل من الطريف ان نذكر انه حرض الفلاحين في قريته عرى على ان يهاجموه علناً ، وقيل ان هؤلاء تكتلوا فشكلوا قوة اطلق عليها من قبيل المزاح اسم « حزب الزمنطوط » اي رعاع القوم ، وراحوا يندّدون بالاقطاعية وبتحكم الشيوخ وسوء تصرفهم .

يكاد الرواة يجمعون على تقدير موقف شبلي الاطرش من الحركة العامية بالشكل الذي ذكرناه . ولكن وصف شبلي لهذه الحركة في قصائده المدونة

---

(١) السيد محمد ابو هدير شيخ معمر من قرية عرمان يذكر ان اليوم المعين لبدء العامية كان يوم الخميس .

يناقض ذلك وينفيه ، حيث يصفها بالتخريب والفوضى ويلعن مؤسسيها بقوله :

الى ان ظهر نور الشريعة الجديدة يلعن مؤسس غرسها والدعايم
العاميـة اللي عموا تابعينهـــا صارت خراب بلادنا والردايم[1]

بين هذين الرأيين المتناقضين كيف نستطيع ان نضع ايدينا على الحقيقة؟ من المرجح ان شبلي الاطرش أبدى أول الامر ارتياحه من مقاومة الفلاحين لبعض أقاربه المنافسين له ثم شجعهم على هذه المقاومة دون ان يتوقع تطورها الى ثورة شاملة ضد الزعماء كلهم ، وربما أدرك فيما بعد ان نجاح الثورة أمر واقع فأسرع لمسايرتها أملا في ان تكون نتائجها عليه أقل ضرراً وأخف أذى ، وهذا ماتحقق بالفعل حيث سمح له الشعب بامتلاك ربع اراضي قرية عرى بينما لم يسمح للشيوخ الاخرين الا « بنصف الربع » في القرى التي يتزعمونها . وقد ذكر لي شيخ موثوق حضر معارك العامية رواية تؤكد تأييد شبلي للعامية اول الامر وتنكره لها في النهاية . روى الشيخ ان شبلي قال : « مثلنا معكم يارجال العامية مثل ذلك المدين الذي شكا أمره لأحد العقلاء فقال له هذا عندما يطالبك الدائن بدينه فقل له « شلالب » أي بمعنى اللامبالاة حتى اذا ماطالبه الرجل العاقل نفسه بدين له أجابه ايضاً بالعبارة نفسها [2] . اما فيما يتعلق باهـــداف ثورة العامية فيمكن ان نجملها فيما يلي :

١ - وضع حد لتحكم الشيوخ وسوء تصرفهم مع الفلاحين.
٢ - الاعتراف بملكية الفلاح للارض التي يستخدمها .
٣ - عدم ترحيل الفلاحين من قراهم ومن الارض التي يزرعونها .
٤ - تطويب الارض لضمان امتلاكها .
٥ - ان يكتفي الشيخ بملكية $\frac{١}{٨}$ من اراضي قريته وهـــذا مايسمى بـ « نصف الربع » .

---

(١) ديوان شبلي الاطرش ص ٨٦ : نور الشريعة الجديدة : الحركة العامية.
(٢) الشيخ محمود جربوع من الذين شاهدوا معركة العامية.

٦ ـ ان يكون للفلاحين الحق في تعيين مخاتير يمثلونهم ويهتمون بمصالحهم .

ولعل بعض الابيات التي قالها شبلي الاطرش في ذلك الحين تلقي ضوءا على جانب اساسي من اهداف هذه الثورة . اذ قال :

وقر القرار انا ندشر بـــلادنا	رحلنـا وخلينا جميـع اللوازم
اول طلب قالوا رباع المشايـخ	والشيخ كله اليوم ماعاد لازم
وثاني طلب قالوا القصر هاي من حقنا	وشيوخنا صاروا بحـال العدايم
ثالث طلب قالوا المطاميع كلهـا	والشيخ هذا كان جبار ظالم (١)

وقال كذلك في قصيدة اخرى :

يحكوا بعض مرات بدنا الاراضي	ومرات بدهم ارضنـا والمال
ليش المشايخ بالجبـل حقروهم	نحنا مشايخ عـــال العال (٢)

هكذا يتبين لنا ان العامية تنطوي على اهداف اشتراكية اصيلة ليس لانها تطالب بالحد الاعلى لملكية الشيخ وتثبيت ملكية الفلاحين فحسب بل لانها تطالب ايضا بمنع الظلم والمحافظة على كرامة الفلاحين وحريتهم ، ويبدو من هذه الابيات ايضا روح التطرف وذلك في اشارتها الى عدم اكتفاء الفلاحين بملكية الاراضي ، ورغبتهم بالاستيلاء على قصور الشيوخ واموالهم ثم تحقيرهم والاستغناء عنهم بالمرة ، وربما يكون تطور الحوادث قد ادى الى مثل هذا التطرف والى تعدد المطاليب وعنفها .

بعد ان ذكرنا دوافع هذه الثورة واهدافها ننتقل الى ذكر وقائعها ونتائجها : قلنا ان الفلاحين شعروا بسوء معاملة الشيوخ لهم وراحوا يتكتلون

---

(١) ديوان شبلي الاطرش ص ٨٦ – ٨٧
ندشر : نترك – رباع المشايخ : ربع اراضي القرى التي يملكونها – هاي : هذا – بحال العدايم : حالتهم كالعدم – المطاميع : الاطماع .

(٢) ديوان شبلي ص ٥٦
يحكوا : يتكلمون ـ بدنا : نريد .

لحفظ حقوقهم وضمان مصالحهم ، ولم يقتصر ذلك على القرى التي يتزعمها الاطارشة بل شمل القرى الاخرى التي يتزعمها افراد من عائلات مختلفة ، وهنا لابد من تسجيل ملاحظة على جانب من الاهمية وهي ان العصبيات العائلية لعبت دورا اساسيا في الحركة العامية ، بمعنى ان الخصومات القائمة بين العائلات في كل قرية ادت الى ان يبقى الى جانب الشيوخ عدد غير قليل من الفلاحين الذين ينتمون الى عائلات معادية لتلك التي انضمت الى الحركة العامية ومهما يكن من امر فقد وقع اول اصطدام في قرية ملح بعد اجتماع مجدل الشور الآنف الذكر بفترة وجيزة ربما لاتتجاوز اياما معدودة ، بل يرى بعضهم ان الاصطدام وقع عقب هذا الاجتماع مباشرة ، ومن المرجح ان تعنت الشيخ حسين الاطرش وعناده في رفض وساطة اهالي قرية ملح لارجاع آل بلان الى قريتهم من جهة ، ومحاولته الاستمرار في الترحيل والتسلط من جهة ثانية كان السبب الاساسي في حمل وجوه القضاء الجنوبي على عقد ذلك الاجتماع ، واتفاقهم على مقاومة الشيوخ والثورة عليهم ، وقيل ان زعماء العامية دعوا انصارهم لاجتماع عقد في ملح بحجة التداول في رد غزوات البدو حتى اذا ما اجتمعوا في دار صالح غزالة واجتمع انصار الشيوخ في دار حسين الاطرش وقعت بعض الحوادث الاستفزازية فأدت الى الاشتباك المسلح وقتل اثنان على الفور من الجانبين واستطاع الفلاحون محاصرة الشيوخ وانصارهم اكثر من يومين . ثم حضر آل الحجلي من صلخد ، وكانوا انسباء الاطارشة ، وتوسطوا بالأمر فانهى الفلاحون حصارهم مقابل جلاء الاطارشة عن ملح . وفي اليوم نفسه وقع اصطدام آخر في قرية عرمان بين الفلاحين من جهة وشيخها مع جماعته من جهة ثانية وذلك بسبب من ان فلاحي ملح ارسلوا « مفزعاً » طالب النجدة الى فلاحي عرمان ، حتى اذا ما تحرك هؤلاء لنجدة اخوانهم تعرض لهم الاطارشة وانصارهم وحاولوا منعهم من مغادرة عرمان فأدى ذلك الى الاشتباك المسلح في هذه القرية ومقتل خمسة عشر رجلا وامرأة . وكان الاطارشة قد طلبوا النجدة من مصطفى الاطرش في قرية امتان ، فاسرع هذا ولبى نداء النجدة مع عدد من اهالي قريته ولكنه

لم يعرف خصومه من مؤيديه ، حتى اذا ماوصل الجميع الى عرمان لم يبق الى جانبه سوى عدد قليل من الذين رافقوه ، بينما انضمت الاكثرية الى الفلاحين فغضب مصطفى لهذا الموقف اشد الغضب وهدد المنشقين عنه بالانتقام منهم ، وعلى اثر هذه المعارك جلا الاطارشة الى صلخد ثم الى قرية عنز ومكثوا فيها بضعة ايام ثم نزحوا الى عرى . وبعد ايام معدودة من الاصطدام الاول ، ويقدرها بعضهم بثلاثة ايام [1] جرت معركة السويداء وكانت اشد المعارك ضراوة وعنفاً ، ومما قيل في اسبابها المباشرة ان رجال العامة كانوا مجتمعين في دار اسعد عزي بينما احتشد الشيوخ وانصارهم في دار الاطارشة ودار علي علي ابوعلي ، وقيل ان رصاصة انطلقت من هؤلاء فاصابت السيد صالح جربوع وكان واقفا على احد السطوح فاردته قتيلا وعندها وقع اشتباك عنيف بين الفريقين استمر من الضحى حتى غروب الشمس وقتل فيه اثنان واربعون قتيلا كان اكثرهم من رجال العامة ، وقد جمع القتلى ودفنهم اثنان من غير الدروز ، احدهم من آل نصار والثاني من آل العواد ، وبما ان الارتباطات العائلية تلعب دوراً كبيراً في هذه المشاجرات فقد توافد الكثيرون من القرى المجاورة وانضم كل منهم الى جماعته . وقد قيل ان مجموع عدد القتلى في تلك الحوادث من السويداء وخارجها تجاوز السبعين قتيلا . هذا وقد جرت معارك اخرى بين الفلاحين والشيوخ في عراجه ضد آل ناصيف ثم في شهبا والهيث والبثينة (ضد آل عامر) وفي لاهثة (ضد آل عز الدين) وبلغ عدد القتلى في قلعة لاهثة ثمانية اكثرهم من الفلاحين .

ولعل الابيات التي نظمها شبلي الاطرش في وصف هذه المعارك العامية توضح جانباً اساسياً من وقائعها اذ قال :

من بعدها صارت عداوة ببعضنا	مثل الوحوش وشرها دوم دايم
بقينا على هذا المعدل جميعنا	ما احد منا خالي البـــال نايم

---

(١) رواية نجيب ابو دهن نقلا عن محمد زين الدين الرطل وسلمان الملحم اللذين اشتركا بالعامية .

ياهول عيني يوم تنظر جموعهم	خيل و كدش والا كثرية بهايم
من غير طوشات البثينة ولاهئة	جرى يوم بعراجي بقا الدم عايم
يوم السويدا كان يوم عرمرم	من الصبح الى حد اختلاط الظلايم
وفزعت بني عموم من كل ديرة	مثل الوحوش وطالبين الرمايم
وقر القرار انا ندشر بلادنا	رحلنا وخلينا جميع اللوازم (١)

وبعد هذه المعارك عقد رجال العامة اجتماعات كثيرة في السويداء والرحا وحصاء وشقا وغرة وسهوة الخضر وغيرها لبحث الموقف الذي تأزم وتعقد كثيراً بعد الدماء التي أريقت ، بينما كان الاطارشة قد نزحوا الى عرى وعقدوا اجتماعاً مع انصارهم في سهوة بلاطة . ولكن بعض قادة العامية كانوا من الحماس والاندفاع بحيث انهم رفضوا المصالحة وأصروا على نزوح الاطارشة من الجبل كله ، وقيل انه عندما اشتد ضغط العامة على هؤلاء قرروا الجلاء الى منطقة الروم على مسافة عشرة كيلو مترات شرق السويداء ، غير ان احد انصارهم، اقترح عليهم الجلاء الى قلعة المزرعة حيث يمكن للحكومة ان تتدخل في حمايتهم عند الضرورة ، فوافقوا على هذا الرأي وجلوا فعلا الى المزرعة وضواحيها ومكثوا فيها مايقرب من شهرين . وفي هذه الفترة ذهب وفد منهم الى دمشق يستحث الوالي العثماني على نجدتهم . ومن بدري فلعل بعض المسؤولين العثمانيين قد لعبوا دوراً في الحركة العامية من حيث التشجيع عليها ، ليس حباً بأهدافها ولا ايماناً بمبادئها بل املاً في اثارة الفتن بين ابناء الجبل وايجاد النافذة التي يستطيعون الدخول منها الى هذه المنطقة من أجل السيطرة عليها وتقوية قبضتهم فيها ، ومما يؤيد هذا الظن ماقيل عن وجود شيء من الصلة بين بعض قادة العامية وبين بعض المسؤولين العثمانيين . وأياً ما كان فقد وجد الوالي

---

(١) ديوان شبلي الاطرش ص ٨٦ .

خيل و كدش : يعني انهم كانوا يركبون الخيل والكدش والبهايم - طوشات : معارك عرمرم : شديد في هوله - فزعت : انجدت - ديره : ديار - ندشر : نترك .

العثماني ان الفرصة سانحة للتدخل وبسط النفوذ العثماني على الجبل فأعلن استعداده لمساعدة الاطارشة واعادتهم ضمن الشروط الآتية :

١ - ان يقبل ابراهيم الاطرش ببناء قلعة في السويداء .

٢ - ان يقبل تثبيت ملكية الارض وتطويبها لأن ذلك يزيد من كمية الضرائب التي تجبيها الدول .

٣ - الاعتراف بحق الفلاح في امتلاك الارض التي يستعملها وعدم ترحيله.

وقبل أن ترسل الدولة حملة لارجاع الاطارشة وتنفيذ هذه الشروط بالقوة ، حاول السيد هزيمة هنيدي بتكليف من هؤلاء او من الدولة ، ان يتوسط مع العامة لفض الخلاف قبل ان تضطر الدولة لاستخدام القوة ، ولكن العامة رفضوا هذه الوساطة لاعتقادهم بانها خدعة من الوالي ، ولأن ابراهيم الاطرش سبق له ان نكث بوعده لأهالي السويداء عندما ساعده ضد آل الحمدان ، ولأنه استعان بالدولة العثمانية ووافق معها على بناء قلعة عسكرية في السويداء لمصلحتها المتعارضة مع مصلحة ابناء الجبل . وعندئذ لم يجد الوالي بدأ من مهاجمة العامة ، فارسل الى الجبل حملة كبيرة بقيادة ممدوح باشا مؤلفة من « ست كتائب مشاة وآلاي فرسان مع مدافع »(١) وتمركزت جنوب التعلة ثم تقدمت الى جهات والغا حيث جرت معركة حامية وقيل ان العامة انتصروا فيها اول الامر ، وان موقف الاطارشة وانصارهم كان موقف المتفرج ثم اشتركوا فيما بعد ، واشتد القتال شمال غرب السويداء في موقع عرف باسم الشقراوية ، ويروى ان ممدوح باشا تظاهر بالانكسار حتى يخرج رجال العامة من متاريسهم حتى اذا ما انطلت الحيلة على هؤلاء وخرجوا من امكنتهم اندفع الجيش عليهم بقوة واصلاهم ناراً حامية وقتل منهم ما يزيد على مئة قتيل ، من بينهم عدد غير قليل من قادة العامة . وبالرغم من البطولة التي ابدوها في هذه المعركة كمحاولة احدهم (من آل زين الدين) ان يسد المدفع بعباءته ، فقد اضطروا

---

(١) خطط الشام - محمد كرد علي ج ٣ ص ١١٠ .

الى التراجع وتابع الجيش زحفه الى السويداء واحتلها واستمر في سيره نحو الشرق لملاحقة الثائرين ثم سيطر في النتيجة على الموقف . هذا وقد وصف الشاعر شبلي الاطرش معركة الشفراوية بقوله :

ظهر عقبها عسكر عا أرض السويدا … ممدوح باشا قايد الجيش حاكم
وقال المشايخ ياربع رجعوهم … حقن الدما على ذمة الكل لازم
ردوا جواب الكل بعد المشاورة … ماعاد إلنا شخص منهم يلايم
يوم الخميس الصبح جر العراض … الى شرق ولغا جودل الجيش زاحم
يوم ان وطي الى وعرة الشفراوية … قالوا الدروز اليوم خبط العمايم
وتواصلوا الجمعين في حومة الوغى … صارت ضبيبي واختلطها كتايم
بزر القرنجي كالبرد من مزونها … ودوي المدافع كالرعود الروازم
من غير طولة شرح راحت كسيرة … كم خفرة تبكي دموعاً سواجم [1]

لقد كان من نتائج هذه المعركة ان عاد آل الاطرش الى قراهم وزعامتهم وحصل الشعب في الوقت نفسه على مطاليبه الآنفة الذكر ، كما تمكنت الدولة من بناء قلعة في السويداء وتعيين حاكم على جبل العرب ، كما ان الانقسام بين عائلات الجبل استفحل واستمر زمنا غير قصير .

---

(١) ديوان شبلي الاطرش ص ٨٧ .

ياربع : يارفاق – جر العراض : زحف الجيش – جودل : انتشر والتف – ضبيبي : ضباب – كتايم : سواد – بزر القرنجي : الرصاص – مزونها : المطر الغزير – الروازم : الشديدة – خفرة : امرأة مصونة جميلة – سواجم : غزيرة .

مراجع الموضوعات حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

١ – تاريخ العرب قبل الاسلام – الدكتور جواد علي ح٢ (القسم السياسي) ط. بغداد ١٩٥٢

٢ – تاريخ العرب المطول – الدكتور فيليب حتي ح١ مط دار الكشاف بيروت ١٩٤٩

٣ – تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – الدكتور فيليب حتي ح٢ – ترجمة الدكتور كمال يازجي – دار الثقافة ١٩٥٩

٤ – العرب قبل الاسلام – جورجي زيدان – ح١ ط ثالثة مط. الهلال ١٩٣٩

٥ – ذخائر لبنان – عزتلو ابراهيم بك الاسود – المطبعة العثمانية – بعبدا لبنان ١٨٩٦

٦ – خطط الشام – محمد كرد علي ح ٣ مط الترقي بدمشق ١٩٢٥

٧ – كتاب الامير بشير الشهابي – الخوري بطرس ف. صغير – دار الطباعة والنشر اللبنانية ١٩٥٠

٨ – الغرر الحسان ح١ (من تاريخ الامير حيدر الشهابي) مط. السلام بمصر ١٩٠٠

٩ – الحركات في لبنان – ابو شقرا – مط. الاتحاد – بيروت ١٩٥٢

١٠ – الدروز – سليم ابو اسماعيل – طبع لبنان – اصدار مؤسسة التاريخ الدرزي

١١ — بنو معروف في حوران ـ عبد الله النجار ـ دمشق ط . ١٩٢٤
١٢ — ابراهيم باشا في سورية ـ سليمان ابو عز الدين ـ مط . العلمية بيروت ١٩٢٩ .
١٣ — جبل حوران في القرن التاسع عشر ـ جون لويس بركهاردت وقعر بن سلامة عبيد ـ مط حرب دمشق
١٤ — ديوان سبلي الاطرش ـ مط . دار المنار بدمشق ١٩٥٩
١٥ — الدروز ـ الكابتن بورون ـ ترجمة عادل تقي الدين ـ مط . القديس بولس لبنان ط ١٩٣٣
١٦ — حوران ـ سليمان عبد الله المقداد ـ مط الترقي بدمشق ١٩٥٧
١٧ — جبل الدروز (حوران الدامية) ـ حنا ابو راشد ـ مكتبة زيدان العمومية بمصر ١٩٢٦
١٨ — سورية ولبنان في الحرب العالمية ـ عزيز بك ـ ترجمة فؤاد الميداني
١٩ — الوحدة العربية ـ روبيرت مونتاين ـ منشورات دار المكشوف ١٩٤٧
٢٠ — الدروز : ظاهرهم وباطنهم ـ محمد علي الزعبي ـ منشورات مكتبة العرفان ١٩٥٦
٢١ — بنو معروف في التاريخ ـ سعيد الصغير ـ مط . الاتقان بيروت ١٣٧٤ ه
٢٢ — دائرة معارف البستاني ج ٧ .
٢٣ — هجرة الدروز الى الجبل ـ مهنا الجهيم (رسالة جامعية) ١٩٥٤ م .
٢٤ — الدروز وابراهيم باشا المصري ـ قاسم السعدي (رسالة جامعية) ١٩٥٦ م
٢٥ جبل الدروز في العهد العثماني ـ تركي الزغبي (رسالة جامعية) ١٩٥٩ م

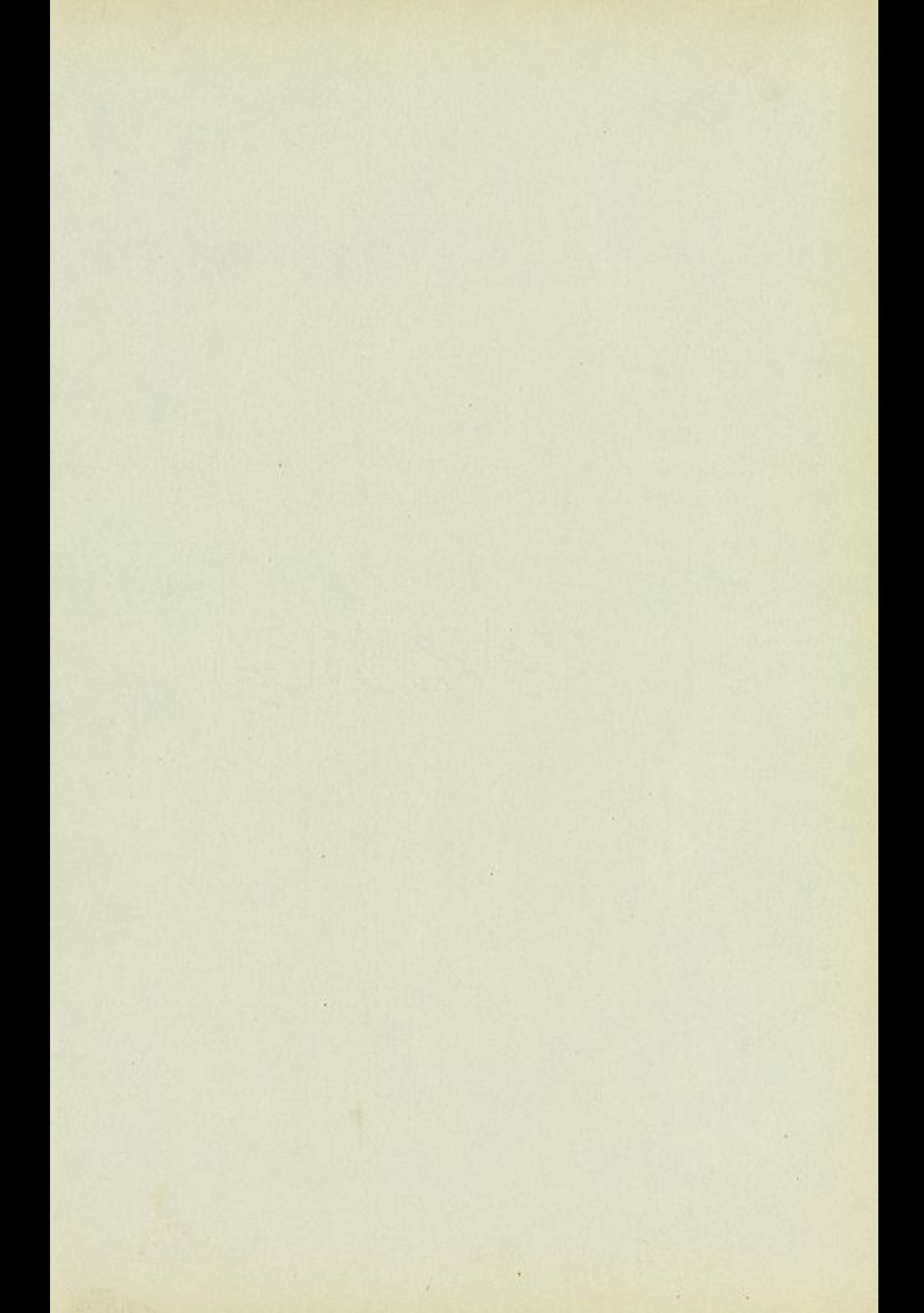
★★★

اما الاشخاص المعمرون وذوو الاطلاع على تاريخ بني معروف الذين افدنا منهم في تدوين تاريخ الجبل عهد العثمانيين ، وخاصة ما يتعلق بزوال سلطة آل الحمدان والثورة العامية ، فهم السادة :

سلطان باشا الاطرش (القريا) ـ توفيق الاطرش ـ علي القنطار ـ محمد رضوان ـ شاهين ابو عسلي ـ حمدان رضوان ـ حمود جربوع ـ سليمان جربوع ـ سالم قطيش ـ حسين حمزة ـ اسعد مزهر ـ اسعد المعاز ـ سعيد ابو الفضل ـ داود المعاز ـ صلاح مزهر ـ اسعد عزي (السويداء) ـ صقر عامر ـ محمود الطويل (شهبا) ـ خليل السعدي ـ عباس حميدان (صلخد) يوسف العيسمي ـ حمزة العيسمى ـ علي المقت (امتان) ـ حسين الاطرش (عنز) ـ حسين ابو فخر (ريمة) ـ فرحان العبد الله (حوط) ـ متعب الاطرش (رساس) ـ سعيد العطواني ـ محمد ابو هدير (عرمان) ـ عارف ومحمد بلان ـ محمد الشوفي ـ محمد حسين العظيمي ـ نجيب ابو دهن ـ نجم العباس علي الملجم (ملح) ـ يحيى رزق (خازمة) ـ اسماعيل عز الدين (لاهثة) برجس المغوش (خلخلة) ـ محمود عقل (الرحا) .

(شبلي العيسمي)

الحياة الاجتماعيّة



في هذا الفصل نتكلم بايجاز عن الاسرة والمرأة ، وعن التقاليد والعادات والاخلاق والاوضاع القبلية ، وكيف تطورت مع الايام .

ويمكننا القول منذ البداية ، ان الحياة الاجتماعية في جبل العرب تشبه الى حد بعيد في جوهرها وكثير من مظاهرها ، ما كان معروفاً عند العرب القدماء .

١ ـــ الاسرة

لعل أهم مانهتم به التربية البيتية هو تنشئة البنت على العفة والاخلاق الحميدة ، وقد تعدد الوسائل المتبعة لتحقيق هذا الهدف ، وقد يكون بعضها خاطئاً او بعيداً عن أصول التربية الحديثة . غير ان المثل الاعلى للبنت يبقى دوماً التحلي بالاخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة . والمرأة في الجبل لاتضع الحجاب على وجهها ، ولكنها تلبس فوطة بيضاء شفافة تغطي شعرها وآذانها وعنقها ويبقى وجهها مكشوفاً ، وتلبس تحت الفوطة طربوشاً صغيراً من النوع الخاص بالنساء ، تزينه الفتيات منهن بقطع من الذهب المستدير في نهايته الامامية السفلى وبقطع ذهبية اخرى كبيرة كالليرات الذهبية معلقة في قرص جميل مزخرف من الفضة في أعلى الطربوش ، وهذا ما يعرف محلياً باسم « القرص المشنشل » (انظر شكل ١)

واللباس التقليدي هو اللباس الطويل الفضفاض الذي يصل الى كاحل القدمين ، والمتقن منه تبدو فيه الاناقة والجمال ، وكثيراً ما أثار اعجاب الزائرين من مناطق مختلفة (شكل ٢)

اما العجـــائز من النساء فيمتنعن عن لبس الذهب واستخدام انواع الزينة ويرتدين في الاغلب الالبسة ذات اللون الاسود وفوطة بيضاء وغير شفافة . ومما تجدر الاشارة اليه ان اللباس بالنسبة للمتعلمات وطالبات المدارس قد تبدل وتطور فأصبح اللباس المدني المعروف في المدن الكبرى كالقاهرة ودمشق (انظر الشكل ٣).

اما الرجل الشاب فيضع على رأسه الكوفية أي « الحطة » والعقـال بينما يضع الشيخ المسن او الشاب المتدين عمامة بيضاء ، ويلبس الرجل كذلك سروالا طويلا ورداء أي « قمبازاً » من حرير او جوخ فوقـه واذا كان ثرياً او وجيهاً يلبس عباءة من جوخ ، على النصف الاعلى من حافتيهـــا عرى ثمينة ذهبية اللون تسمى « القصب » ولكن هذا اللباس التقليدي يتراجع مع الزمن أمام اللباس المدني باعتباره اكثر شيوعاً بين الاوساط المختلفة وأقل تكاليف وأسلس مراساً للعمل .

والمرأة في الجبل تستقبل الضيوف وترحب بهم عند غياب زوجها ، ولكنها لا تصافحهم باليد الا اذا كانوا من اقربائها ، وتنصرف بعد استقبالهم والترحيب بهم لاعداد واجبات الضيافة ، وتستدعي أحـد اقربائها لمسايرة الضيوف والبقاء بينهم .

وعندما تبلغ الفتاة سن الرابعة عشر وتصبح أهلا للزواج يتقدم الفتى ليخطبها من ابيها ، في الماضي البعيد لم يكن للفتاة في الاغلب رأي يخالف رأي أبيها ، بل اكثر من ذلك كان بعض الآباء ـ وهم اقلية ـ يزوجون بناتهم دون ان يتاح لهن التعرف على شركاء حياتهم ، ولكن هذه العادة زالت هذه الايام واصبح زواج الفتاة رهناً بمشيئتها وموافقتها الشخصية ، ولا تتزوج قبل ان تتعرف على خطيبها وتختبر اوضاعه وسلوكه .

وعندما تتم الموافقة المبدئيـــة ، يتصل اهل العريس مع ابيها وامها ويتباحثون في تحديد المهر الذي يكون عادة بين الخمسمائة والعشرة آلاف ليرة

سورية ، وقد يجري الاتفاق على ان يستلم الوالد مهر ابنتـــه ويتصرف به كما يشاء ، ويشترط على العريس ان يقدم نفقات العرس وتكاليف « الجهاز » من ألبسة وحاجات يتطلبها الزواج . وفي الجبل الآن اتجاه نحو تخفيف نفقات المهر ، وذلك انسجاماً مع منطق التطور من جهة وحلاً لمـــا قد ينجم من مشكلات اجتماعية فيما لو كثرت عقبات الزواج من جهة ثانية ، ومن الامثلة المؤيدة للاتجاه المذكور هو ان المهر للاقرباء أخف مما هو للغرباء ، كما ان الكثيرين هذه الايام يعمدون الى أخذ مهر عاجل قليل بينما يكتبون وثيقـــة تسمى « الصداق » يتحدد فيها المهر المؤجل الذي يشترط على الرجل دفعه اذا لجأ الى طلاق زوجته او اذا توفي ولم يكن لها اولاد . وهذه العادة سائدة بين آل معروف في لبنان. وبعد ان يتم الاتفاق على المهر يجري « عقد الزواج » على الشكل المعروف لدى السنة ثم تجري حفلة العرس فالزواج عقب العقد مباشرة او بعد فترة قد تمتد اكثر من عام . (انظر شكل ٣) – عقد الزواج –

واذا صادف ان ربط الحب الشديد بين فتـــاة وفتى ورغبا بالزواج ولكنهما وجدا ممانعة من أهله او اهلها فقد يلجأ الفتى الى خطف البنت والذهاب بها الى مكان آخر ويلتجيء الى احـــد الاشخاص الاقوياء المتنفذين ويصبح « دخيلا » عنده هو وخطيبته التي تسمى « الخطيفة » . والشاب عادة لا يمس عفاف الفتاة قبل ان تجري الوساطة مع اهلها لقبول الزواج والرضا بالأمر الواقع بعد حفظ حقوقهم وضمان كرامتهم عن طريق الوساطة التي يقوم بها بعض الوجهاء ويعرف عملهم هذا باسم « الكده » او « الجاهه » . والحقيقـة ان اهل البنت يعتبرون خطفها تحديا لهم واهانة لسمعتهم ، ولهذا قد يعمدون ، قبل المصالحة والكدة ، الى الاقتصاص من البنت وزوجها بقتلهما أحيانا او بمنعهما من العودة الى مسقط رأسهما . ومن الملحوظ ان هذه العادة تسير في طريق التلاشي والزوال بسبب من تطور المفاهيم والتقاليد وانتشار الثقافة والاتجـاه نحو تيسير الزواج وتسهيله . ومما يجدر ذكره هو انه لا يجوز للرجل حسب تعاليم المذهب ، ان يتزوج اكثر من امرأة واحدة ولكنه يستطيع ان يطلقها لأتفه الاسباب في

بعض الاحيان بالرغم من ان الطلاق ممقوت عند الرأي العام , وهو أكره انواع الحلال عند الله . وعندما تتكاره المرأةوزوجها ، وتريد الخلاص منه تستطيع ان تطلق نفسها على ان تعيد له مهرها المدفوع عند الزواج . وعلى أي حال فان الطلاق الناتج عن الرجل او المرأة ، يكون عادة لاسباب هي تقريباً نفس الاسباب المعروفة لدى الاديان السماوية . ولا يجوز للرجل ان يعيد اليه المطلقة ولا ان يجتمع بها ويتكلم معها .

وفي القديم كانت مهمة المرأة تربية اطفالها والاهتمام بشؤون بيتها،وقد تشارك زوجها في الحصاد وجني المحصولات ، ولا تستطيع العمل في الحقل العام او التجارة او وظائف الدولة ، بينما اصبحت المرأة المتعلمة في الوقت الحاضر قادرة على مشاركة الرجل في كثير من الامور وتشبه زميلاتها في المدن الاخرى .

وللمرأة نصف حظ اخيها من تركة ابيها ، واذا لم يكن لها اخوة فلها نصف التركة ، واذا كان لها اخوات فلهن ثلثا التركة . ولكن مايحدث عملياً هو ان البنت لاترث شيئاً من املاك ابيها بل توزع هذه الاملاك بالتساوي بين اخوتها خوفا من انتقال الاملاك الى عائلة اخرى . ولكن اذا طلقها زوجها فان اخوتها مجبرون على ضمان عيشها وتأمين راحتها . قد يوصي الاب ببعض املاكه الى ابنته ، ولكنه يشترط عودة هذه الاملاك الى اخوتها او اقرب الناس اليها بعد وفاتها . ونلاحظ في هذه الآونة الاخيرة ان الشعور بحق البنت في ان تنال نصيباً من تركة ابيها ينمو ويتزايد بين الآباء ويدفعهم لان يسجلونها في الوصية الشرعية جزءا من التركة .

٢ ــ الاخلاق

يهتم المعروفي اهتماماً بالغاً بالمحافظة على كرامته وعرضه ، ويضحي من اجلهما النفس والنفيس ، فهو مثلا لا يتورع عن قتل البنت عندما ترتكب

جريمة اخلاقية ، لأن العار في مفهومه لا يغسله سوى الدم . واذا وجهت اليه كلمة نابية يعتبرها اهـــانة لكرامته فيثور ضدها بعنف. وكثيراً ما وقعت المشاجرات لمثل هذه الاسباب . واذا دعوت عدداً من آل معروف الى حفلة عامة مقاعدها مرقمة فلا تعجب اذا وجدت الاكثرية ناقمة حانقة على ترقيم المقاعد، لأن كل واحد منهم يرى نفسه أهلا للصدارة ، ويعتبر وضعه في صف متأخـر اهانة لكرامته . والمعروفي الاصيل يتصف كذلك بالانفة والاباء وعزةالنفس فهو لا يرضى لنفسه ان يعمل في مهنة وضيعة ولا يتدنى الى سفاسف الامور فلا يقبل وظيفة المستخدم الا عند الضرورة القصوى وعندما يعضه الفقر بنابه ، ويجد غضاضة في ان يكون اسكافياً او بائعاً متجولاً في الوسط الذي يعيش فيه ، ولكنه يشتغل بهذه المهنة في بلاد المهجر بعيداً عن عارفيه .

اما الشجاعة والكرم فهما في نظر المعروفيين غـير ما يمكن ان يتحلى به الرجل ، فهم يتناقلون بالمدح والثناء بعض مواقف البطولة والكرم لتكون عبرة للآخرين وقدوة لهم ، ومن الطريف ان نذكر بعضها في هذا المجال :

في احدى معـــارك الثورة السورية اصيب السيد اسد ابو عاصي من نجران في رضفة ركبته ، وعندما قيل له ان لا علاج لها الا بالكي وصب السمن المغلي عليها ، احضر بنفسه سيخاً من حديد ووضعه بالنار حتى احمر لونه واخذ يلذع به ركبته ثم احضر سمناً يغلي وسكبه عليها دون ان يبـدي تذمراً او شكوى . وفي الثورة السورية ايضا ، اصـــابت شظية السيد اجود مرشد رضوان من السويداء فبترت ساقه ، وبسرعة خاطفة ربط ساقه المبتورة بيده وراح ينتخي بها امام رفاقه الآخرين . وفي معركة جرت مـــع الفرنسيين في خربة شمر بالقرب من قرية عرى اصطدم الفرنسيون مع جماعة من الثوار كان بينهم السيد سليم مهنا من بكا ، وبقي هذا يقاتل بعد استشهاد جمـاعته ، حتى نفدت منه الذخيرة ، فما كان منه الا ان هجم بسرعة البرق ، نحو احد ضباط الحملة وكان قريباً منه ، فتصارع معه وامسك بتلابيبه وعضه من حنجرته فقتله، ولكن الضابط الفرنسي اطلق عليه النار من المسدس قبيل وفاته فارداه قتيلا .

اما فيما يتعلق بالكرم فانهم يتناقلون بالثناء اسم الشخص الذي يبني مضافة كبيرة ويكثر ضيوفه ويستمر في طبخ القهوة المرة ويتقنها . ومن العار الفاضح على الرجل ان ينفر في وجه الضيف او ان يتهرب من استقباله . وفي احاديثهم بالمضافات يأتون على ذكر الاشخاص الكرماء ويطرونهم ، ويعتبرون « الكرم ستار العيوب » . ومما يذكر في هذا الميدان عن السيد حمزه الدرويش من الحريسة أن اشخاصاً استضافوه فلم يستطع الحصول بسرعة على خرفان يذبحها لهم ، فما كان منه الا أن ذبح « المعاليف » اي الشياه التي تعلف صيفاً ثم تذبح في الخريف ليصنع منها « الدهن » اي اللحم المجفف الذي يستخدم لتموين اهل البيت في فصل الشتاء وقت نزوح المواشي الى البوادي البعيدة عن القرى . وهنالك ايضـــا السيد ابو عفاش الصحناوي من المعروفين بالكرم والسخاء ، اذ لا يستطيع الضيف او الزائر لقريته « الجنينة » ان يتخلص منه لأنه يتمسك به بالحاح وعنف ، وقد يعمد احيانا الى الحيلة لاكرام الضيف اذا اعياه الالحاح والرجاء ، ومن ذلك مثلا انه مر من قريته خمسة اشخاص بطريقهم الى الصيد ، وكان بعضهم من لبنان وبعضهم الآخر من السويداء ، وبما انهم رغبوا بعدم تكليفه بالطعام ، فقد اعلنوا له عند التقائهم به ، انهم لن يمروا في العودة من قريته ، فلم يبد اعتراضاً ، ولكنه اسرع فذبح خمسة خرفان لتجهيز طعام الغداء ووضعهم تحت الامر الواقع ،فاضطروا للعودة الى قريته الجنينة لتناول الطعام. وهنالك امثلة اخرى من اشخاص آخرين لا حاجة للتبسط بها .

ومن الاخلاق السائدة بين ابناء الجبل نجدة المستغيث وحماية المستجير فاذا سمعوا صوتا ينادي « وين راحوا النشامه » بمعنى اين هم الشجعان ؟! هبوا لنجدة صاحب الصوت شيبا وشبانا ومشاة وفرسانا (شكل ٤) وهذا مايعرف باسم « الفزعة » .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبـات على ماقال برهانا

واذا كان صوت المنادي منذراً بعدوان جماعي خطير (وهذا ما كان

يقع عهد العثمانيين وفي زمن الغزو بينهم وبين البدو بالماضي وفي اثناء الثورة السورية الكبرى) فانهم يخرجون معهم راية القرية وتسمى « البيرق » وينتقى حامله عادة من الاشخاص الشجعان الاشداء ، واذا قتل حامله في الحرب فان ابناء عمه يتولون حمله وحمايته ، اذ من العار ان يسمح للعدو بالاستيلاء على البيرق (انظر البيارق شكل ٥) وقبل المباشرة بالقتال ينتخون لاثارة الحماسة في النفوس والنخوة تكون عادة بالسلاح او برفع لباس الرأس وهزه امام الجماعة وهو يردد بقوة وعنف « عنيكم ربعنا » بمعنى نحن عندكم يارفاقنا ونحن مستعدون للتضحية ، فيجيب الآخرون بقولهم : « كفو والله » ، « حياك الله » ... الخ (النخوات شكل ٦) .

اما بالنسبة لحماية المستجير فمن الطريف ان نذكر المثال التالي : جرى شجار في قرية لاهثة بين آل محرز وآل الحسن ، وبينما كان السيد قاسم عز الدين يتوسط الأمر ويحاول فض الشجار ضربه عفوا شخص من آل محرز فارداه قتيلا . وعندئذ التجأ هذا مع اقربائه الى بيت القتيل بالذات ، واعلنوا للنساء أنهم يستجيرون باصحاب هذا البيت ويحتمون به ،والمستجير بهذا الشكل يعرف باسم « الدخيل » وفي هذه الفترة كان السيد فارس عز الدين ابن القتيل قد احضر والده الى المضافة ومنع الجمهور من الدخول الى بيت الحريم لملاحقة القاتل . حتى اذا ماخيم الظلام ، عمد الى تهريب المستجيرين سراً الى قرية حميد وقبل ان يأتي موعد حفلة الاسبوع التي تقام عادة بعد اسبوع من الوفاة،وافق على حل القضية وسمح لقاتلي ابيه ان يحضروا حفلة الاسبوع وعقد لهم رايته . وسنتكلم عن حفلات الاسبوع وعقد الراية في مكان آخر .

وما دمنا في معرض الكلام عن الاخلاق فلا بد من الاشارة الى ان المعروفي ، بالرغم من حبه للحرية وتمسكه بهـا ، وبالرغم من الروح الثورية الكامنة في نفسه ، فانه يخلد الى الهدوء والسكينة عندما يشعر بوجود قوة طاغية . ويجيد اخفاء نقمته ومشاعره ، ويتظاهر بالرضا والقبول بالأمر الواقع

بل اكثر من ذلك انه يتقن المسايرة والمجاملة الى الحد الذي يوهم الآخرين ويوقعهم في اخطاء فادحة لهذا خدع جمال باشا السفاح بوعودهم فلم يأخذ شبانهم للجندية ولم يقدموا الحبوب لجيشه في الحرب العالمية الاولى . ولهذاايضافوجيء الفرنسيون ودهشوا عند نشوب الثورة ضدهم في الجبل عام ١٩٢٥ م لان ممثلهم كاربيه كان يؤكد لهم ان معظم آل معروف وزعماءهم يزورونه ويؤكدون له الولاء ، كما اخطأوا مرة اخرى عام ١٩٤٥ م حيث جرى انقلاب ناجح ضدهم في الجبل بعد ان توهموا ان ابناءه سيقفون بجانبهم وذلك بالاستناد الى مظاهر الود والمجاملة التي لمسوها منهم . ولعل مذهبهم الذي يقول بمبدأ الاستتار والتظاهر بما يرضي الخصوم كان من جملة العوامل التي غذت في نفوسهم مثل هذه الصفات الآنفة الذكر .

٣ ـــ التقاليد والعادات

لاشك ان التقاليد والعادات السائدة في الجبل تؤكد بوضوح انهاذات اصول عربية صرفة ، فعادة الثأر مثلا لاتزال قائمة حتى الان على غرار ما كان معروفاً لدى عرب الجاهلية ، فاذا اعتدى احد على آخر فأهانه او قتله يصبح من واجب اقرباء القتيل ان يثأروا له اثناء فترة قد تمتد اعواما عديدة ، واذا لم يفعلوا اعتبروا جبناء مقصرين ، غير ان الحزم في تطبيق القوانين المرعية وتشديد السلطة على المجرمين يلاحقان هذه العادة ليجهزا عليها .

واذا وقعت مشاجرات عائلية في احـــدى القرى وادت الى وقوع بعض القتلى ، فان عدداً من الوجوه والمتنفذين في القرى الاخر يحضرون للعمل على تلطيف النزاع او وضع حد له ، فيطلبون من اهل القتيل وانصارهم الخلود الى السكينة وعدم القيام بمشاجرات جديدة لمدةاسبوع فأكثر ، وهذامايسمى « بالعطوة » وفي هذه الفترة ينزح القاتل وبضعة اشخاص من اقرب الناس اليـه الى قرى بعيدة على الا يكون فيها اقرباء للقتيل ، وهذا مايعرف باسم « الجلوة » وهؤلاء الذين جلوا يراقبون من خصومهم الذين يحق لهم مضايقتهم وقتلهم في

احدى حالتين : اذا وجدوهم في قرى اقرب من التي حددت لاقامتهم او اذا لم يجددوا العطوة قبل حل القضية نهائيا . وعملية المراقبة والمضايقة تعرف باسم « المداورة » . وبعد فترة تمتد اشهرا او سنوات تجري الوساطة بين الفريقين لحل القضية بدفع « دية » القتلى وهي اربعة آلاف عن كل قتيل يقتل عمدا ، ولكنها تصبح نصف القيمة اذا كان القتل خطأ وهذا مايسمى بـ « الحظلة » . وكثيرا مايتجول القاتل بين اقربائه وحلفائهم في مختلف الاماكن ليجمع الدية ، حتى اذا ماتم له ذلك ونجحت وساطة الوجهاء في حل القضية تداعوا لاجتماع عام تعقد فيه راية القتلى امام جمهور كبير ، ويقفون في حلقة واسعة ثم يؤتى بقضيب طويل او رمح غالبا ، تربط في نهايته راية بيضاء ، ويفتتح الاجتماع عادة اكبر وجيه من الحاضرين موجها كلامه الى اهل القتيل ذاكرا حميتهم وكرمهم وشاكرا موقفهم النبيل وتساهلهم في حل القضية ، ويعلن بانهم سيعقدون الراية عن « الحاضر والغايب والذين في ظهور الرجال وبطون الحريم (بمعنى عن الاشخاص الذين سيولدون) ، وعن النايم والقايم .. الخ » اي ان كل هؤلاء لايجوز لهم في يوم من الايام ان يطالبوا بالثأر ، وبعد هذا التمهيد يتقدم حامل الراية الى اقرب الناس للقتيل والى شيخ عائلته ثم الى بعض الاشخاص الوجهاء من الذين يعتمد عليهم اهل القتيل ، فيعقد كل منهم عقدة في في الراية البيضاء ، ثم يصيح حامل الراية بأعلى صوته قائلا « اشهدوا يأهل الحمية ، ضيوف ومحلية ، الراية البيضاء المبنية لفلان بيض الله وجهه» . وبعدذلك يتصافح الجانبان ، ثم تدفع « الدية » ولكن كثيرا مايمتنع اهل القتيل عن اخذها واباء منهم وترفعا وهذا مايعرف باسم « الشومه » (انظر شكل ٧) ننتقل بعد ذلك لنذكر لمحة عن الولائم والافراح والمآتم والعصبيات العائلية :

عندما يقيم احد الاشخاص وليمة لضيف او بأية مناسبة أخرى يوجه الدعوة الى وجهاء القرية وبعض رجالها ، وقد يجتمع في الوليمة الواحدة مايزيد على المئة شخص ، ويوضع الطعام في وعاء مستدير من نحاس قد يبلغ قطر دائرته اكثر من متر ، وعمقه يتراوح بين عشرة الى خمسة عشر سنتمترا . والطعام عادة من طبيخ البرغل واحيانا

من الرز ، ثم توضع فوقه كمية من اللحم والكبة المسلوقة والمقلية مع شيء من الجوز والصنوبر ثم تسكب فوقه « الملوحية » وهي مرقة « الكثا » أي اللبن المجفف الذي يحل بالماء ثم يغلى مع اللحم والسمن ، وأخيراً تسكب كمية وافرة من السمن المغلي ، قد تزيد على عشرة كيلوات أحياناً وذلك بواسطة وعاء قديسع كيلوين وله ساعد قصير بطول ٢٥ سم ويعرف هذا الوعاء باسم « الكبشة » . وصب السمن منها على المنسف يعرف باسم « التقفير » ، وبعد انتهاء المضيف من صب « القفرة » يقول عادة بعض العبارات منها قوله : « الله والنبي يحييكم ، افلحوا ياغانمين ـ مافي شي من الواجب ـ الحيلة على تشريفكم » بينما يجاوبه الضيوف بقولهم : « الله يكثر الخير ـ هذا خير الله ـ الله يحيي نباك .. الخ » . (انظر شكل ٨)

ثم يبدأ الضيوف بتناول الطعام ويدعى بعدهم بقية المدعوين أي الوجهاء فالمسنون فالفتيان فالأشخاص العاديون فالمعازيب ومفردها « معزب » أي اصحاب البيت المضيفون . وهم يجلسون القرفصاء على المائدة ، ولكنهم يقدمون كرسيا صغيرة او مخدة المتفرنج ، ويأكلون الطعام بأيديهم ، وقلما يستخدمون الملعقة والشوكة والسكين (انظر الشكل ٩)

وعندما يرفعون « الطبق » وهو بساط مستدير مصنوع من قصل القمح الملون ، يوضع تحت المنسف ، يقول الحاضرون : « الله يكثر الخير ، او دايمة او بالافراح انشاء الله » .

وهذا النوع من الولائم التقليدية المحلية يعرف باسم « كرمة المنسف » نسبة الى الوعاء الذي يسكب فيه الطعام . وفي نهاية الوليمة يطالب عدد من المدعوين بان يسمح لهم « المعزب » اي المضيف بدعوة الضيوف الى مضافاتهم لتناول الغداء او العشاء او لاحتساء القهوة ، وهنا لابد من وصف المضافة ومحتوياتها .

فالمضافة هي غرفة استقبال الضيوف ، في محيطها الداخلي مصطبة بارتفاع

اربعين سنتمترا وبعرض متر أو يزيد تسمى « الطواطي » ، تفرش بالافرشة والسجاجيد والعجميات اي لبابيد من صوف ، وبالوسائد الصوفية والحريرية وفي صدر المضافة حفرة مبلطة تسمي « النقرة » وهي بعرض حوالي ٧٥ سم وبطول متر أو اكثر ، وبعمق اكثر من عشر سنتمترات ، توضع فيها اباريق طبخ القهوة المرة ، وأدواتها وهذه الاباريق تصنع غالبا من نحاس وذات اشكال خاصة اكبرها يسمى « الدلة » واصغرها « الغلاية » ومنها تصب القهوة المرة للضيوف في فناجين خاصة وهنالك « المحماسة » لتحميس حب القهوة ،وهي صحن مستدير من حديد قطر دائرته يتراوح بين ٢٠-٣٠ سم ولها ساعدطويل يبلغ حوالي ٧٠ سم يقبضه بيده اليسرى اثناء التحميس بينما يقبض بيده اليمنى يد المحماسة وهذه عبارة عن سيخ من حديد بطول ٦٠ سم تقريباً وتنتهي بكفة صغيرة يقرب قطر دائرتها من ١٠ سم . وهنالك « البرادة » وهي وعاء من خشب مزركش الصنع يوضع فيه حب القهوة ليبرد بعدتحميصه . اما «الجرن» فهو من خشب البطم او التوت ، مزركش الصنع ايضا يوضع فيه حب القهوة ليدق بيد خشبية جميلة الصنعة ، ولدق القهوة ايقاع موسيقي خاص وصوت معروف يشير الى طبخ القهوة وكأنه ينادي الجيران وسامعي الصوت لاحتسائها (انظر شكل ١٠) .

والمضيف الكريم يبش لضيفه ويحتفي به بحرارة وذلك بسؤاله عن احواله وعن أهل بيته وعمن فارقهم ، وبتجديد طبخ القهوة واذكاء النار اذا كان الفصل شتاء وبزيادة الافرشة والوسائد وبتقديم بعض الطعام قبل الوليمة الكبيرة التي يقيمها له ، وبالوقوف مع الترحيب المتكرر بقوله : « أهلا وسهلاً» فيجاوبه الضيف : « بالمؤهل » او الله يديم مهلتك .

وعندما يدخل الشخص ، اي شخص ، الى المضافة يؤدي التحية الى الموجودين فيها بقوله : صبحكم بالخير (قبل الظهر) والسلام عليكم (ظهراً) ومسيكم بالخير ، أي مساكم الله بالخير (بعد الظهر) ، فيردون عليه التحية ثم

يقفون عادة احتراما له ، ويحاول كل منهم دعوته للجلوس بالقرب منه من قبيل المجاملة ، وخاصة اذا كان الداخل عليهم ضيفاً او زائراً غريباً . وبعد جلوسه بلحظات يحيونه بقولهم : صباح الخير ، او مساء الخير ، فيرد التحية بأحسن منها فيقول : صبحكم بألف خير .. واذا صادف ان شرب احد الحضور ماء يقولون له : هنيه وعافية . فيجاوبهم بقوله : هناكم الله بالجنة والعافية .

اما تقاليد الافراح فتبدو على أوضح ماتكون بمناسبة الاعراس، فقبل ليلة الزفاف ببضعة ايام يجتمع كل مساء عدد كبير من الفتيات والفتيان في دار العريس يفرحون ويمرحون وينشدون مختلف الاهازيج والاغاني ، منهامايعرف باسم « الجوفية » وهو لحن من الغناء الحماسي ينشده صف من الرجال ثم يردده بعدهم صف آخر يقابلهم . ومنها نشيد « الفن » حيث ينتظم خمسة او سبعة اشخاص في صف واحد ويسيرون ببطء شديد في المضافة او في صحن الدار ، ويشرع الاول منهم بالقاء « قصيدة الفن » بلحن خاص ثم يردد الاخرون بعده مطلع القصيدة غالباً وبعض فقرات منها في بعض الاحيان ، ومنها « المولية » وهي ان يتشابك الرجال الايدي في حلقة واسعة ويدورون بخطا موزونة وهم يرددون بعض الاغاني ذات الالحان الجميلة ، ومنها « الدبكة » وهي رقصة شعبية يصطف فيها بضعة شباب وامامهم لاعب « المجوز » او الناي يثير حماستهم في رقصة شعبية لاتخلو من الاثارة والحماسة . ومنها « السحجة » حيث يقف بعضهم صفاً او صفين متراصين متقابلين ثم يصفقون مرددين كلمة « دحيو » ببطء ثم بعنف وسرعة .. والسحجة معروفة لدى جيرانهم البدو اكثر مما هي معروفة لديهم .

وقد يقيم الرجال في بعض الأعراس سباقاً للخيل وهذا من هواياتهم المحببة اليهم ويسمى « الميدان » . ثم انهم يستخدمون من الآلات الموسيقية الربابة والناي والمجوز ، بينما تزغرد النساء ويستخدمن الدربكة والدف ، مع العلم ان احتفالات النساء منفصلة عن احتفالات الرجال ويسمح بالاختلاط

أحيانا بين الاقرباء . وفي ليلة الزفاف يذهب الرجال الى دار العروس ليأتوا بها الى دار العريس في موكب حافل ، وتركب عادة على فرس مزينة بالستائر المزركشة وتحيط بها الفتيات وهن ينشدن الاغاني المختلفة ويتقدمهن الرجال بأغانيهم الخاصة .

وفي اليوم الثاني يأتي مواطنو القرية لتقديم التهنئة للعريس وذويه ، وفي المساء يدعون لوليمة عشاء بمناسبة الزفاف .

هذا وصف خاطف للاعراس كما تجري في الوقت الحاضر ، وقد اردنا الاقتصار عليه دون وصف الاعراس القديمة ، على مافيها من غرابة وطرافة ، لانه لم يبق لها اثر من جهة وتجنباً للاطالة من جهة ثانية . ومن تقاليد جبل العرب انه اذا توفي احد المواطنين الوجوه فان على اهله وذويه ان يقيموا له بعد وفاته بحوالي اسبوع حفلة تأبين يسمونها « حفلة الاسبوع » يدعون اليها المواطنين من القرى المجاورة والبعيدة احيانا ، وذلك تبعاً لمكانة المتوفي واهميته الاجتماعية . وغالبا ماتوجه الدعوة باسماء العائلات او باسم شيخ العائلة والمتنفذ فيها ليدعو بدوره افراد عائلته . ويشعر المدعوون بضرورة المساهمة واداء التعزية لما في ذلك من محافظة على صداقة الداعين من جهة وليتاح للاخرين ان يبادلوهم مثل هذا الواجب من جهة ثانية . وعندما يصل المدعوون الى مكان الاحتفال ، يقدمون تعازيهم لآل الفقيد وهي على نمط واحد متشابهة ، تغلب عليها نزعة المبالغة والاطناب في وصف الفقيد ومدحه . ويبدوان آثارالعصور العباسية المعروفة بالمبالغات والتضخيم لاتزال متمثلة في مثل هذه التقاليد. ويبدأ الكلام عادة شيخ العائلة ولا يشترط ان يكون اكبر افرادهاسناً ولااكثرهم كفاءة وشجاعة وكرما ، بل من البيت الذي يتوارث ابناؤه رئاسة العائلة وزعامتها . وتقف عادة وفود المعزين في صف مستقيم مقابل آل الفقيد وعلى مسافة تقرب من عشرة امتار اوتزيد . فيقول المعزون :

ـ خاطرنا عندكم = ويرد آل الفقيد بقولهم : سلم خاطركم

– عَز علينا = سَلِم من تعز (اي سلم الله من تعز)

– ما كان بدنا كسر خاطركم = الله لا يكسر لكم خاطر

– العزاء سُنة والغارط (الخسارة) من كيس الجميع = الله لا يُشوفنا (يرينا) عليكم ضيم

– الله يرحمه = تعيش وترحم (ترحم بعد الموت) .. الخ شكل ١١.

ثم قد يطنب واحد او اكثر من المعزين بذكر صفات الفقيد وشجاعته وحسن سلوكه ونبل مواقفه .. لان في ذلك عزاء لآله وذويه .

وفي نهاية المأتم ايضا قد يرثي بعض الاشخاص الفقيد بكلمات ارتجالية او خطية . وقبيل الدفن تجري الصلاة على الميت بالشكل المعروف لدى السنة شكل – ١٢ – ثم تقرأ وصية المتوفى وثم يقف الجميع في حلقة واسعة بعد الدفن وتجري تعزية عامة مشتركة لآل الفقيد وينتهي بذلك الاحتفال ثم يبدأ اهل القرية بدعوة الضيوف الى بيوتهم لتنـــاول الطعام ، ويسعى كل منهم جاهداً لأن يحصل على اكبر عدد منهم . ويدعو احد الجيران عادة آل الفقيد لتناول طعام الغداء او العشاء لديه . اما الاشخاص الذين لم تسمح لهم ظروفهم بحضور حفلة الدفن او حفلة الاسبوع فقد يأتون في اوقات اخرى الى بيت آل الفقيد ليقدموا تعازيهم ، اما النساء فيجتمعن في مكان اخر ويندبن الفقيد بالحان حزينة خاصة .

ومن المعروف كذلك ان للعائلات تصنيفاً خاصاً او ترتيباً تعرف به مكانة العائلة ، فاذا صادف ان اجتمع افراد عديدون ينتمون الى عائلات متعددة وأرادوا توقيع عريضة او بيان ، فالاسماء توقع على اساس الترتيب العائلي ، واذا حاول احد الافراد ان يوقع في غير المكان المخصص له ولعائلته فانه يثير خصومة بينه وبين العائلة التي احتل مكانها في التوقيع وقد تصل هذه الخصومة الى حد المقاطعة والمشاجرة والاشتباك بالعصي والحجارة ، وهذا مايسمى حسب التعبير المحلي « بالنزاع حول الختم » .

ومنذ زمن غير بعيد ، وبعد انفضاض احدى حفلات الاسبوع التي ألمحنا اليها ذهب المدعوون كالعادة لتناول الطعام في بيوتات القرية ، وقد دعي اكثر من عشرين شخصاً الى احد البيوت ، وقبل دخولهم « يتعازمون » اي يعرض كل منهم على الآخرين من أجل الدخول اولا ، ولكن دخولهم يحصل عـــادة حسب ترتيبهم العائلي . وصادف ان اثنين من المدعوين قد اختلفا على ترتيبهما العائلي ، حتى اذا مادخل احدهما قبل الآخر اكفهر وجه هذا الاخير وأخذ يتحين الفرصة ليضع حداً لذلك الذي تمادى واعتدى بدخوله قبله . وبعد جلوسهم في المنزل ببضع دقائق أراد المضيف ان يقدم لهم القهوة حسب ترتيبهم في الدخول وعندما بدأ وقدم القهوة لمن دخل في المقدمة ، اغتـاظ الرجل الآخر وصرخ بقوة في وجه المضيف قائلا : « المسألة بحاجة الى ذوق » . كما التفت الى خصمه وقال بصوت مرتفع حاد : ألا تعرف مكانك وختمك ؟! ألا تخجل من تصرفك هذا ؟! والنتيجة الطبيعية لهذا القول هي وقوع المشاجرة والمضاربة بينهما ولولا تدخل الباقين والحيلولة دون استمرار المشاجرة لفتك القوي منهما بالضعيف .

والحق اننا لو نظرنا الى هذا الحادث بتفحص وإمعان لوجدنا فيه تعبيراً واضحاً عن تقاليد واعتبـارات اجتماعية كان لها مايبررهـا فيما مضى من الزمن ولكنها أصبحت اليوم بالية مهترئة ، وغدا بقاؤها دليلا على الجمود والتخلف . ليس هذا فحسب بل ان في هذا الحادث مايشير الى خطر العقلية القبلية والعصبية العائلية حيث تصر على تكبيل المواطنين بقيود وتقـــاليد موروثة ، ولا تقيم وزناً للكفاءة والجهد والاخلاص للوطن وما الى غير تلك من الفضائل والامكانيات ، ونعني بذلك انه مادام كلام الشيخ أي زعيم العائلة مسموعاً مطاعا ، ولو كان هذا الشيخ أمياً جاهلا ، وكثيراً مايكون كذلك ، ومـــا دام رأيه يمثل مجموع العـــائلة وله الحق في التوقيع باسمها ، ويتمتع بامتيازات قد تصل حد المساومة على اصوات افرادها وبيع هذه الاصوات في بعض المواسم الانتخابية ، نقول مادام ذلك كذلك فلا مجال لظهور الكفاءات ولا مكان لانطلاق المواهب والامكانيات ، ولا جدوى بالتالي من ان يبذل المخلصون الموهوبون جهودهم

لكي يرتفعوا الى المستوى الذي يؤهلهم له اخلاصهم ومواهبهم . وبعد : فلسنا مبالغين اذا قلنا ان العصبيات العائلية ، بما يرتبط بها عادة من تحزبات قروية وعنعنات ضيقة ، وبما قد تولده من مناحرات حادة ، وخصومات شديدة حول انتقاء المخاتير او النواطير او اعضاء البلديات او بمناسبة الانتخابات ، انما هي في مقدمة الامراض الاجتماعية المعرقلة للوحدة القومية والمعيقة للانسجام القومي بين المواطنين ونحن بالرغم من قناعتنا بان تزايد الوعي القومي كفيل بالقضاء على هذه العصبيات العائلية فاننا نعتقد من الضروري تعجيل الزمن للاجهاز عليها وذلك بتركيز الجهود على مقاومتها في مختلف المستويات وعلى الصعيدين الحكومي والشعبي .

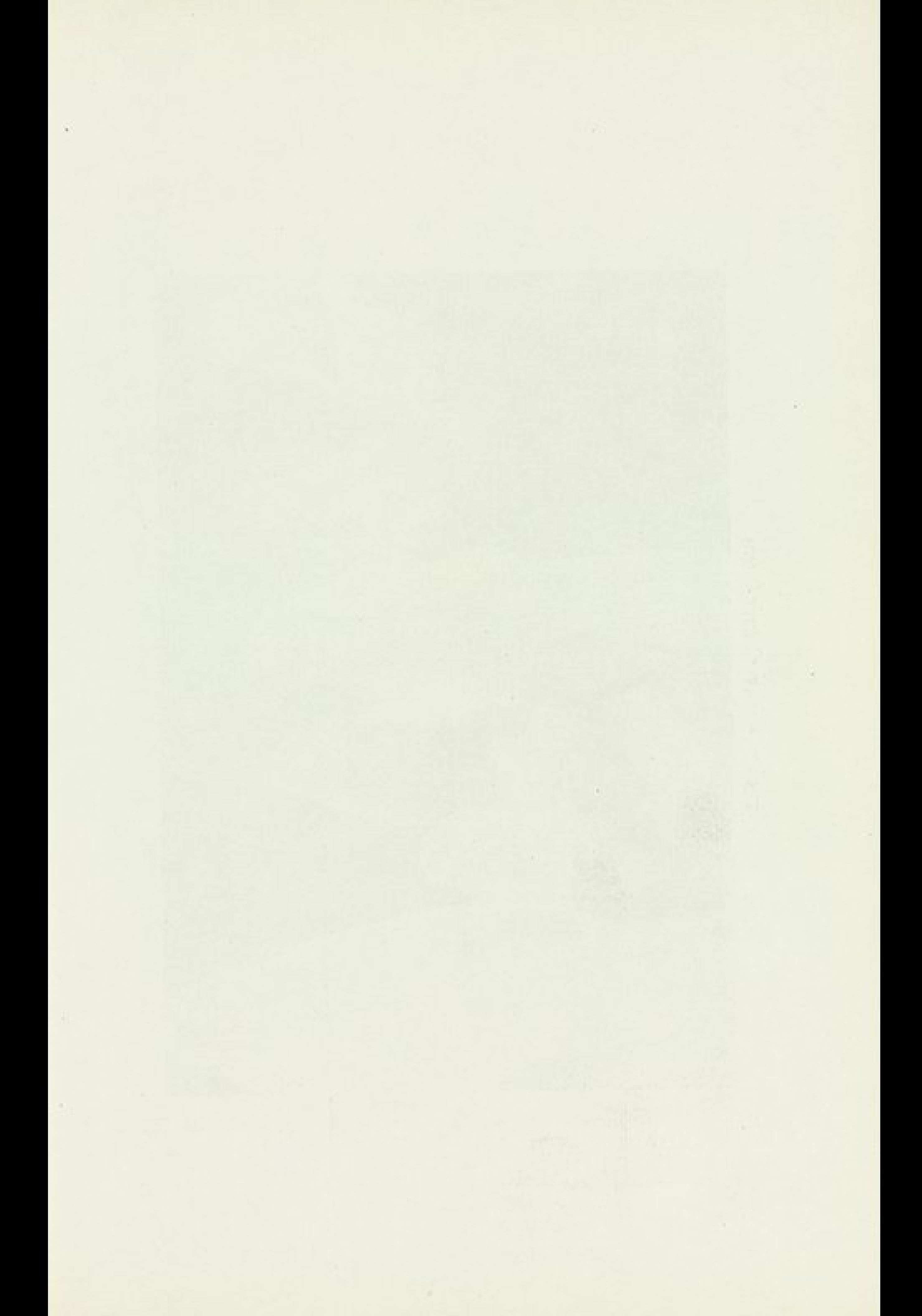
(شبلي العيسمي)



شكل – ١ – القرص المشنشل

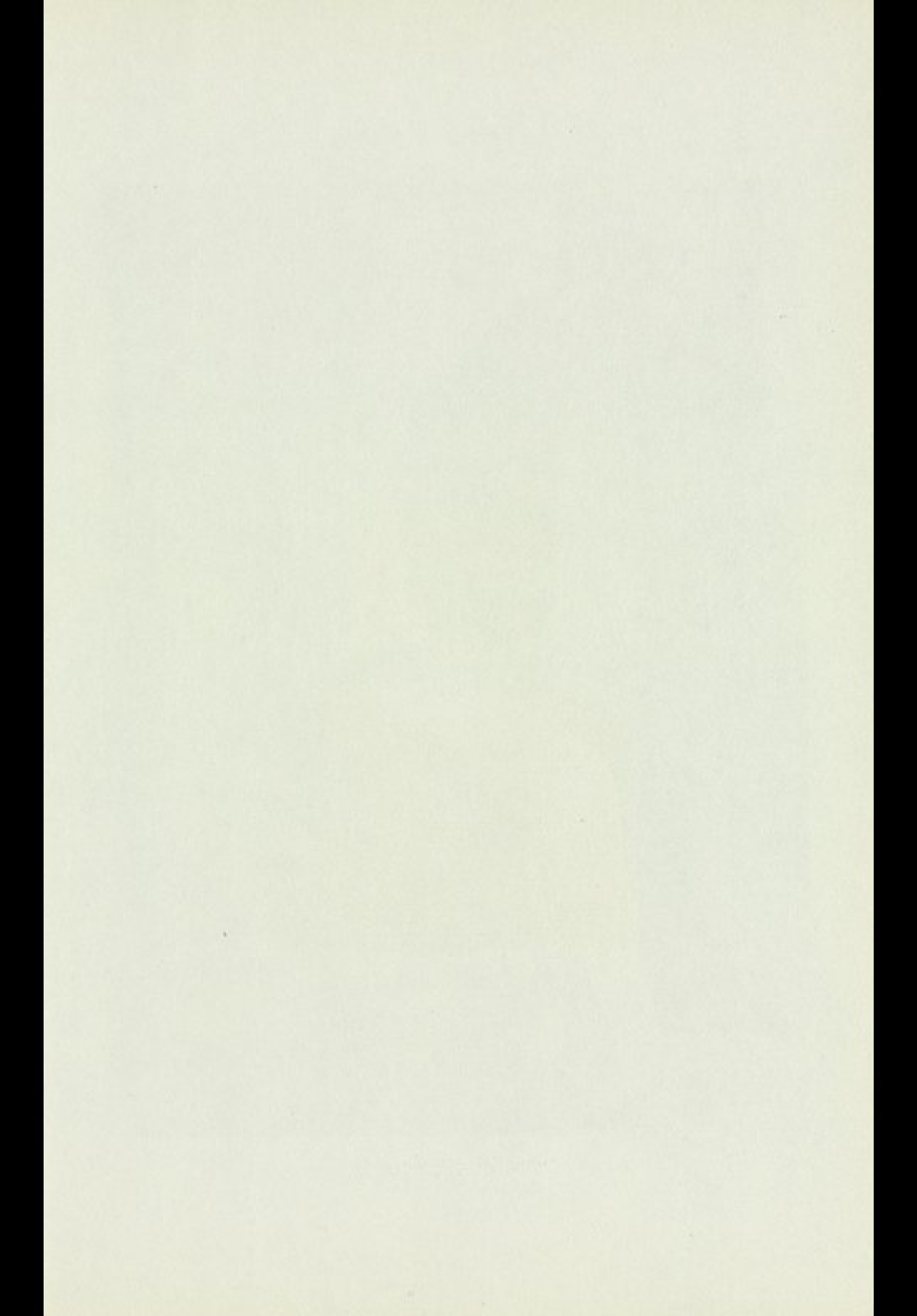


شكل – ٢ – اللباس التقليدي للفتاة



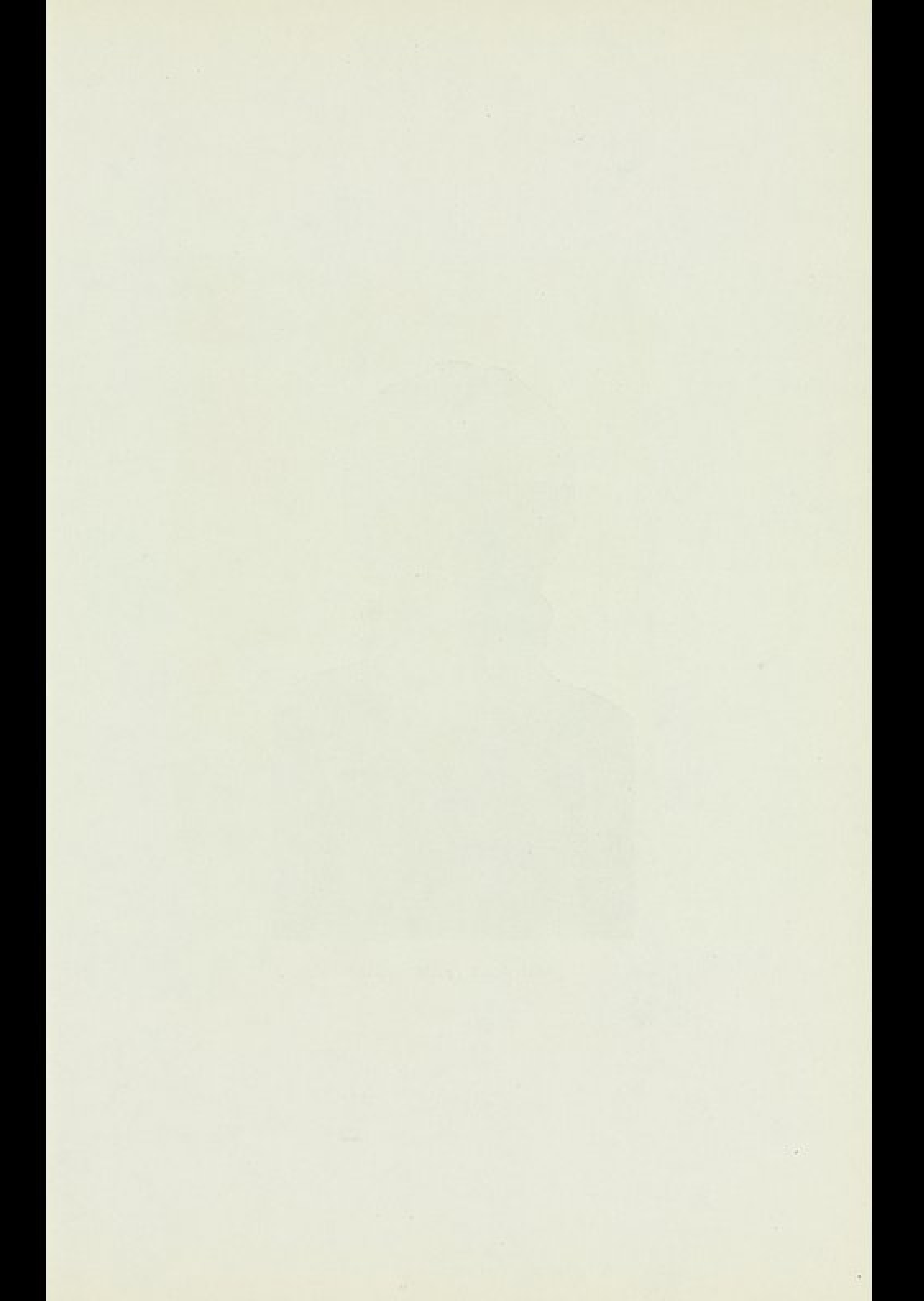


اللباس التقليدي للفتى والفتاة



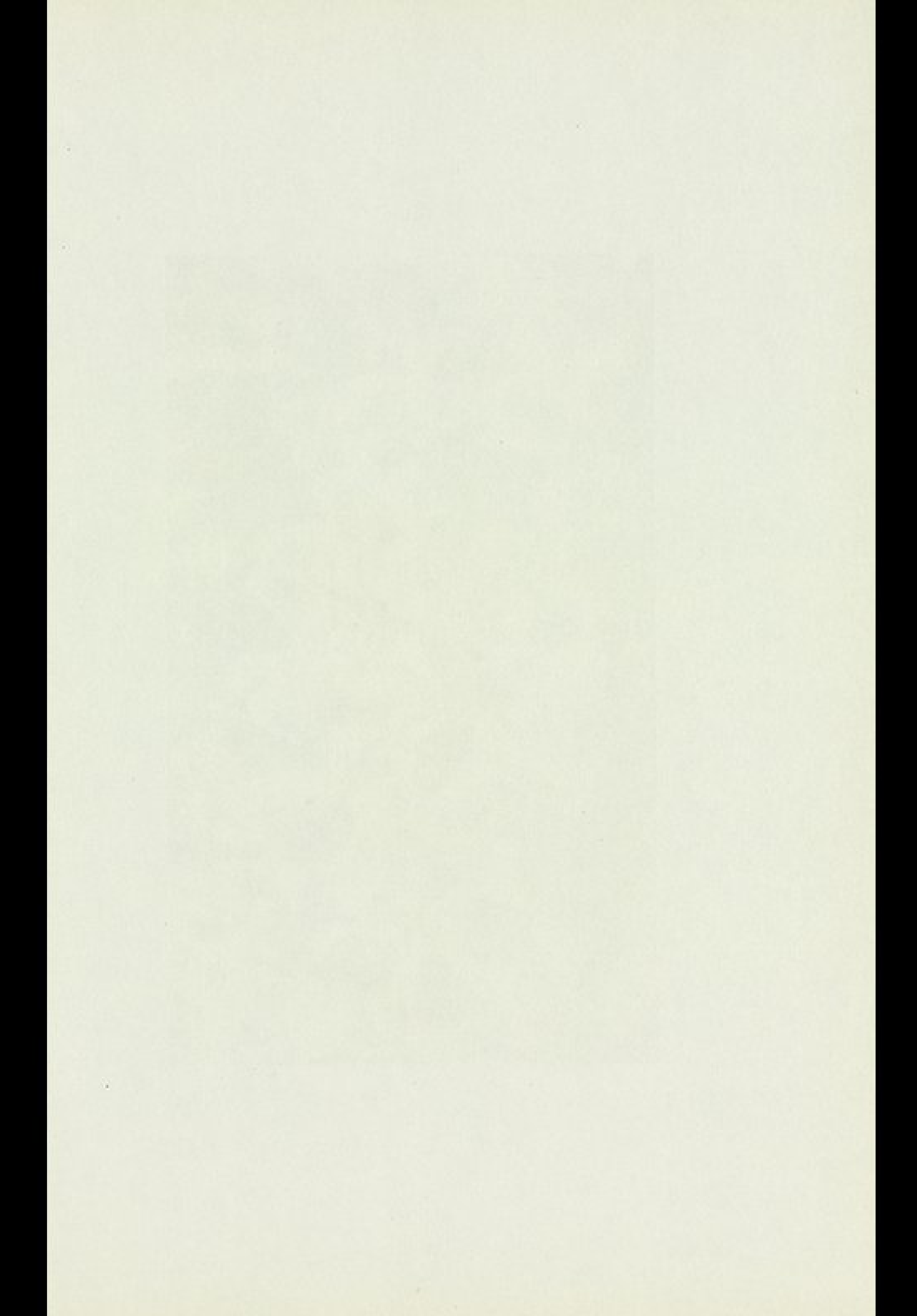


اللباس التقليدي للشيخ المتدين



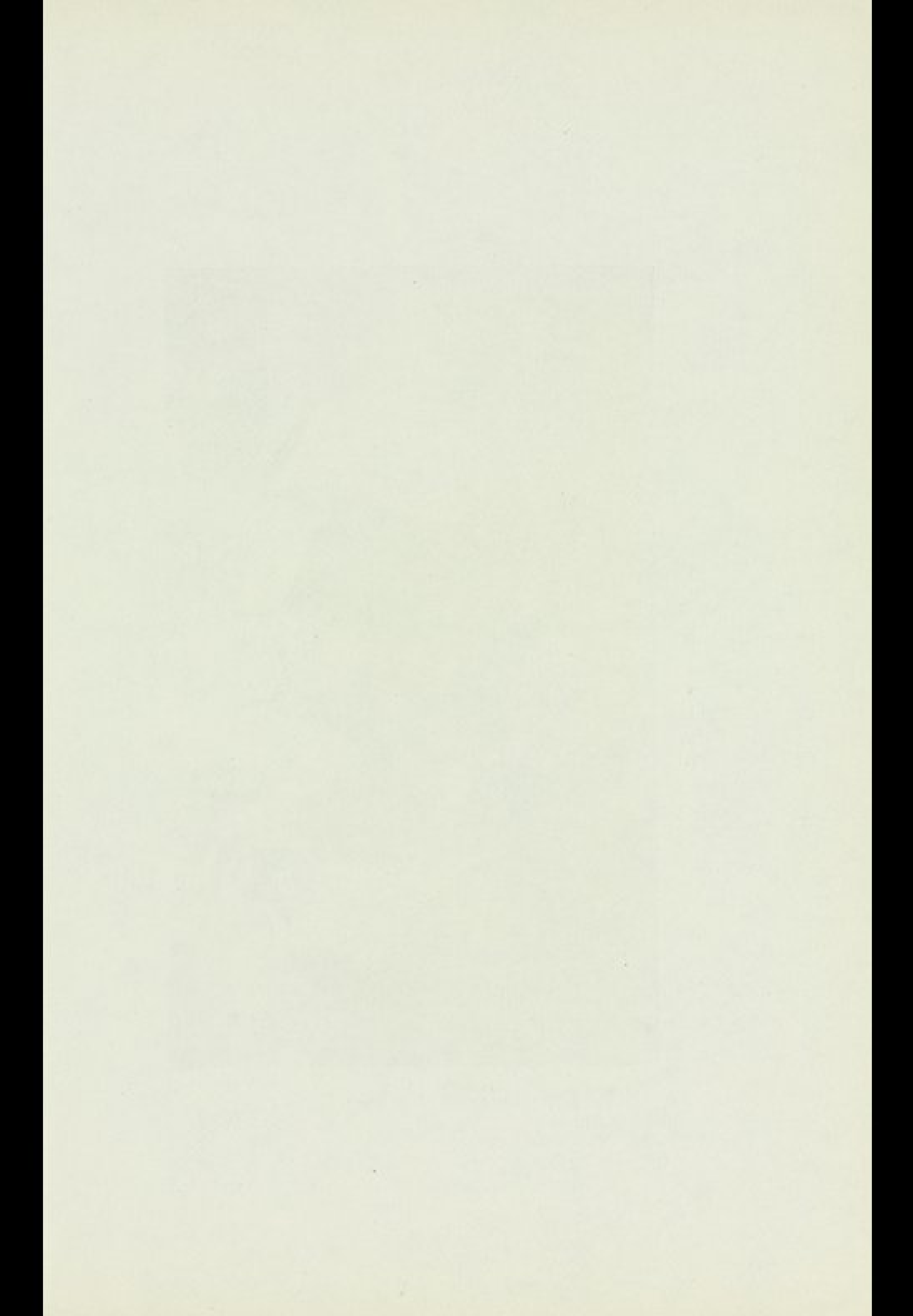


العجائز في احد المآتم - اللباس خال من الزركشة



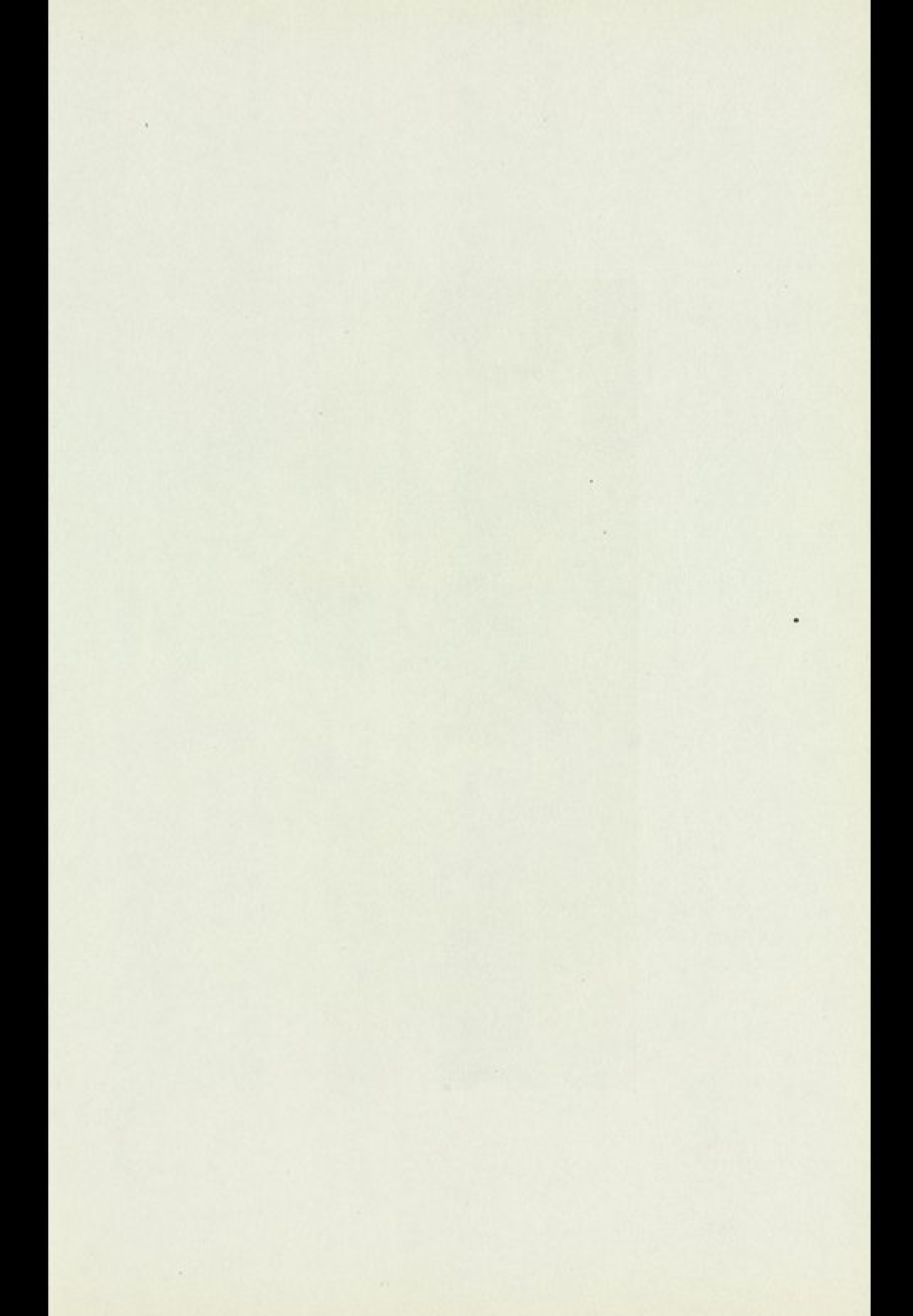


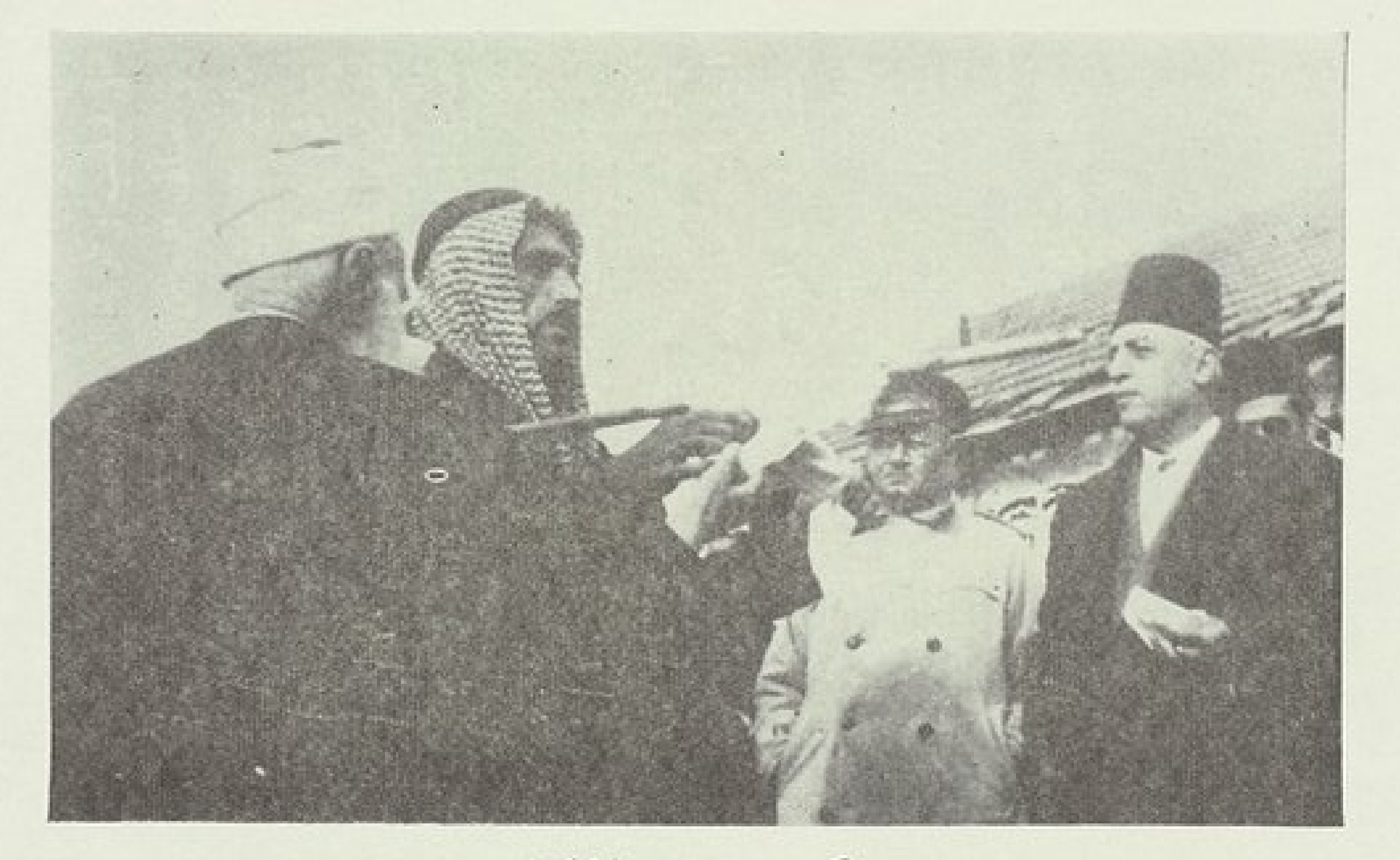
شكل – ٣ – عقد الزواج



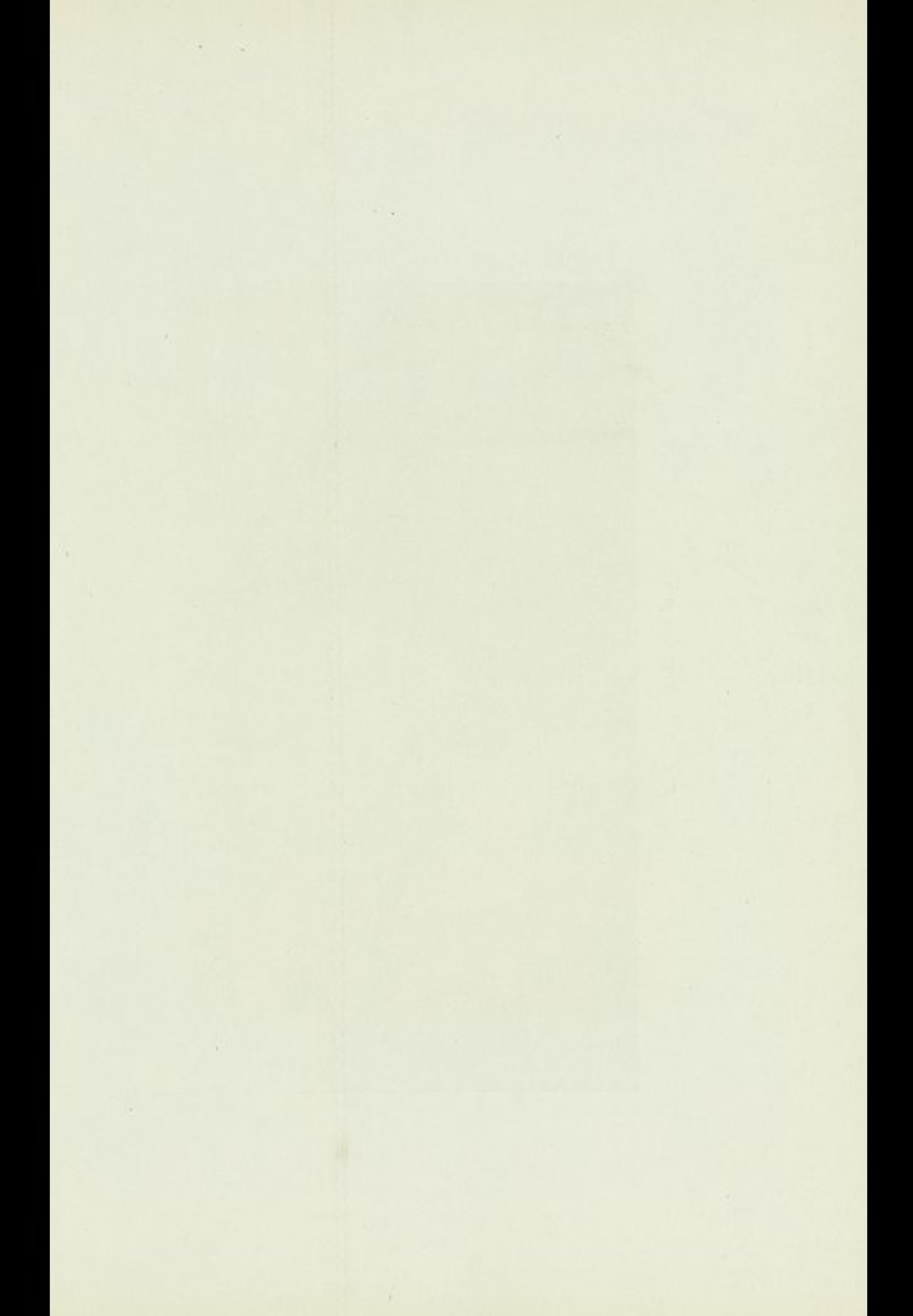


شكل – ٤ – فارسان في حالة الاستعداد للنجدة



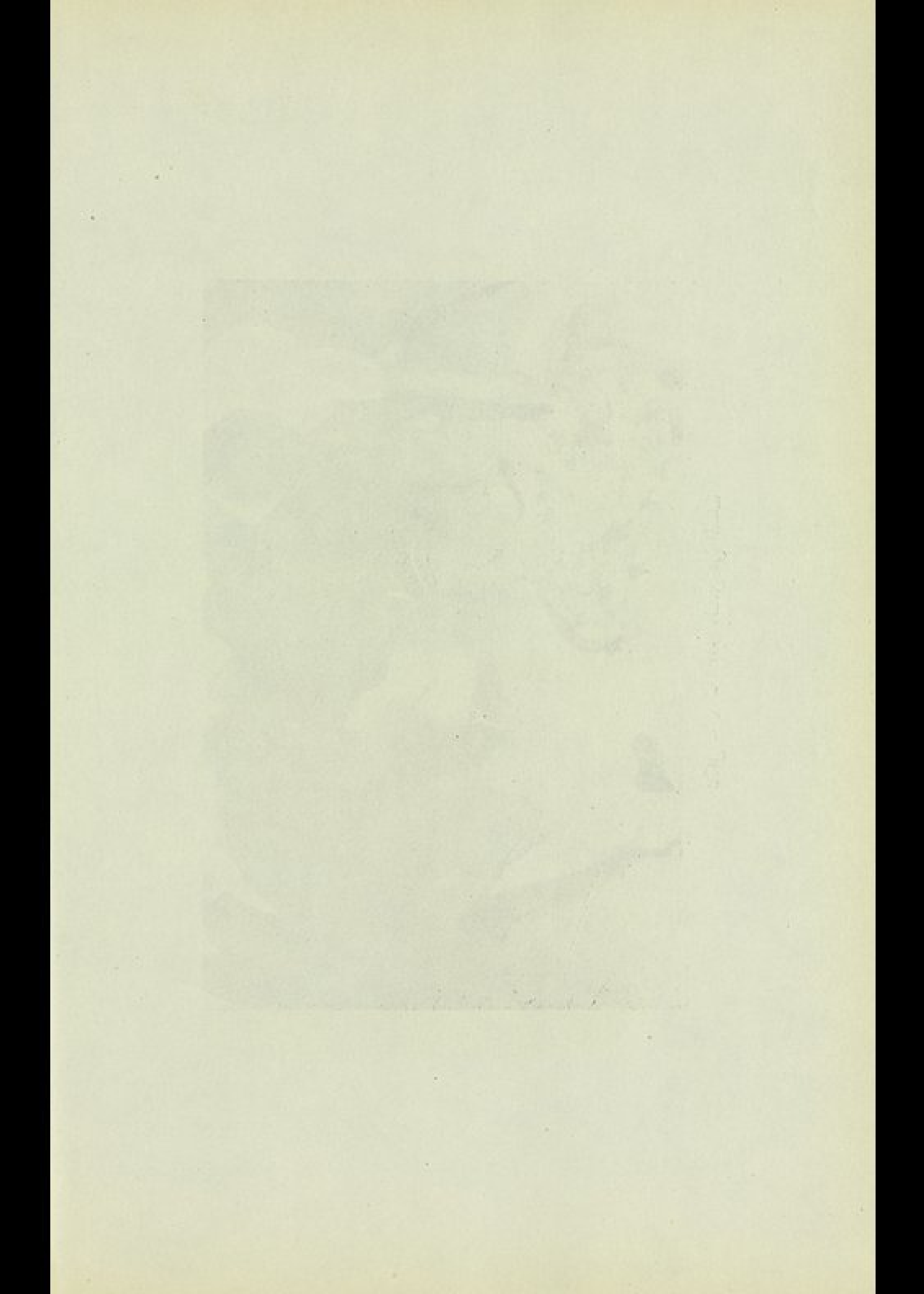


شكل – ٧ – عقد راية القتال



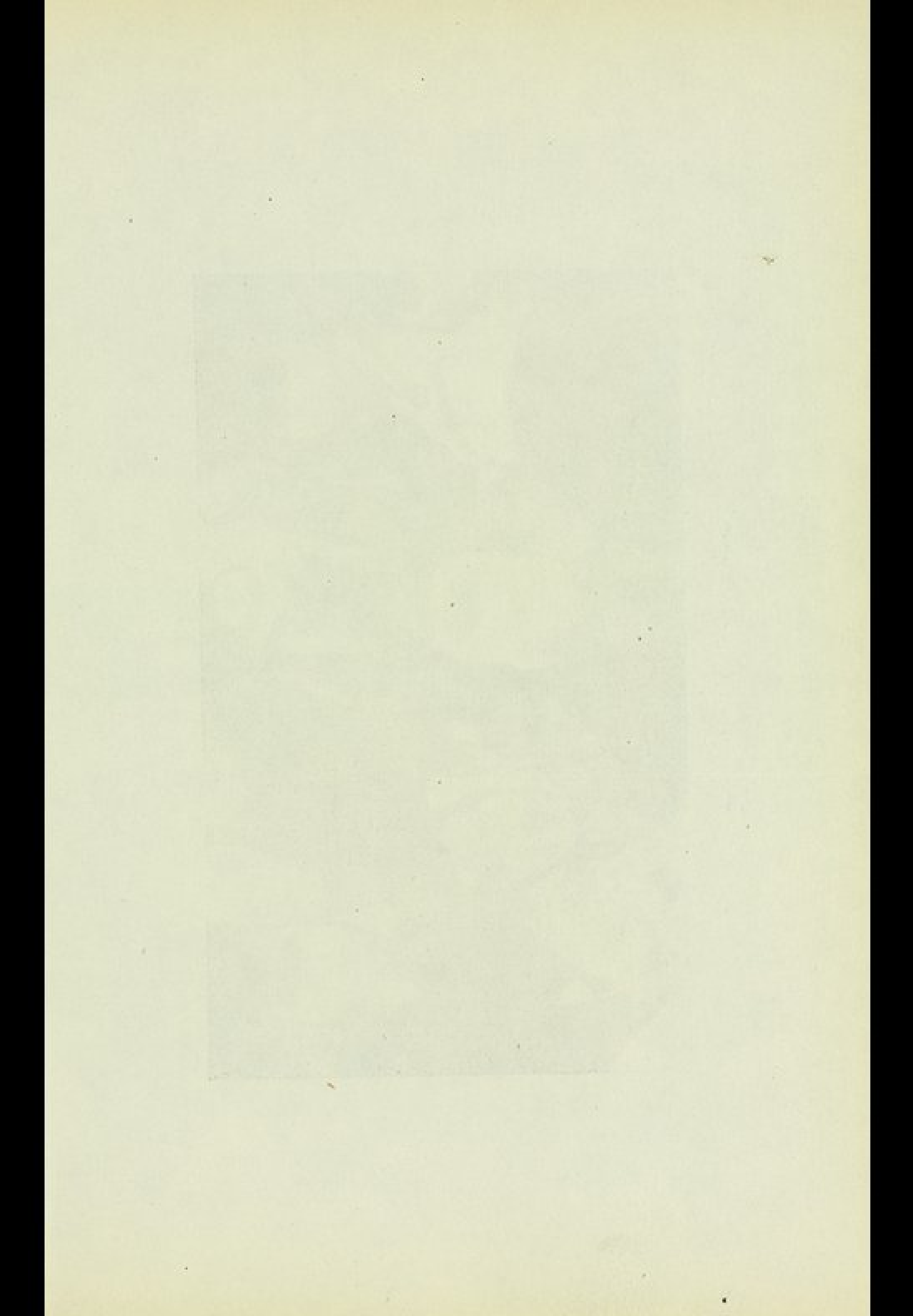


شكل – ٨ – التقفير بالسمن على المنسف



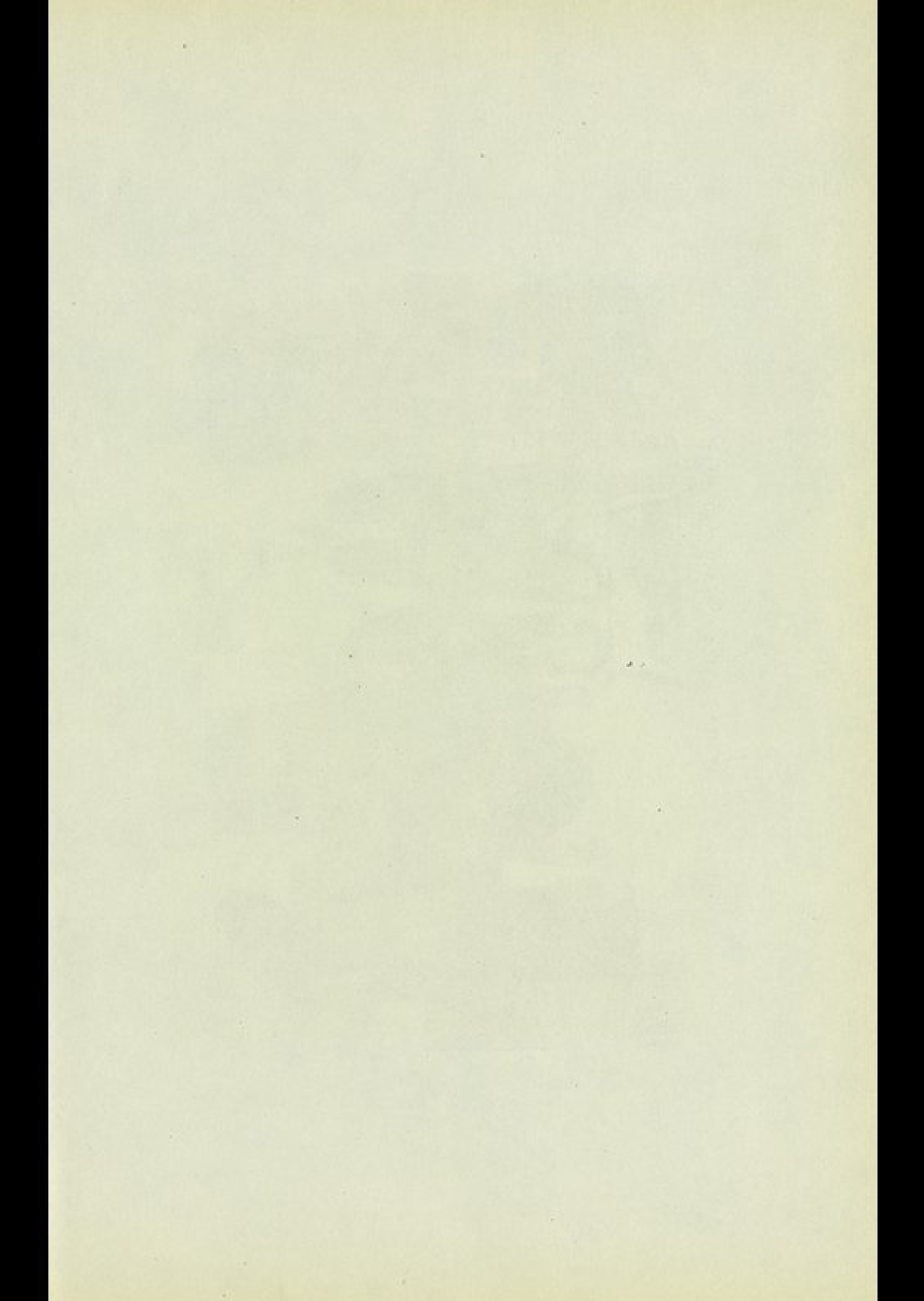


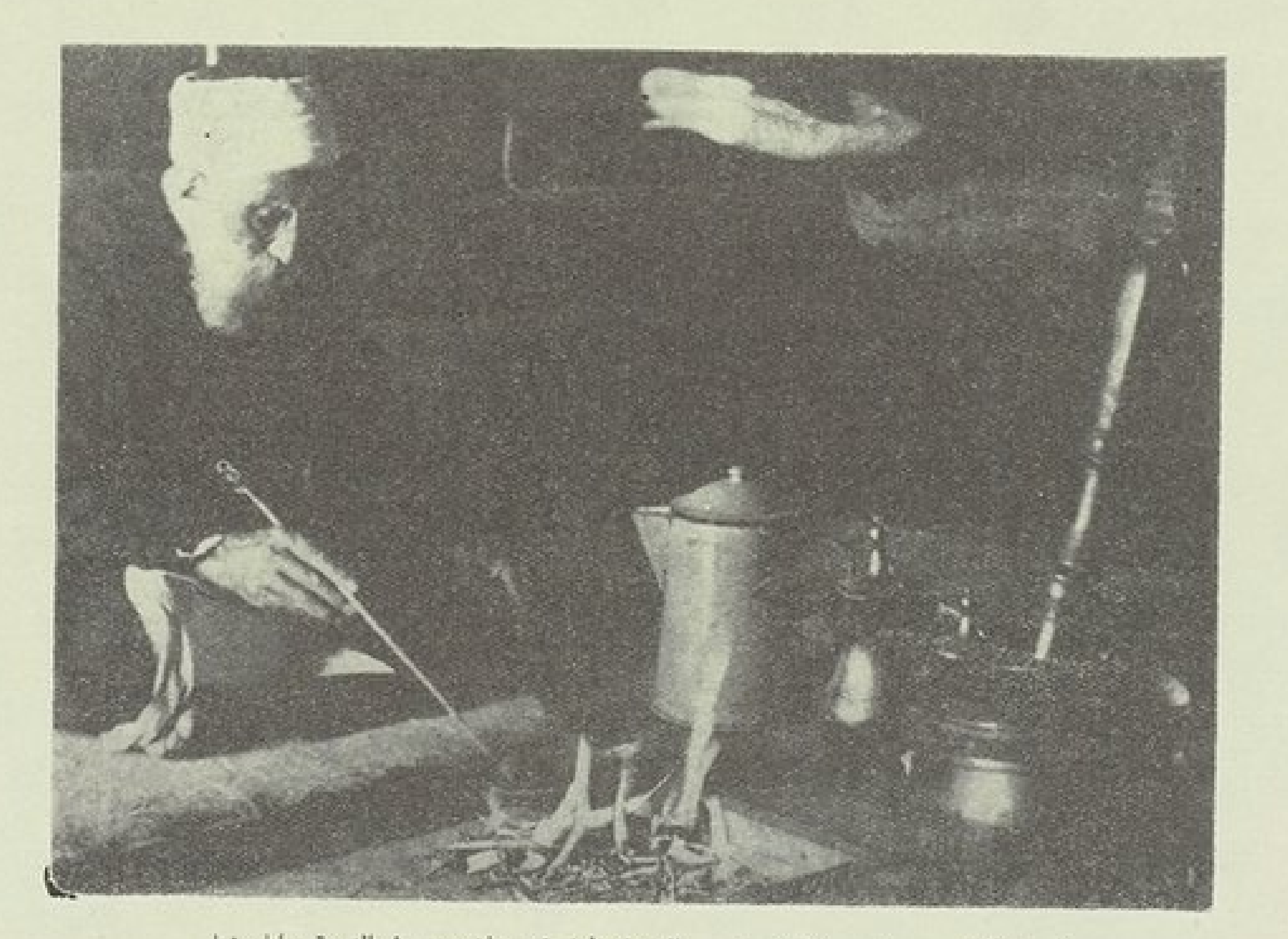
شكل ـ ٩ ـ تناول الطعام من المنسف



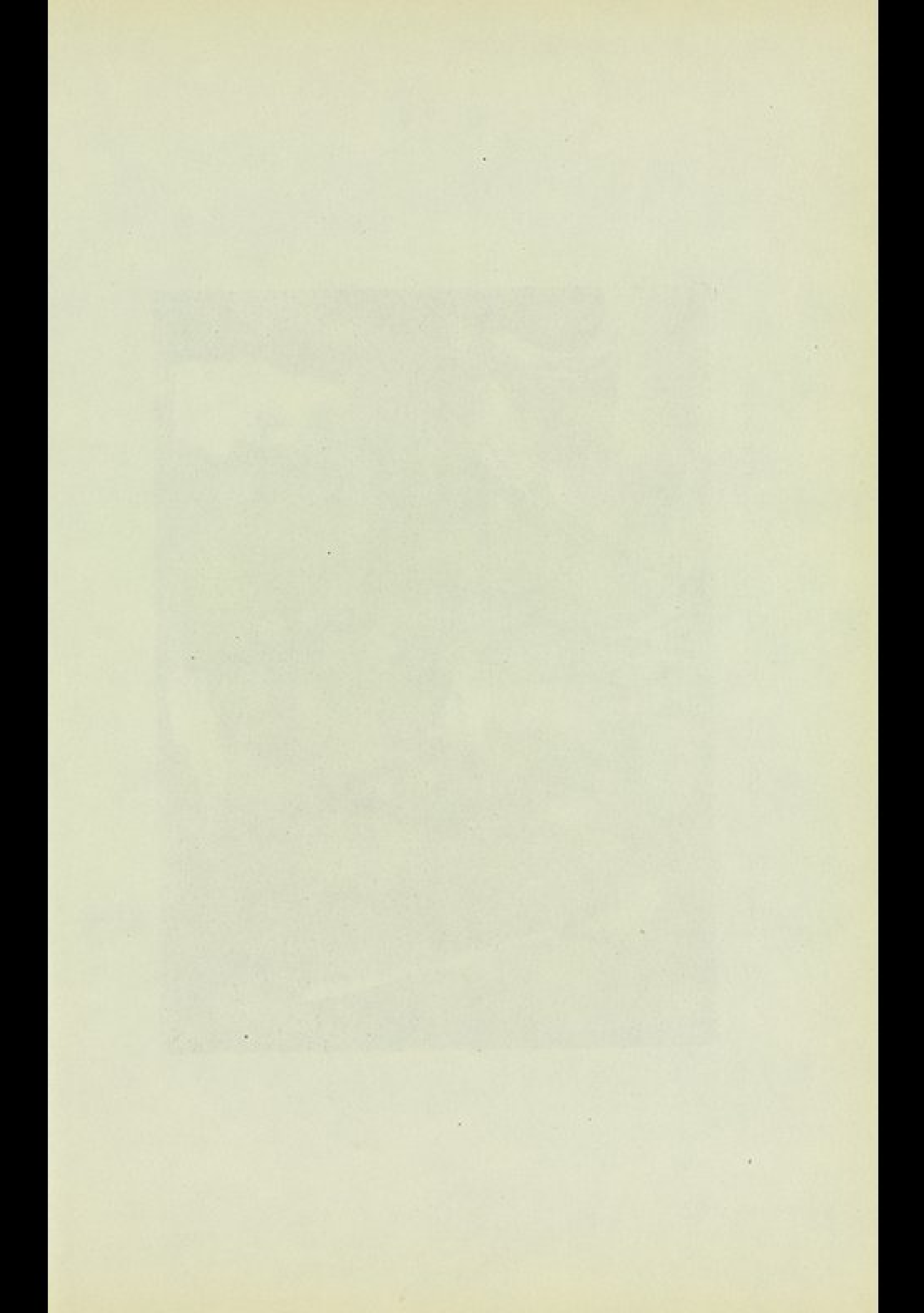


شكل – ١٠ – المضافة وصب القهوة ، والاباريق والنقرة والجرن



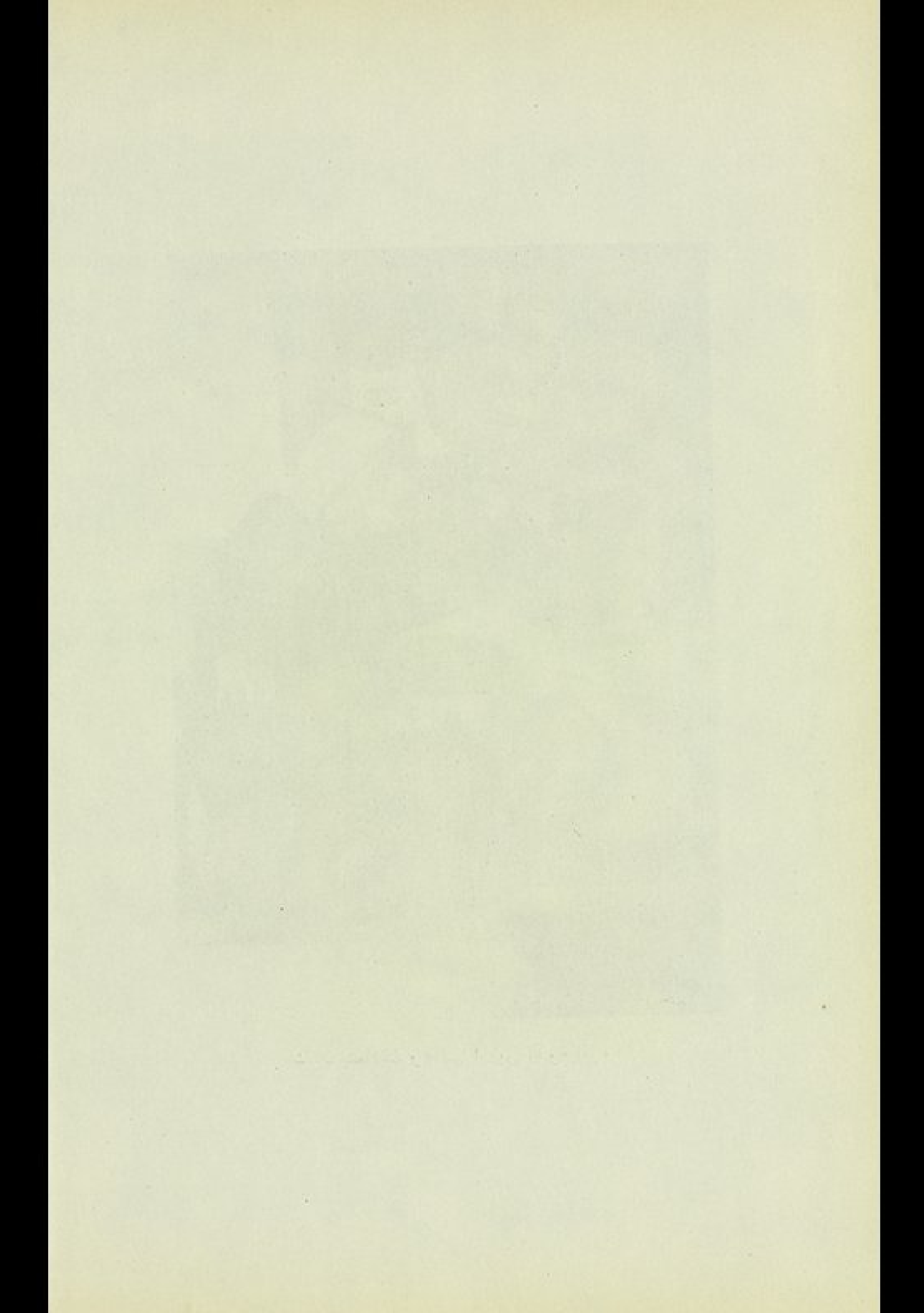


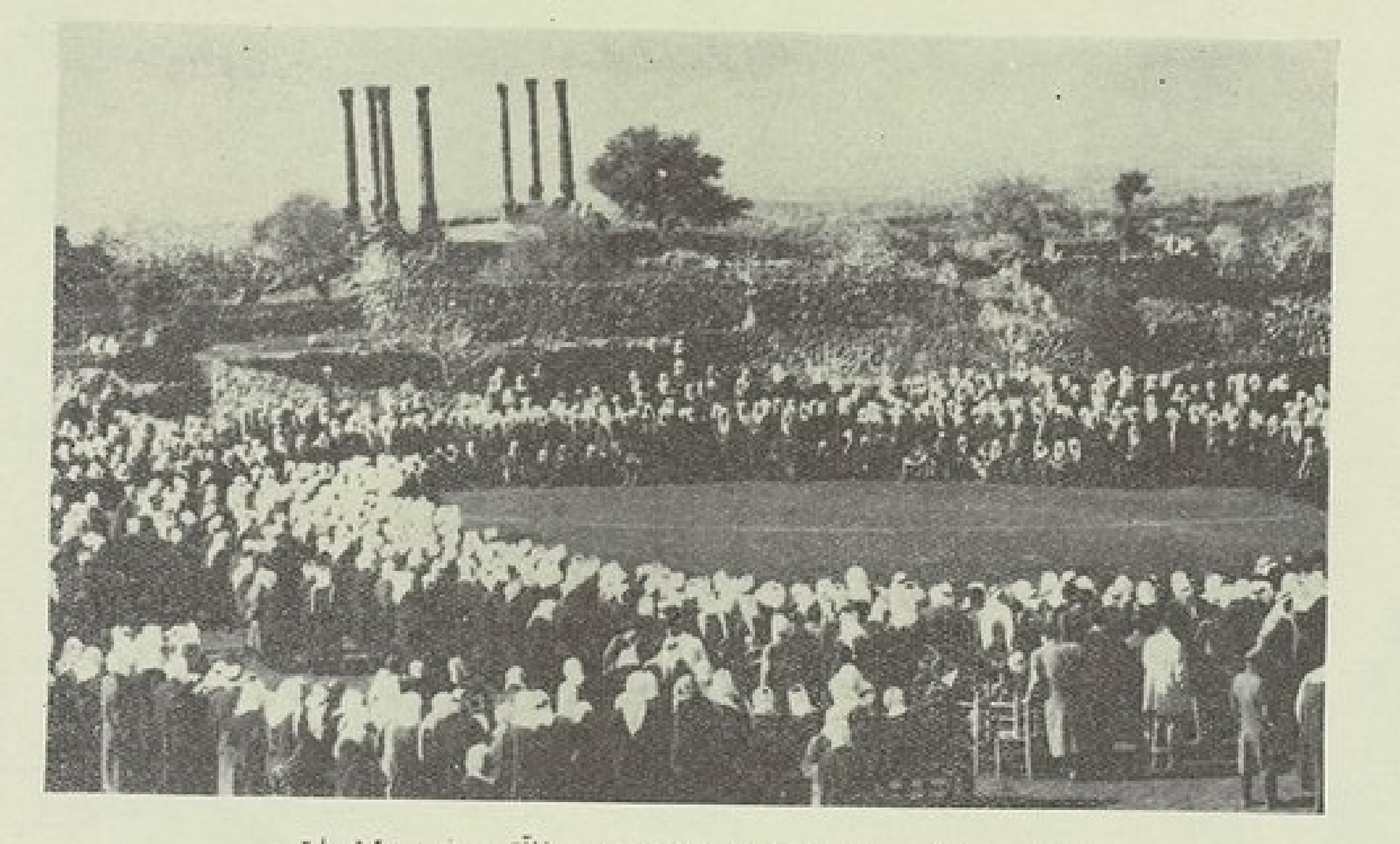
تابع شكل – ١٠ – شيخ يحمس القهوة بالمحماسة وبجانبه جرن القهوة وأباريقها



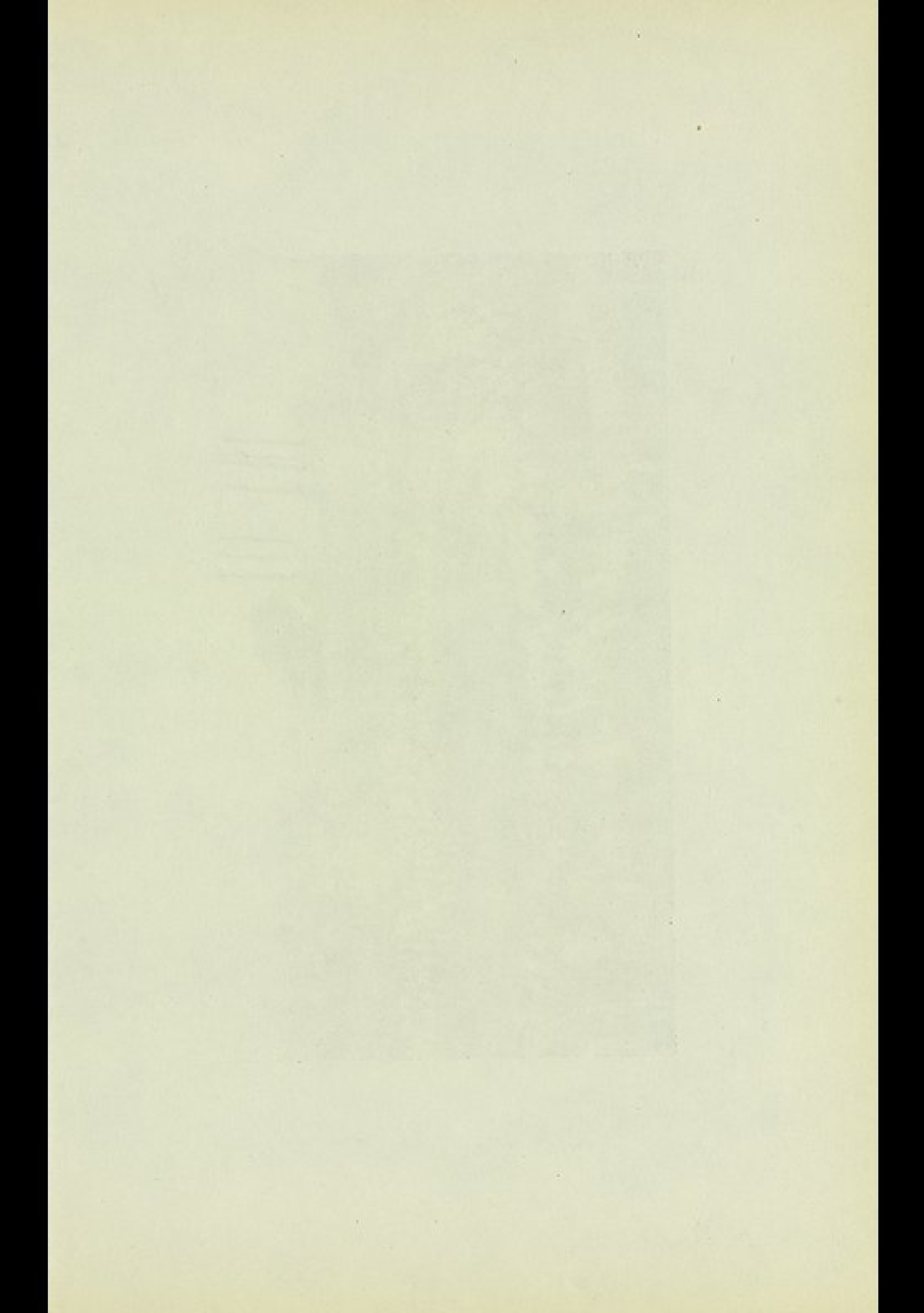


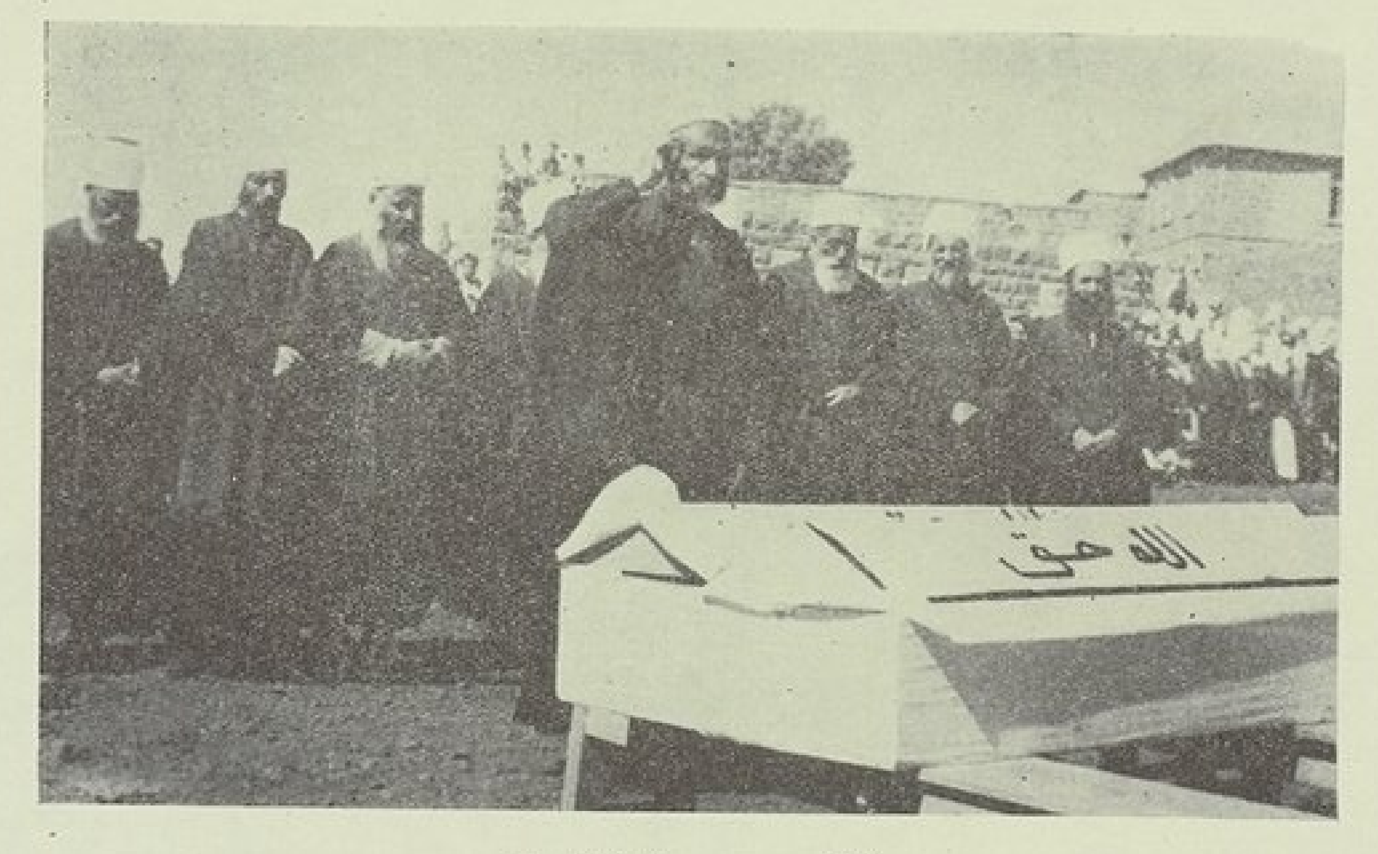
شابان يتحادثان وبجانبها اباريق القهوة المرة



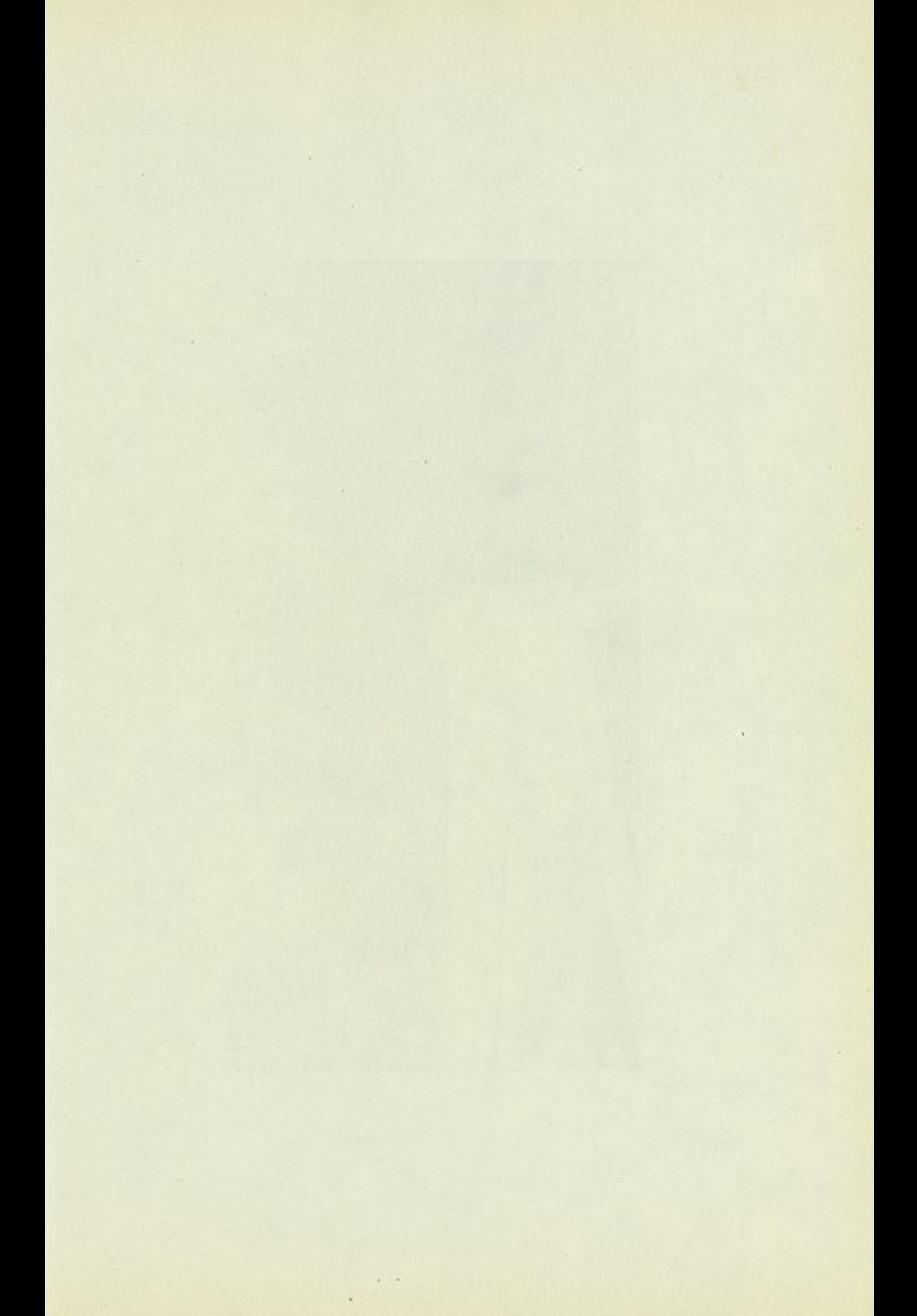


شكل – ١١ – احدى حفلات الاسبوع – المآتم – في قرية قنوات

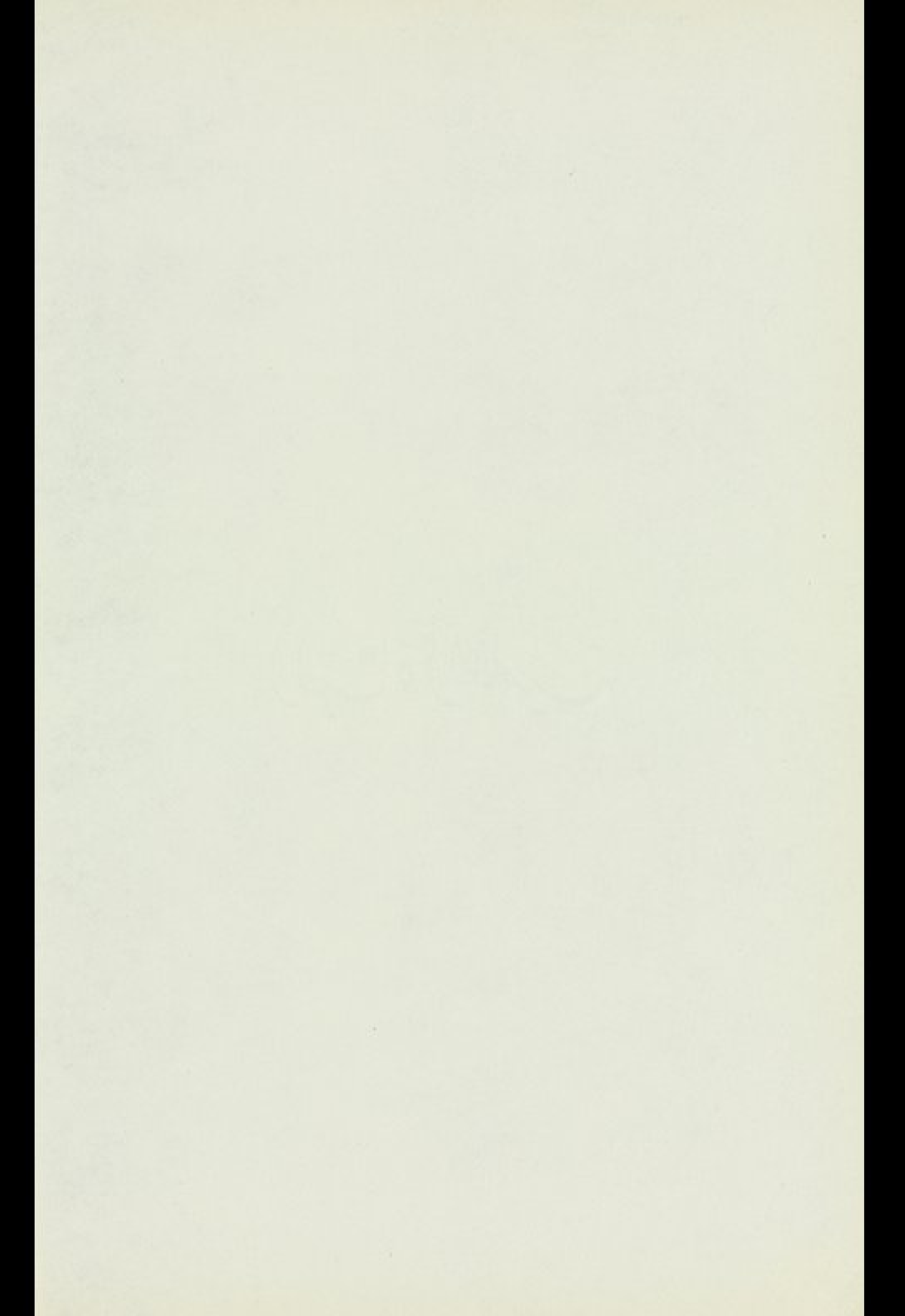




شكل – ١١ – الصلاة على الميت



الحياة العلميّة



استقر بنو معروف في الجبل بعد جهاد طويل ونضال مستميت ، وكان الجبل خالياً قبل قدومهم من السكان المتحضرين ماعدا بعض القبائل البدوية المتنقلة بين ربوعه وأخذوا يتحضرون شيئاً فشيئاً فاهتموا بالتعليم شأن اهتمامهم بمختلف نواحي الحياة الاخرى وساعد على ذلك وجود أهل العلم بينهم خاصة من رجال الدين ومن المهاجرين ذوي الاطلاع والمعرفة .

وكان رجال الدين قديماً يقومون بتعليم الطلاب نصوصاً من المذهب الديني ويعودونهم على الكتابة . ثم انتشرت الكتاتيب في القرن التاسع عشر حيث كانت تدرس فيها بعض مبادىء القراءة والكتابة والحساب وبعض العلوم الدينية . وكان الاقبال قليلا على هذه الكتاتيب وكانت اوراقهم عبارة عن ألواح تنك تطلى بهباب أسود او ألواح حجرية . وكان أهل القرية يقدمون المسكن والطلاب يقدمون الطعام فريضة يومية . وكثيراً ما كانت تساء هذه المهمة .

ومن ناحية الاجرة فقد كانت تجمع في البيدر من الغلال ويكثر فيها الأخذ والرد . وكانت الفوضى تسود في هذه الكتاتيب ويستعمل فيها المعلم قضباناً منها الطويل ومنها القصير حسب بعد الطالب او قربه منه .

وما أطل القرن العشرون وانقلب الحكم الحميدي واستلم الاتحاديون زمام الحكم حتى رأت الدولة العثمانية وجوب استخدام المدارس في الجبل لتهدئة أموره وأحواله لانه لم يهدىء لها بال ولم يرح لها ضمير . ففتحت ثمان مدارس ابتدائية في الجبل ومكتباً اسمه المكتب الرشيدي بالنسبة لمحمد رشاد (محمد الخامس) الذي عين بعد عزل السلطان عبد الحميد ، في السويداء . يتخرج منه الطالب ليلتحق بالمكتب السلطاني في دمشق او مكتب العشائر في استنبول .

وكان التعليم موجهاً ومجانياً لأبناء الزعماء ليكونوا لهم أعوانا ومناصرين في سياستهم الاستعمارية .

انتهت الحرب العالمية الاولى وحدث فيها ماحدث من مؤامرات واتفاقات . انتهت بسقوط سورية تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي . وحاول الفرنسيون ارضاء أهل الجبل . فعينوا أحد أبنائه الامير سليم الاطرش حاكما عليه ففتح ١٣ مدرسة بلغ عدد التلاميذ فيها ٥٥٠ تلميذاً ثم زاد عليها ٣٠مدرسة وكانت غاية الفرنسيين بالدرجة الاولى نشر اللغة الفرنسية . وسلم الفرنسيون ادارة بعض المدارس ويقرب عددها من ١٥ مدرسة الى الآباء اليسوعيين .

وكان التعليم في هذا العهد يتصف بصفة استعمارية رجعية بلاهدف تربوي ، انما يخبط خبط عشواء وتضليل حتى لا يصل الطالب الى نتيجة معينة . وكان نصيب اللغة العربية ضئيلا جداً. انما حظ اللغة الفرنسية كان عظيما وكذلك تاريخ فرنسة وعظمة فرنسة ونابليون فرنسة وانهار فرنسة ومستعمرات فرنسة ومدنية فرنسة . فكان الطالب يعرف عن فرنسا اكثر من بلاده . وكانوا يقولون للطلاب : كل انسان له وطنان وطنه وفرنسة . أما جغرافية بلاده وتاريخها وماضيها وأمجادها فلم يعرها شيء من الاهتمام والعناية . وطبقت الطرق اليسوعية القاسية على التعليم التي تفقد الطالب شخصيته وكيانه . وتخلق جواً عدائياً بين الطلبة بعيداً عن المنافسة المدرسية الشريفة . وقلما كان الطالب يترفع من صفه . فيكبر ويخجل فيترك المدرسة بدون أية ثمرة . او يسعده الحظ فيحصل على الشهادة الابتدائية الدرزية او الفرنسية . وكان النجاح في الشهادات ضئيلا. واما تعليم البنات فقد كان مهملا لدرجة العدم تقريباً وكذلك التعليم المشترك . وعندما يحصل الطالب على الشهادة الابتدائية ينتقل الى المدرسة الاكمالية يقضي الطالب فيها ثلاث سنوات يدرس فيها اللغة الفرنسية درساً واسعاً . وكذلك بقية المواد من تاريخ فرنسا وجغرافيتها الى جانب قليل من العلوم ولا شيء من تاريخ الوطن وجغرافيته وأحواله ... ثم يحول الطالب الى الوظيفة قبل الحصول

على الكفاءة بحجة حاجة المنطقة الى الموظفين من ابناء المنطقة .

على ان الطلاب شعروا بالضغط وبخطر هـذه الطرق التي يستعملها الفرنسيون في التعليم فلم تكن النتيجة كما أرادها المستعمرون وانما كانت عكسية عليهم . فولدت لدى الطلبة روح الكراهية والحقد على الاستعمار والمستعمرين تحييها في نفوسهم أحاديث آبائهم واخوانهم الكبار عن ايامهم معهم في الكفر والمزرعة والمسيفرة والقلعة ورساس ... فأخذوا يناضلون ويناضلون في كل مجـال حتى كانت ثمرة جهودهم وجهود اخوانهم في بقيـة أجزاء سورية الجلاء .

وكان الفرنسيون يستخدمون المعلمين في انحـاء الجبل لتنفيذ غاياتهم الاستعمارية . فكانت مهمة المعلم التعليمية تأتي بالدرجة الثانية اذ كانت له مهام اخرى كالتجسس على الاهلين . فثقل ظلهم واشتطوا في تنفيذ السلطة التي عهد بها اليهم وأصبحوا استعماريين اكثر من المستعمرين انفسهم . وكان اكثر هؤلاء المعلمين من لبنان الشقيق .

وكان الفرنسيون يتوددون الى الأسر الكبيرة في الجبل ويوفدون الى معاهدهم في بيروت ودمشق ابناءها ارضاء للآباء.. وكانت تراقبهم مراقبة شديدة واذا مالمست منهم شذوذاً او تمرداً او روحاً قومية كانت تطردهم نهائياً وتحرمهم من الكراسي المجانية . وقلما كانوا يوفدون احداً من ابناء الشعب . على ان الذين أوفدوا عادوا بروح جديدة قومية ناقمـة على الاستعمار والمستعمرين . ولم تفد كل الجهود التي بذلها الفرنسيون في هذا السبيل . وقـد شعر الفرنسيون بفشل سياستهم التعليمية هذه أمام يقظة الشعب ونقمته المتزايدة ووعيه القومي فراجعت سياستها فقللت من المدارس الرسمية وجعلت المرحلة الابتدائية تسع سنوات بدلاً من سبع وشجعت المدارس الاهلية والمذهبية وأحدثت الشهادة الابتدائيـة الدرزية الى جانب الشهادة الفرنسية . يتقدم الطالب الى الشهادة الدرزية ثم يتقدم الى الشهادة الفرنسية .

وقد حاول الفرنسيون الاعتماد على الرجعية فشجعوا التعليم المذهبي الذي يشبه نظام الكتاتيب في العصور العثمانية وهو نظام يحد من تطور التيار الفكري التقدمي العلمي المتطور .

حصلت سورية على استقلالها بموجب معــاهدة ١٩٣٦ . وكان هذا الاستقلال شكلياً . وتألفت حكومة وطنية وعلى أثرها عاد الثائرون من المهجر وبدأ الاتصال الثقافي مع دمشق وعينت الحكومة الوطنيــة الى جانب المفتش الفرنسي مفتشاً وطنياً لمراقبة سير التربيــة والتعليم وعملت على تطبيق البرنامــج السوري . فخفضت المدة الابتدائية الى خمس سنوات ودرست اللغة الفرنسية في الصف الرابع فقط بمدة ثماني ساعات اسبوعية . وخصصت الحكومة الوطنية بدمشق بعض الكراسي المجانية لأبناء الجبل فى التجهيز والجامعة .

وأما في عهد الشيخ تاج الدين الحسني الذي عينـــه الفرنسيون رئيساً للجمهورية فقد لجأ الفرنسيون الى تطبيق سياستهم التعليمية الاستعمارية فعادوا الى تعليم اللغة الفرنسية في الصفوف كافة وحددوا الاعداد التي يمكن ان تنجح في الشهادة الابتدائية الفرنسية والدرزية . ولم يطل عام ١٩٤٣ حتى اشتــد الاقبال على التعليم . فطبق البرنامج السوري بكامله وأقيمت الحفلات التمثيلية القومية كتمثيل رواية اليرموك والمحاضرات الادبية . وألحقت معارف الجبل بالوزارة في دمشق . وكان الانقلاب ١٩٤٥ ومن ثم جلاء القوات الاجنبية في ١٧ نيسان ١٩٤٥ فخلت المدارس الابتدائية من اللغة الفرنسية وأصبحت تدرس في الصف السادس فقط . وفتحت دار المعلمين بدمشق أبوابها أمام ابناء الجبل فكثر عددهم هناك وازداد التعليم وقضي على المدارس الاهلية والمذهبية وساعد الاستاذ المجاهد المرحوم عثمان الحوراني على نشر التعليم في الجبل فأكثر من عدد المدارس وأوجد اجتماعات دورية للمعلمات والمعلمين تلقى فيها الدروس النموذجية والمحاضرات عن أصول التربية والتعليم . وساعد على نشر تعليم البنات واهتم باتاحـة الفرص امام الطلاب المبرزين وساعدهم على الدخول في دار المعلمين والمعلمات الابتدائية

والتجهيز والكلية العسكرية والجامعة والمعهد العالي للمعلمين والبعثات الخارجية واهتم بالابنية المدرسية وبخلق الروح الطيبة بين افراد أسرة التعليم . فانتشر الوعي القومي بين الشباب المثقف والطلاب وازداد النجاح في امتحانات الشهادات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا وأوجدت روضة للاطفال وأقيمت المهرجانات وأنشئت مدارس ريفية ولم يطل عام ١٩٥١ حتى كانت المتوسطة في السويداء اكبر متوسطة في سورية اذ بلغ عدد طلابها ١٠٨٠ طالباً .

وكان للفترة التي عاشها الجبل اثناء حكم الطاغية اديب الشيشكلي أثرها على الناحية الفكرية والثقافية اذ شرد اصحاب الفكر من المدرسين من أبنائه الى خارج المحافظة وانشغلوا بمقاومة الظلم والافتراءات والارهاب وتعطلت المدارس اثناء العمليات العسكرية لان المدارس هي التي تولت حركة المقاومة فجمدت الحركة العلمية لا بل تأخرت ولوحظ التأخر بقلة عدد الناجحين في فحوص الشهادات ، وما ان انجلت تلك الغمامة حتى عادت الحياة الى مجاريها الطبيعية وأخذ التعليم يسير بخطى حثيثة الى الامام .

الصعوبات التي تقوم بوجه التعليم في الجبل :

ان التعليم في الجبل يواجه مشاكل وصعوبات جمة تعترض طريقه ، منها الفقر الشديد ، وقلة الابنية المدرسية ، اذ ان الفرنسيين بنوا ثلاثين مدرسة على نفقة الاهالي وكلها ابتدائية واما المدارس الثانوية فكلها مستأجرة او في ثكنات عسكرية وحتى الآن لم تشيد مدرسة واحدة سواء ابتدائية او ثانوية في جميع انحاء الجبل . وبهذا الشكل لاتكون هذه الأبنية صالحة لان تكون مدارس من جميع الوجوه التربوية والصحية . وبعد ان تشكلت مصلحة الابنية وأعطيت استقلالاً اداريا وماليا نتأمل الأمل الكبير في تشييد المدارس مع مراعاة الحاجة التعليمية الملحة فيه . وقد تقرر بناء ثانوية واعدادية ودار للمعلمين .

وان الاهمال الصحي ، وصعوبة المواصلات ، وضعف ارتباط القرى بالسويداء .. كل ذلك يجعل التعليم في الجبل بعيداً عن متناول كل فرد .

نسبة التعليم والصعوبات التي يلاقيها الطلاب في سبيل العلم :

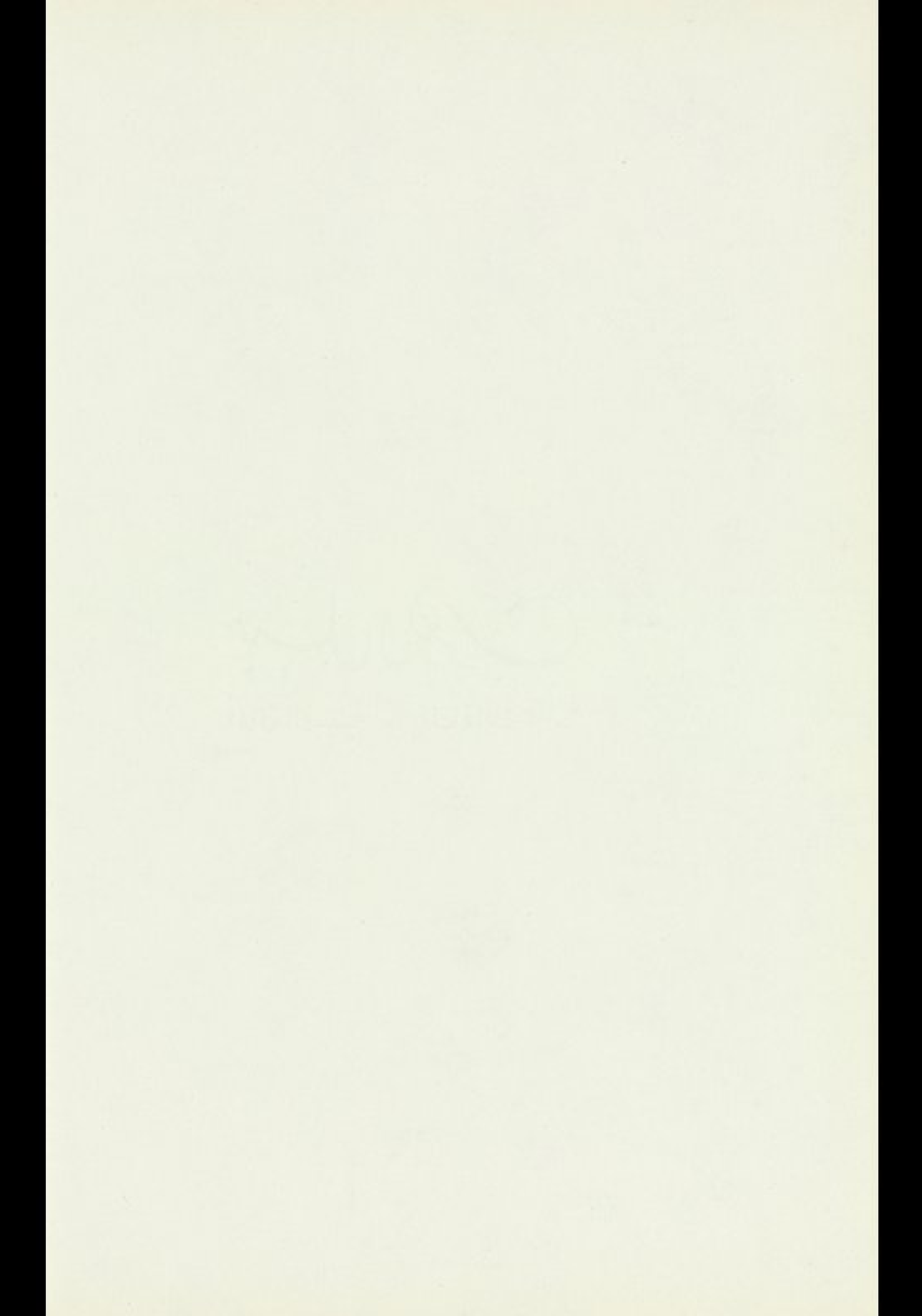
تعتبر محافظة السويداء الآن رسمياً في طليعة المحافظات السورية في نسبة الاقبال على التعليم فعدد القرى في المحافظة ١٣٢ قرية وعدد المدارس ١٧٥ مدرسة وبهذا لانجد قرية واحدة بلا مدرسة . وعدد سكان المحافظة (١٥٠) الف نسمة بينما نجد ان عدد الطلاب (١٧٫٠٠٠) في المدارس الثانوية ودار المعلمين والاعداديات والمدارس الابتدائية فتكون النسبة ١٥٪ بالمائة وهي نسبة مرتفعة جداً. وان نسبة المعلمين الى الطلاب هي معلم واحد لكل ثلاثين طالباً .

ويلاقي هؤلاء الطلاب كثيراً من الصعوبات الاقتصادية التي تجعل حياتهم كفاحاً مستمراً في سبيل الحياة والعلم . ولا تكفي صناديق التعاون لسد شيء من حاجاتهم . ويساعد الراديو والنشرات والصحف على انتشار الثقافة بين اوساط الشعب والطلاب وتقيم شعبة الثقافة والارشاد المحاضرات والندوات المتواصلة ذات الموضوعات المتعلقة بحياة الشعب الاجتماعية والقومية .

وقد حملت مديرية التربية والتعليم أخيراً قسطاً كبيراً من هذه الناحية فأخذت تقيم الندوات والمحاضرات والمساجلات الشعرية في بهوها ، وأخذ الشعب يقبل عليها اقبالا شديداً .

جبل العرب

الحالة الطبيعيّة * الحياة الاقتصادية



لمحة جغرافية :

لابد للتاريخ من ان يبتدىء بالجغرافيا كما لابد للجغرافيا من ان تبتدىء بالتاريخ . ولذلك لا يسعنا إلا أن نبدأ هذا الفصل بلمحة جغرافية .

يقع هذا الجبل في الناحيه الجنوبية من سورية . يحده من الغرب سهل حوران الفسيح . ومن الجنوب سهول شرقي الاردن ومن الشمال يتصل بغوطة دمشق ومن الشرق بادية الشام . وهو كتلة بيضوية الشكل من التلال البركانية تتطاول من الشمال الى الجنوب . وقد اطلق عليه الرحالون الأولون الذين قدموا اليه ودرسوا آثاره اسم « جبل حوران » وهذه تسمية جغرافية صحيحة اذ اننا لانستطيع ان نفصله عن سهل حوران فكلاهما منطقة واحدة ومن أصل جيولوجي واحد . فالسهل سهل حوران والجبل جبل حوران . واطلق عليه « غليوم ري » و « الكونت دو فوغويه » و « بعثة جامعة برنستون الامريكية » والمؤرخان الالمانيان « برونوف ودوماسنوفسكي » ايضاً اسم « جبل حوران » واطلقت عليه تسمية « جبل الدوز » في نهاية القرن التاسع عشر وقد ذكرت في دائرة المعارف للبستاني « ام الرمان قرية في قضاء جبل الدروز وبهام الزيتون قرية في قضاء جبل الدروز لواء حوران » . واما المؤرخان الفرنسيان « دوسو » و « ماكلر » فقد اطلقا عليه اسم « جبل الدروز » في كتاب لهما نشراه عام (١٩٠١) تحت عنوان « رحلة أثرية في الصفا وجبل الدروز » . وشاعت هذه التسمية الاخيرة لاسيما بعد أن تكاثر فيه الدروز وعمروه . وتبدلت اخيراً هذه التسمية فأصبحت « جبل العرب » واول من أطلقها عليه هو الامير عز الدين علم التنوخي الذي شغل مديرية المعارف في هذا الجبل عام ١٩٤٥ وذلك لما لمس من ابنائه من تمسك

بالعروبة ومحافظة على التقاليد العربية . وطغت هذه التسمية الاخيرة .

ويتألف الجبل من مناطق اربعة :

١ = منطقة جبلية .

٢ – منطقة اللجاه .

٣ = منطقة الصفاه .

٤ – منطقة السهل .

المنطقة الجبلية :

تقع هذه المنطقة في الوسط وهي بيضوية الشكل تتطاول من الشمال الى الجنوب ،ومنظرها من الشرق أجمل منه في الغرب لان (الشعاب) الوديان المنحدرة نحو الحماد تعطيه منظراً جميلاً خلاباً . ولا نجد فيه تلك القمم العالية الشاهقة التي نجدها في جبال لبنان مثلا ، انما ارتفاعه بشكل عام قليل . ولا تبرز فيه قمم شاهقة الا قمة القليب التي يبلغ ارتفاعها ١٦٦٩ متراً وتظهر من بعيد كأنها أعلى قمة ولكنها في الواقع ليست كذلك انما أعلى قمة فيها هي « ام حوران» التي يبلغ ارتفاعها ١٨٠٠ مترا . وتتمركز الكتلة البركانية في الوسط . وينتهي الجبل في الجنوب على شكل تلال متفرقة تشبه تل القليب في شكلها وتكوينها وتربتها ومن هذه التلال تل خضر امتان ... وتل رماح الخ ...

واشهر تلال الجبل المرتفعة هي تلال القينة . وسأذكر كلمة عن هذا التل لما له من قيمة أثرية وجغرافية في حياة الجبل ، ويبلغ ارتفاعه ١٨٠٠ متر . ويبدو هذا التل بانه أقل ارتفاعاً من تل القليب . الا انه أعلى منه بمائة متر ونيف . ومن السهل ان نصل الى قمة تل القينة وبصورة خاصة عندما نكون عند الينابيع التي تسمى ينابيع الجينه ، هذه الينابيع التي جرت مياهها الى السويداء .

وبركان الجينه قديم جداً . وتوجد فيه حتى الآن فوهة كانت هي احدى فوهات البركان يتكدس فيها الثلج شتاء وتتجمع فيها المياه

في الربيع . وهناك ايضاً في شمال شرق هذا البركان حفرة طولها ٦٠٠متراً هي اكبر فوهة بركانية يمكننا مشاهدتها في الجبل .

والى الشمال يوجد واد كان السائل البركاني يسيل فيه. يبلغ عرضه ٥٠ متراً وعلى طوله تمتد انتفاخات صخرية (كهوف) ناتجة اما عن اندفاعات قديمة مفاجئة واما عن غليان بركاني . اذ كانت تصيب هذا التل اندفاعات متتالية تتخللها عصور من الهدوء والتفتت البركاني .

ويعود تشكل بقية البلاد وخاصة حول شهبا التي هي النقطة المركزية لآخر ثوران بركاني الى تبرد السوائل البركانية المفاجيء والهزات الارضية التي رافقتها والزلازل الارضية التي حدثت في سوريا .

واشهر التلال الموجودة في الشمال هو تل شيحان الى الغرب من مدينة شهبا . ويرتفع الى تل شعف الى ١٦٠٠ مترا في الجهة الشرقية .

هـذا الجبل على العموم صعب المرتقى رغم ان ودیانه قليلة الانخفاض وهضابه قليلة الارتفاع . وتعود الصعوبة الى كثرة الحجارة البازلت السوداء التي قذفتها فوهات الجبل البركانية اثناء ثورانها ، اذ اننا قلما نصادف قمة لم تكن فيها فوهة بركان ، ففوهة بركان القليب الكبير وهي القمة العالية والقليب الصغير وهي النشز الغربي منه . وكذلك تل أبي قاسم (الجينه) وشيحان ...

المقذوفات البركانية

وقد قذفت البراكين الحمم والحجارة والدخان ومـــا زالت الحجارة البازلت السوداء شاهدة على ذلك . وما اللجاه الا حمما قذفتها افواه البراكين في الجبل وغطت هذه المنطقة الواسعة الواقعة بينه وبين دمشق وتشققت بعد ان تبردت واصبحت ملاجيء التجأ اليها السكان وقت الحاجـــة ، الحضر والبدو على السواء وليست هذه المنطقة معدومة المياه انما توجد فيها بعض الينابيع التي يعرف السكان موقعها ويصعب على الغازي معرفتها .

وتحيط بهذه المنطقة القرى الصغيرة. وداخلها ليس محروماً من القرى انما

توجد هنا وهناك بعض الآثار القديمة مما يدل على ان الانسان قد تحدى الصحراء بتدمر وتحدى اللجاه بهذه القرى وبالطريق الطويلة المستقيمة التي تشق اللجاه بشكل غريب وباستقامة مدهشة رغم الصخور والصعوبات .

واذا ماقدمت منطقة حران والكفر وجدت القنابل البركانية . وهي الحجارة الكروية الشكل او بالاصح الاهليلجية الشكل كالقنابل . ومـا زال ركام الدخان موجوداً بالقرب من شهبا اسود اللون يستعمله الاهلون في بنـاء بيوتهم ممزوجاً بالاسمنت او مفروشاً في الطرقات . **واما التربة الحمراء** التي تغطي حوران الى القرب من دمشق شمالا وتمتد الى شمال شرقي الاردن جنوباً فان هي الا صخور بركانية متفتتة قذفتها فوهات براكين الجبل اثناء ثوراتها .

وهي تربة حمراء خصبة جداً تصلح للزراعة بشكل ممتاز ، انما تنقصها المياه الوفيرة فلو توفرت المياه لغدت اخصب بقعة في العالم وهاهي الآن اخذت تتبوء مركزها اللائق بها واشتهرت بالحبوب في حوران وبالفاكهة وبصورة خاصة العنب في الجبل .

واهم الوديان التي تتوزع من الجبل هي وادي اللواء في الشمال وتتمركز عليه اكثر قرى المنطقة الشمالية ووادي الزيدي وهو رافد هام لنهر اليرموك وتتمركز عليه اكثر قرى الساحل الغربي ووادي راجل وتتمركز عليه اكثر قرى المنطقة الجنوبية .

والسهول بالمعنى السهلي الصحيح مفقودة في الجبل ،ويجد السكان صعوبة كبيرة في الحصول على ارض صالحة لزراعة الكرمة والاشجار المثمرة اذ ان الاراضي ملأى بالحجارة وتحتاج الى تنظيف . وهذه الحجارة تفيد الارض اذا ما بقيت فيها لانها تحتفظ بالرطوبة الى فصل القيظ شديد الحرارة .

واما المنطقة الشرقية فهي منطقة سهوب تصلح للرعي وللزراعـة **اما منطقة الصفا** فهي منطقة جرداء قاحلة صحراوية كانت فيما مضى كما تـدل

الآثار خصبة وفيها تلول بركانية كثيرة وأهم قراها الزلف والنماره وقد وجد في هذه الاخيرة كتابة عربية تعود الى امرىء القيس «تقول هذا قبر امرىء القيس ملك العرب» وقد نقلت هذه الكتابة الى متحف اللوفر في فرنسا لما تتمتع به من قيمة اثرية وتاريخية .

المناخ

اما مناخ الجبل فهو جبلي اي معتدل الحرارة صيفاً وشديد البرودة شتاء ويختلف السفح الغربي عن السفح الشرقي وتكون فيه الفصول واضحة كل الوضوح الا ان الشتاء والصيف يطولان اكثر من ثلاثة اشهر . فالشتاء يمتد من اواخر الخريف الى اوائل الربيع وكذلك الصيف يمتد من اواخر الربيع الى اوائل الخريف .

يميل السفح الغربي الى الاعتدال شتاء بينما يميل السفح الشرقي ميلاً شديداً الى الاقليم الصحراوي الذي يؤثر عليه فيجعله شديد الحرارة صيفاً وشديد البرودة شتاء .

الرياح : تهب عليه الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية والجنوبية الغربية وتكون هذه الاخير محملة بالامطار شتاء لانها تأتي من البحر الابيض المتوسط وتمر فوق جبال منخفضة فتبقى مشبعة ببخار الماء . اما الرياح الشمالية الغربية فتمر فوق جبل الشيخ ذي الارتفاع الشاهق فيحجر الامطار وكذلك عندما يرى سكان الجبل جبل الشيخ يتكلل بالثلوج تحصل لديهم القناعة بان الامطار ستكون لديهم القناعة بان الامطار ستكون لديهم قلة وبالتالي القحط لا بد واقع .

وتهب عليه الرياح الشمالية الشرقية الآتية من سيبريا شتاء فتكون شديدة البرودة بينما تهب عليه الرياح الشرقية في الربيع والصيف فتكون محرقة حارة جافة تحرق المزروعات .

ويكون الجبل في الصيف مركزاً لتوزيع الرياح فتهب بعد ظهر كل

يوم الرياح الغربية على القرى الموجودة على السفح الشرقي بينما تكثر الرياح الشرقية على القرى الغربية .

واما الامطار : فهي تكثر في بعض السنوات وتقل في بعض السنوات الاخرى . وبما ان الزراعة تعتمد على الامطار لذلك تكون بين مــد وجزر ويكون معدل الامطار بين ٢٥٠-٤٠٠ ملم ويصل الى ا ٥٠٠ ملم في أعـالي الجبل . ويكون الشتاء قارساً كثير الثلوج والعواصف الثلجية . وتتصرف المياه بواسطه وديان أهمها وادي « اللوا » شمـــالا و « الزيدي » غربا و « راجل » جنوبا . وتقل الينابيع ولذلك يكون الجبل فقيراً بالمياه السائلة . على ان المياه الجوفيه متوفرة ولكنها تحتاج الى جهود لحصرها واسالتها . وكانت هذه الينابيع مفجرة في العصور الماضية وكان الجبل في العصر الاموي مكسواً بالغابات وكانت امطاره اكثر ولذلك اطلق عليه اسم « الجبل الريان » وتغزل به شعراء العصر الاموي امثال جرير بقوله :

ياحبذا جبل الريان من جبل	وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانيـــة	تأتيك من قبل الريان أحيانا

ويؤثر المناخ على السكان في هذه المنطقـة فيجعل منهم شعبا قويا صلباً يحب الحرية ويحارب كل من يحاول الاستيلاء على وطنه . وتنقسم الحياة في الجبل الى نوعين :

١ – الحياة الريفية وهي تعتمد على الزراعة بالدرجة الاولى وعلى التجارة بالدرجة الثانية وقليلا على الصناعات المحلية .

٢ – الحياة البدوية وتعتمد على الرعي والتنقل . وتسكن الجبل قبائل بدوية متنقلة كثيرة .

وتتشابك العلاقات بين البدو والحضر . اذ ان البدو فقراء بشكل عام والحضر اغنياء نسبياً ولذلك يتعهد البدو مواشي الحضر لقاء اجور معينة ويستخدم الحضر جمالهم في اوقات الحصاد واوقات الحاجة اليها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة

مقدمة عامة

يعتمد الجبل اعتماداً كلياً على موارد الارض شأنه في ذلك شأن سائر البلاد ويعود السبب الرئيسي في ذلك الى توفر الشروط الاساسية الضرورية لنمو النبات وهي المناخ والتربة والمياه .

والمناخ السائد هو مناخ جبلي أمطاره شتوية بالدرجة الاولى وتهطل بعض الامطار الربيعية والخريفية . ويتميز بوجود فصل جاف وحار هو فصل الصيف .

وأما المياه فهي قليلة فيه وكذلك الينابيع وأهمها ينابيع عين بدر وحبكة غير ان مياه الجبل كما يقول « دوبرتوبه » لا يعثر عليها في الجبل نفسه الا بالصدف لطغيان الطبقة البازالتية وتفاوت سماكتها فوق الطبقة الكتيمة . وتغيب المياه فيه لتظهر في سفوحه البعيدة مثل الازرق والاصفر في الاردن . واما التربة فهي صالحة للزراعة بشكل ممتاز للحبوب من جهة وللاشجار المثمرة من جهة ثانية وهي تربة بركانية حمراء لا تحتاج الى كثير من التعب حتى تثمر وتنتج ولذلك كان الجبل منذ أقدم العصور جبلا مثمراً تغنى به الشعراء أمثال جرير كما مر معنا بقوله :

ياحبذا جبل الريان من جبل	وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية	تأتيك من قبل الريان أحياناً

وجبل الريان كما تؤيد ذلك القصص والاحاديث القديمة هو جبل الاشجار المثمرة كما تدل على ذلك بقايا الاشجار المبعثرة هنا وهناك من انحائه المتفرقة . وكما تدل اسماء القرى التي مازالت تحتفظ باسمائها القديمة مثل ام الرمان، ام الزيتون، تل اللوز . . . أقول : ان جبل الريان هو جبل الكرمة . ولازلت أذكر

قصة رويت عن الجبل من ان احد الملوك أراد ان يغزو هذه المنطقة أرسل عيونه تستطلع اخبار البلاد . فطافوا في أرجائه ولم يجدو برهانا يدل على غنى المنطقة الا عنقود عنب حملوه على عصا طويلة كما يحمل عنقود الموز . ودخلوا عليه . فلما رأى الغازي هذا الثمر طمع في فتح البلاد الا انه خاف قائلاً: « اذا كانت هذه ثمارهم فكيف تكون سواعدهم » .

ان الجبل بامكانه ان يسكن اكثر من نصف مليون نسمة . فاذا ما اعدنا القرى المخربة الى الحياة وملأناها بالسكان كما كانت لاحتاجت الى كثير من البشر .

الاراضي الزراعية في الجبل

تشتمل الاراضي الصالحة للزراعة في الجبل حوالي ثلث المساحة العامة على ان الاراضي التي تزرع فعلا لا تتجاوز نصف هذه المساحة . وهذا معناه ان قسما كبيراً منه يبقى معطلا عن الانتاج . وقد بقي السكان زمناً طويلا لا يهتمون الا بزراعة الحبوب من قمح وشعير وقطاني . الا ان الجهود اليوم متجهة لتحسين شروط زراعة الانتاج المتعلق بزراعة الاشجار المثمرة مثل الكرمة والتفاح والزيتون وبقية الاشجار المثمرة .

الزراعة والزراعة متأخرة في الجبل وسبب هذا التأخر يعود الى عدة عوامل . اما العامل الاول فهو اعتماد السكان على الزراعة البعلية ، ان مناخ الجبل يعرف بتقلباته الفجائية بين عام وآخر وبين مراحل العام نفسه ولهذا فان المواسم الزراعية تتبع هذه التقلبات . فأحياناً تكون جيدة . وذلك حينما تكثر الامطار وأحيانا تكون سيئة وذلك حينما تقل الامطار . زد على ذلك ان الفلاح لا يحصل الا على موسم واحد فقط وموسم ضئيل من اثمار الاشجار والحبوب .

وما زال الفلاح يستعمل الادوات الزراعية القديمة كالمحراث القديم تجره الثيران والبغال والحمير . ويستخدم يده في الحصاد وبذلك يصرف جهوداً جبارة بمردود ضئيل .

والطرق في الجبل سيئة اذ ان السيارات لا تصل الى جميع القرى وبالتالي الى المناطق الصالحة لزراعة الكرمة وغيرها . على اننا نشاهد في الوقت الحاضر نشاطاً تبذله الدولة في ايصال الطرق الى جميع نواحي الجبل لتسهيل السير من جهة وتسهيل تصريف المنتوجات الزراعية من جهة ثانية .

وأما ملكية الارض فقد أصبحت ، بعد قيام « العامية » في نهاية القرن الماضي وتقسيم الاراضي على الفلاحين أحسن مما هي عليه في بقية نواحي سورية اذ تسود فيه الملكية الصغرى . وهناك كثير من السكان لا يملكون شيئاً وهم يؤلفون طبقة خاصة هي طبقة « المرابعين » الذين يعملون في الاراضي مقابل ربع المحصول كاجرة لهم ، مع مؤنة من صاحب الارض . على ان هذه الطبقة قد تركت القرى في الوقت الحاضر وذهبت الى المدن لتعمل . لان العمل في المدينة يدر عليها انتاجاً اكبر من الانتاج الزراعي . وبذلك صارت تعود الى القرى ومعها الاموال وتشتري اراضي اصحاب الاملاك وهكذا نرى ظروف الحياة تتغير والاراضي تنتقل من أيدي الاغنياء الى ايدي الفقراء ويمكن للزراعة ان تتحسن اذا ماتوفرت لها الشروط التالية :

اذا وجدت المياه التي تكفي لري الاراضي الصالحة للزراعة المحرومة من المياه لأن تأمين المياه للزراعات الصيفية ، في فصل الصيف الجاف الذي يمتد على اكثر من خمسة اشهر ، يفيد في زيادة الانتاج ، والحصول على اكثر من موسم واحد . وان ايجاد المياه اللازمة يكون بجر مياه العيون من جهة واستخراج المياه الجوفية من جهة ثانية عن طريق حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود .. على ان نصيب الجبل في الوقت الحاضر من هذه المشاريع وافر جداً اذ ان اكثر القرى اصبحت تشرب مياه الينابيع المجرورة اليها بواسطة القساطل ومشاريع جر المياه في الجبل عديدة منها مياه حبكة لقرى المنطقة الجنوبية ، ملح ، الهويا ، قيصما ، ومياه عين بدر لصلخد ومنطقتها ، ومياه الفجفيات الى عرمان ، وحفرت الآبار في المنطقة الشمالية .

على ان سكان البلاد القدماء قد لجأوا في العصور الرومانية الى استخدام جميع الوسائل لتأمين المياه لشربهم ومزروعاتهم فحفروا الاقنية واستخرجوا المياه . وما زالت آثار مشاريعهم ماثلة للعيان حتى الان وما زالت آثار الاقنية تدل على تلك الجهود الجبارة التي بذلوها في سبيل تأمين حياتهم . فقد كانت في المنطقة شبكة صالحة لارواء جميع القرى من الينابيع . غير ان هذه المشاريع تحتاج الى جهود جبارة من جهة والى اموال من جهة ثانية .

واستخدام الآلات الحديثة من تراكتورات وما الى ذلك يوفر على السكان كثيراً من الجهد والوقت . وقد اكتسحت تراكتورات فيركوسون هذه المنطقة.

ومد الطرق الى جميع القرى وجميع اراضي القرى يساعد كثيراً على نقل المحصولات الى المدن وهذا مايزيد الثروة العامة ويرفع من مستوى الفلاح من جميع النواحي .

وسيكون لتشكيل الجمعيات التعاونية الأثر الفعال في النهوض بمستوى الفلاح الاقتصادي وبالتالي الاجتماعي .

وأما كمية الانتاج الزراعي فانها تتفاوت من عام الى آخر بسبب طبيعة المتقلب وكمية الامطار وشدة الرياح واهم الحاصلات الزراعية هي :

الحبوب واهمها القمح وهو الزراعة السائدة في كافة المناطق ويزرع في الاراضي الغنية والشعير ويزرع في الاراضي الفقيرة . والذرة والفول والحمص والعدس والجلبانة والنعانه ولا يكون الموسم الصيفي حسناً الا اذا ارتوت الاراضي في شهر كانون الثاني . ولا يكون الموسم الشتوي ايضاً حسناً الا اذا ارتوت في نيسان .

وتزرع فيه البندورة والكوسى والبصل والتوم .

واهم الاشجار المثمرة هي « **الكرمة** » وتزرع في جميع نواحي الجبل بوجه التقريب وبشكل خاص في الجنوب والغرب واشهر القرى التي انعشتها

زراعة الكرمة هي سهوة الخضر ومياس والسويداء وصلخد التي تعيـــد الى الاذهان ذكرى الخمرة الصرخدية التي اشتهرت بها لدى عرب الجزيرة في العصور العصور الماضية .

كان سكان الجبل يصنعون الزبيب والدبس بكميات كبيرة تستهلك في المنطقة وتباع للبدو . اما في الوقت الحاضر بعد ان تحسنت المواصلات واصبح بامكان السيارات الوصول الى الكروم اصبح السكان يبيعون العنب الى شركات و « ضمانين » من دمشق واصبح عنب الجبل الذي يعتبر في الطليعة بين عنب الشرق يباع في جميع مدن الجمهورية العربية السورية بعدما يكون موسم عنب المناطق الداخلية مثل دوما وداريا وغيرها قد انتهى . واصبح يصدر الى البلاد العربية الاخرى .

ويصنع السكان كثيراً من النبيذ يستهلكونه في بيوتهم .

علماً ان هذه الثروة لو احسن استغلالها بتأسيس شركة تعارنية لتقطير العنب في نفس المنطقة لتحسنت زراعة الكرمة وبقية الاشجار المثمرة ولزادت ثروة البلاد من جهة ثانية .

وأما التفاح فقد بدأت زراعته في الجبل مجدداً وكانت التجربة التي قام بها سليمان ابو سعدي من السويداء ناجحة جداً اذ اعطى بستانه الذي انشأه في « الجبل » كميات هائلة وانواعاً جيدة غير منتظرة . ولا بد للجبل من ان يكتسح الاسواق باثماره في المستقبل اذا احسن استغلاله واستثماره . ويصبح بالامكان الاستغناء عن التفاح اللبناني بعد سنوات لا تتجاوز اصابع اليـــد . وهناك اشجار كثيرة مثمرة كاللوز والتين والاجاص والمشمش والسفرجل . وبدأت كذلك زراعة الزيتون مجدداً في الجبل .

وقد اقيم في السويداء عام ١٩٥٩ معرضاً للعنب عرضت فيه جميع انواع الاثمار كانت موضع الدهشة والاعجاب .

ولا نستطيع الان نأتي على ذكر الاحراج في الجبل. كانت غابة بازان

« باشان » تغطي معظم سفوح الجبل وهي مشهورة في التاريخ القديم و كثيراً ماورد ذكرها في الثورات . الا اننا مع الاسف الشديد لا نعثر منها الا على بقايا قليلة تمتد على سفوح الجبل من الناحية الغربية عملت فيها يد الانسان والحدثان على مر العصور واشدها فرق الحكم العثماني فقطعت اكثر الاشجار واهملت العناية بالاشجار المثمرة واصبحت القرى التي تحمل اسماء الاشجار المثمرة اسماً بلا مسمى عارية جرداء من اي نوع من الاشجار . كأم الزيتون وأم الرمان وتل اللوز . . .

وكثير من القصص التي لا يكاد الخيال يصدقها يرويها المسنون من الذين قدموا الجبل بانه كان غابة خضراء من أقصى الشمال الى اقصى الجنوب ومن اقصى الغرب الى اقصى الشرق . وان عصور الفوضى والاضطرابات السياسية هي التي اودت بحياة هذه الاشجار . فقطعت الاشجار وندرت الامطار لأن الامطار تهطل في المناطق كثيرة الاشجار .

ولذلك تمكن اعادة الحياة الى الجبل بتشجيره ومنع السكان من قطع اشجاره الطبيعية

وتسود المراعي في اكثر نواحي الجبل وتربى فيه كثير من المواشي . يعيش البدو في البادية ويأتون اليه في أول الربيع حتى اواخر الخريف بغنمهم وابلهم وماعزهم وترعى مواشيهم ومواشي سكان المنطقة في المراعي من من جهة وفي الاراضي الزراعية بعد الحصاد من جهة ثانية . وتربى الخيول في الجبل والابقار منها للحليب ومنها للفلاحة ويقتني السكان كثيراً من الدواجن كالدجاج والاوز والبط والحبش ويؤلف الدجاج الى جانب الغنم والماعز الثروة الحيوانية العظيمة في الجبل من جهة اللحوم والالبان والبيض من جهة ثانية .

اشهر القرى التي تتمتع باشهر المحاصيل .

١ — السويداء : العنب والتفاح .
٢ — صلخد : العنب .
٣ — قنوات : التين
٤ — العجيلات : الحمص
٥ — ملح وامتان : القمح

الصناعة

ان الصناعة في الجبل ابتدائية جداً شأن بقية المناطق الريفية في سوريا وذلك يعود الى طبيعة البلاد وقلة المواد الخام الموجودة فيه واكثرها زراعية وحيوانية واهم هذه المواد الاولية الحبوب والاشجار المثمرة والصوف . واما الصناعات المعدنية فمعدومة ما عدا بعض صناعات منزلية . وهناك مواد اولية كالحليب ومشتقاته . والصوف يباع الى الخارج او تصنع منه الفرش او الجرابات والكنزات والاكف والسجاد على شكل واسع . اما القوة المحركة في الصناعة فهي اليد العاملة فقط .

واهم الصناعات هي غزل الصوف وصنع السجاد ،اذ تشتهر قرى الجبل بصنع السجاد وقد قدمت الى المعرض الذي اقامته مديرية التربية والتعليم في السويداء ١٩٥٨ - ١٩٥٩ عدداً من السجاد لا يفوقه السجاد العجمي بشيء ويحتل التطريز اليدوي مكانة مرموقة بين الصناعات .

واما صناعة القش والاطباق فقد تفنن نساء الجبل بهذه الصناعة وهي تعبر عن ذوق ومهارة ودقة في الصنع .

وكانت المطاحن المقامة على مجاري المياه هي السائدة في الجبل غير ان ماكينات ديزل حلت محلها في الوقت الحاضر واصبحت كل قرية لا تخلو من مطحنة . وتحتل صناعة الدبس مكانة مرموقة بين صناعات الجبل واكثرها في قرى المنطقة الجنوبية غير انها خفت في الوقت الحاضر لأن السكان اخذوا يصدرون العنب الى داخل البلاد وبأسعار مناسبة .

وتحتل الكفر المكانة الاولى بصنع النبيذ ونجد في صلخد معملاً صغيراً لصنع العرق وبذلك تبقى صلخد مشهورة في خمورها التي طالما تغزل بها العرب الاولون . واما الصناعات الرعوية فهي تقتصر على صناعة الالبان ولكن بشكل

ابتدائي فهي بحاجة الى خبرة فنية فيصبح بالامكان صنع سمن وجبن على انواع جيدة .

وهناك صناعات معدنية بسيطة مثل صنع النحاس اذ نرى النحاسين منتشرين في كل قرية لاصلاح الادوات النحاسية وصنع بعض الادوات الاخرى.

كما اننا نرى في الجبل مقالع كثيرة للحجارة التي توفر كثيراً على اصحاب المنشآت فهي كثيرة وليس هناك شيء اكثر منها وقريبة . الا ان الاتجاه الحديث في البناء يتجه نحو استعمال الاسمنت دون الحجارة .

ونرى لدى البدو بعض الصناعات الابتدائية كنسج الصوف والشعر لصنع الخيام والعباءات والعدل والعقل .

وتعتمد التجارة في الجبل على الاستيراد من دمشق بالدرجة الاولى فهو يستورد كثيراً من الاشياء ويصدر اليها الحبوب والاثمار كالكرمة والتفاح والمواشي والاصواف . ولذلك كانت قوافل قرى الجبل ترد دمشق كما كانت قوافل قريش ترد الشام صيفاً واليمن شتاء تذهب محملة بالحبوب وتعود محملة بالبضائع والخضار .

الهجرة

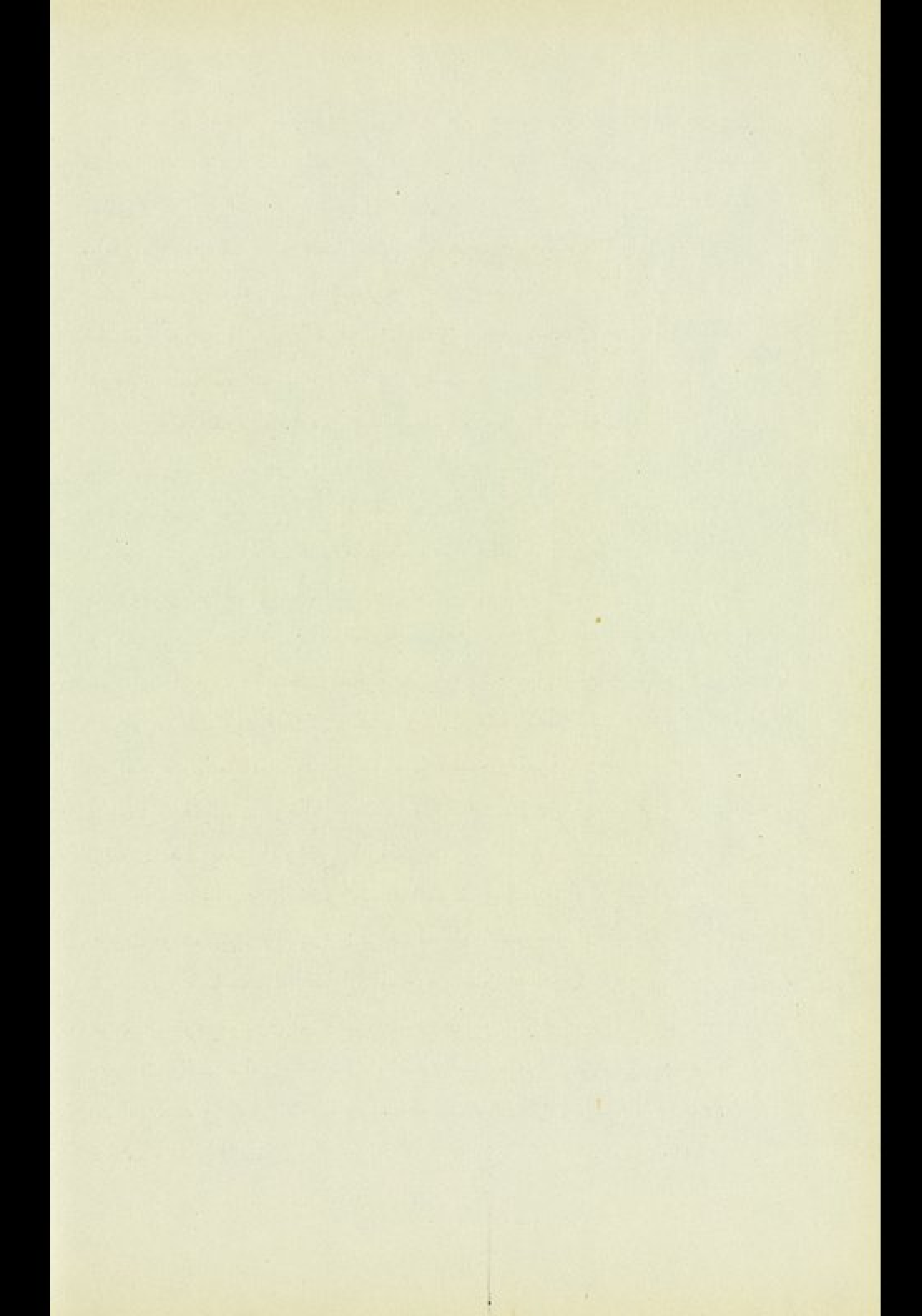
والهجرة من المواضيع التي تستحق الدراسة والبحث الدقيق في الجبل لانها غيرت وجه الحياة فيه . سواء الحياة الاجتماعية او الاقتصادية لابل تعدت ذلك فأثرت على الناحية الفكرية فطبعتها بطابع خاص ، بطابع حب المغامرة والسفر الى أقصى بقعة من بقاع الكرة الارضية. وتقسم الهجرة في الجبل الى نوعين:

الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية .

أما الهجرة الداخلية فهي من الجبل الى لبنان ودمشق وعمان وبصورة خاصة الى بيروت للعمل حينما تكون الظروف الاقتصادية سيئة في الجبل .

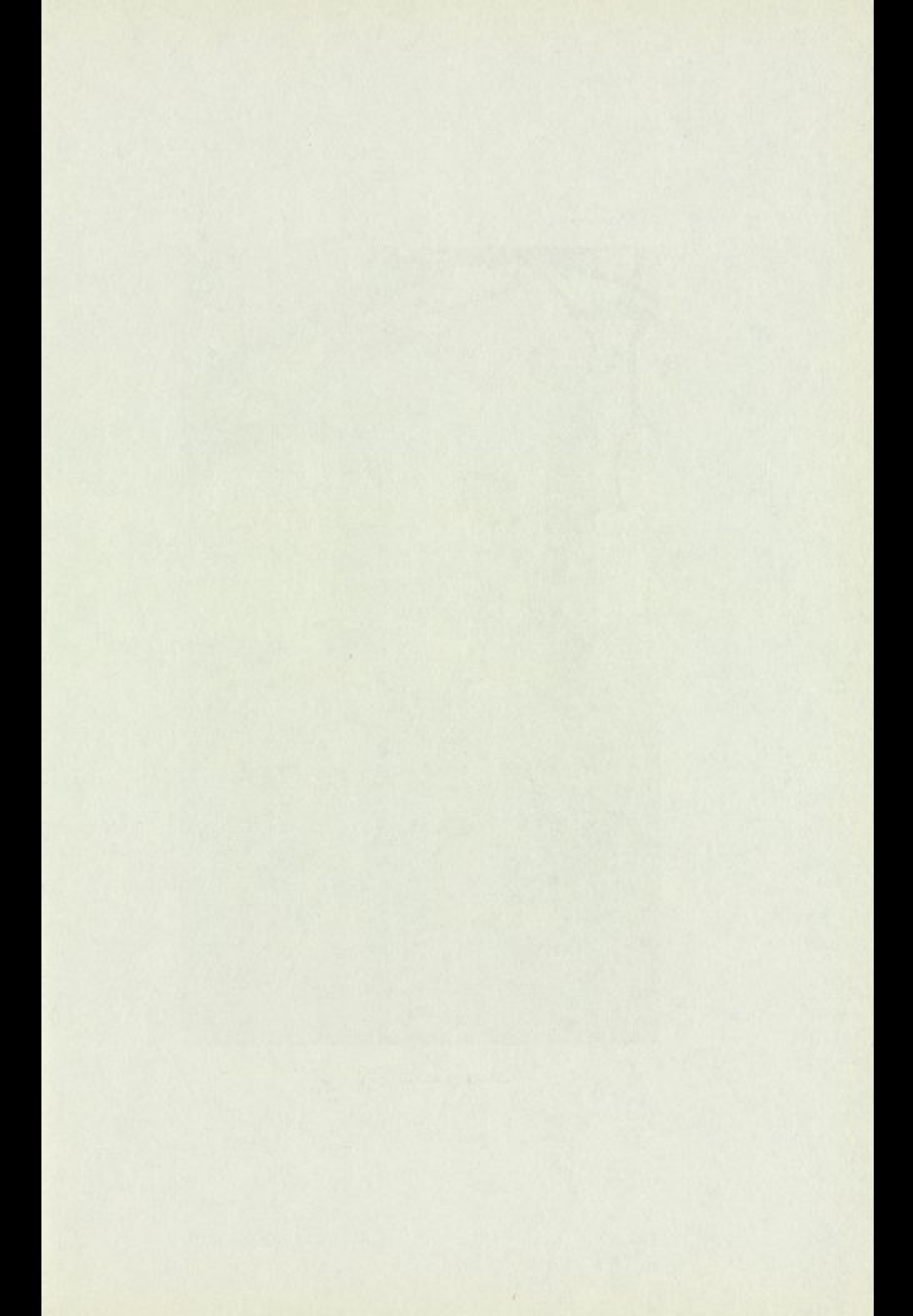
واما الهجرة الخارجية . فهي الى العالم الجديد او الى العالم الخارجي بشكل عام . وتمتد هذه الهجرة على فترتين . اما الفترة الاولى فهي فترة العهد العثماني والفرنسي اذ هاجر كثيرون من ابناء الجبل الى دول امريكا الشمالية والجنوبية وافريقية . اما طلباً للعيش واما هرباً من الجندية الاجبارية (القرعة) فكانوا يفضلون الذهاب الى المهجر وما كان ابعد المهجر على ان ينخرطوا في الجندية ويحاربوا في بلاد لايعرفونها . اما في مقبرة الاناضول ، واما في البلقان ، يخدمون قضية غير قضيتهم ووطناً غير وطنهم .

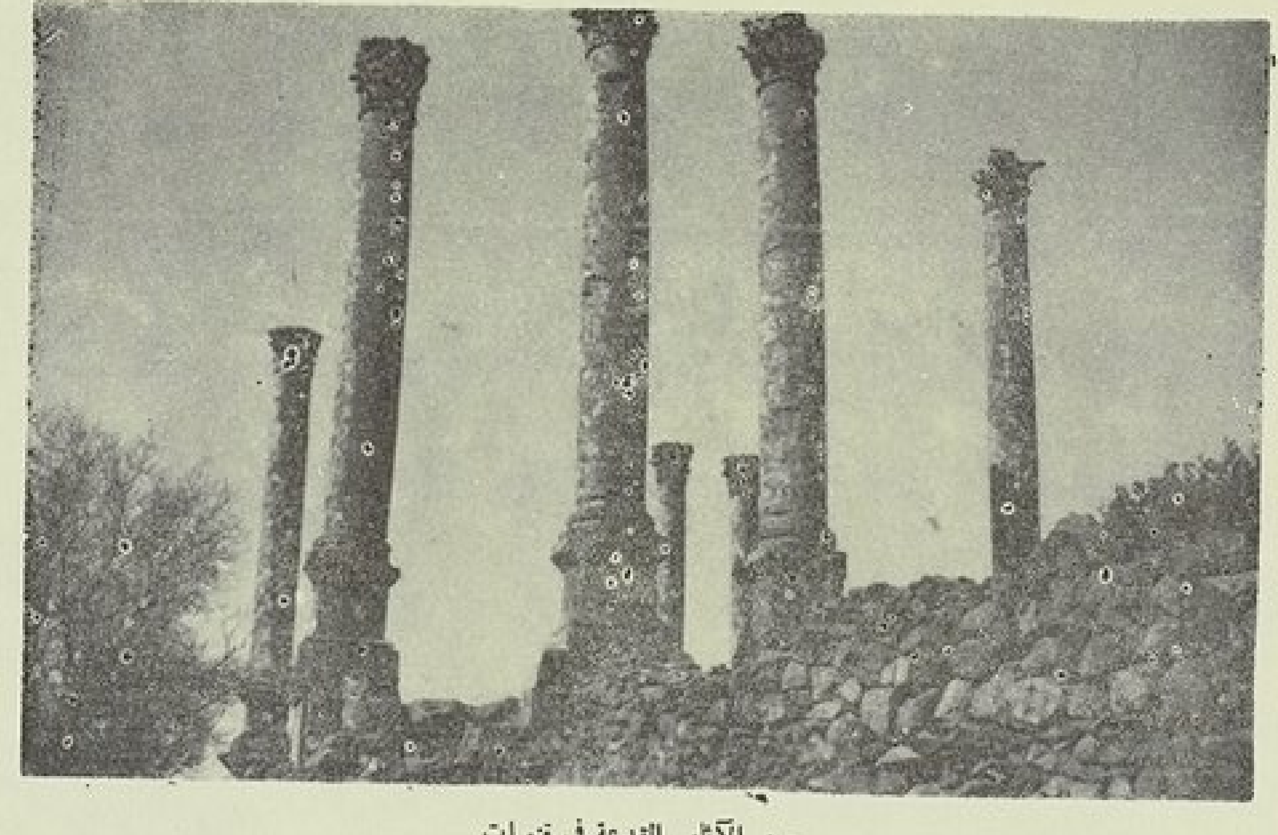
واما الفترة الثانية فهي تمتد على عشرين سنة مضت اذ أخذ ابناء الجبل يهاجرون الى فنزويلا من دول امريكا الجنوبية بشكل خاص والى البرازيل والارجنتين وكولومبيا والى افريقية الغربية نيجيريا . وقد زاد عدد هؤلاء المهاجرين على ستة آلاف نسمة . ويعمل هؤلاء المهاجرون بالتجارة وسرعان مايتلاءمون مع الجو في تلك البلاد وأثرى بعضهم فمنهم من استقر هناك ومنهم من عاد الى الوطن وهو يحمل امواله . ومنهم من يعود الى وطنه لفترة محدودة ثم يعود الى المهجر . وأصبحت الهجرة مغرية لابناء الجبل الفقير منهم والغني على السواء . وقد برزت امكانياتهم هناك وكانت هذه الامكانيات ضائعة فتزاحموا على الهجرة وبالفعل فقد أظهروا مواهب عظيمة ومثمرة . وظهر أثرهم واضحاً في الجبل . فتحسنت أوضاع عائلات كثيرة ، وكان من أثر هذه الاموال ان ارتفعت أسهم بعض الاراضي كأراضي السويداء . لان ابناء القرى الذين هاجروا وعادوا صاروا يفضلون بناء البيوت في السويداء او شراء بيوت في بيروت او دمشق . ويغادرون قراهم وبذلك انخفض سعر أراضي القرى وأهملت تقريباً . ومما يؤسف له ايضاً ان المهاجرين الذين يصبحون أثرياء في المهجر عن طريق التجارة يعودون الى وطنهم ويشترون بيوتاً كما ذكرت في المدن كدمشق وبيروت والسويداء . وأثر ذلك واضح في السويداء ولا يعرفون كيف يستغلون اموالهم هذه في اعمال تعاونية زراعية او صناعية تكون ذات فائدة أعم وأشمل على عموم اهالي المنطقة .





من الآثار القديمة في قنوات





من الآثار القديمة في قنوات

السّلام



السكان

بدأ بنو معروف يرحلون الى الجبل عام ١٦٨٥ وكانت الدفعة الاولى حوالي ١٥٠٠ رجلا وإمرأة وطفلا بقيادة اميرهم الامير علم الدين المعني. غادروا البلاد اللبنانية وتوجهوا الى اعالي حوران القليلة السكان رغبة منهم في ان يتخلصوا من سيطرة الاتراك . وبالرغم من عددهم القليل فقد طردوا منه البدو الذين كانوا يعيشون فيه الى جانب بعض النصارى بقايا الانباط والغساسنة الذين كانوا يقيمون في بعض انحائه الغربية والشمالية . وأول مااستقروا في نجران وعريقة وريمة الفخور .

حكمهم الامير علم الدين المعني طيلة ثلاثين عاماً ولما غادروا البلاد الى لبنان أعطي الحكم الى الزعيم حمدان الحمدان عام ١٧١١ الذي استدعاه **لهذا الامر من جبل لبنان** . وقد مارست عائلة الحمدان التي يعود أصلها القديم الى **شمالي سوريا** (حلب) **الى ابي سيف الدولة الحمداني** . وبقيت تمارس سلطتها ونفوذها على كل الجبل الى اليوم الذي انتزعت منها عائلة الاطرش زعامتها وسلطانها . اختار حمدان الحمدان قرية نجران مقراً له ومن هناك سيطر على البلاد ولكي يقف في وجه البدو الذين أخذوا يحاولون استعادة الجبل بغزواتهم المفاجئة ومن اهل حوران الذين كانوا ينظرون الى القادمين نظرة قلقة . أرسل حمدان الحمدان الى بني معروف المنتشرين في لبنان وجبل الشيخ وجبل العلا وفي منطقة حلب وانطاكية وصفد وجبل الكرمل مندوبين يدعوهم الى المجيء والاستقرار في منطقته الخاصة . وأعطى من قدم الى عنده اراضي ومساكن مجانية واموالا واغذية وكفل لهم الحرية في ممارسة عاداتهم وكل التسهيلات الضرورية لتنظيم اجتماعي يوافق عاداتهم وتقاليدهم . وبعد قرن من الزمن حدثت هجرة درزية

جديدة الى الجبل عام ١٨٣١-١٨٤١ اثناء الحروب التي خاضها ابراهيم باشا في سوريا ضد الدولة العثمانية . أراد ابراهيم باشا بن محمد علي وقائده بعد ان انتزع سورية من الدولة العثمانية ان يفرض الجندية الاجبارية ويجبي الاسلحة من السكان فحدث الصدام بينه وبين الدروز بعد ان اعتبروه محرراً ومنقذاً ولجأوا جماعات جماعات الى اللجاه . انتهى الامر بعد معارك عديدة الى عودتهم الى حظيرة الطاعة بعد ان سمم ابراهيم باشا ينابيع المياه الواقعة على اطراف اللجاه كي لا يشرب احد من الثائرين فسلموا بعد ان جاعوا وعطشوا . ولم يأت عام ١٨٥٨ إلا وكانت انحاء الجبل مسكونة من قبل بني معروف كما يقول غليوم ري في كتابه « رحلة الى حوران والبحر الميت ».

وبنو معروف عرب قدم اكثرهم من اليمن وبعضهم من الحجاز واستمرت بينهم النزعة القيسية واليمينية الى عصور متأخرة أدت الى مذابح شديدة دموية أهمها عام ١٧١١ منهم المناذرة الذين قدموا العراق ثم أتوا الى شمالي سوريا ثم الى لبنان ثم الى الجبل يبلغ عددهم حوالي ماية وخمسين الف نسمة.

عاصمتهم السويداء وهي مركز المحافظة . ويبلغ عدد سكانها حوالي عشرين الف نسمة ويتوزع باقي السكان في القرى وتزداد الكثافة كلما اقتربنا نحو الجنوب اذ ان المنطقة الجنوبية ويطلق عليه الاهالي اسم « المقرن القبلي » اي قضاء صلخد يعد اكثر من خمسين الف نسمة لان طبيعة الارض في الجنوب تختلف عنها في الشمال فهي اكثر حيوية وخصوبة وأمطاراً . واما السويداء اليوم فهي تجذب السكان اليها من جميع القرى لما فيها من حركة عمرانية نشيطة وحركة تجارية قوية تتأرجح حسب كثرة عدد افراد الجيش او قلتهم . والسويداء كما هو المشهور عنها منذ القدم مدينة عسكرية قبل أي شيء آخر . كانت كذلك في زمن الايوبيين حينما كانوا يناضلون ضد الغزاة الصليبيين وأصبحت كذلك حينما عاود الغرب كرته واغتصب فلسطين.

وتقسم محافظة السويداء الى :

منطقة السويداء ومنطقة صلخد وشهبا . وتقسم المناطق الى نواحي . وتأتي صلخد بعد السويداء من ناحية عدد السكان ثم تليها شهبـــا فملح فالقرية وعرمان وعرى وساله وعريقة وشقا .

المسيحيون

يقسم المسيحيون في الجبل الى قسمين متميزين : قسم جاء مع الدروز من لبنان وهم مثلهم يرتدون اللباس الدرزي ولا يختلفون عنهم لا بالعادات ولا بالتقاليد . وقسم بقي من السكان القدامى احفاد الانباط والغساسنة . لباسهم لا يختلف عن لباس اهالي حوران و كذلك عاداتهم وتقاليدهم ولهجتهم . ولهم علاقات عائلية مع سكان الاردن المسحيين .

يكثر المسيحيون في القرى الجنوبية والغربية والشمالية واما القرى التي يسكنها المسيحيون الذين قدموا مع الدروز هي (صلخد وعرمـان وملح) وهي القرى التي تحملت اكثرمن غيرها قساوة الصراع في سبيل الاستيطان في الجبل ومعاركهم لا بل ايامهم مع البدو مشهورة يرويها الكبار في السن منهم اكثرهم من المذهب الارثوذكسي الا ان هؤلاء اخذوا ينضمون الى المذهب الكاثوليكي لما يلاقونه من اهمال من رؤسائهم الدينيين لا سيما مطرانيتهم وبطريركيتهم . ورجال الدين الارثوذكس حالتهم سيئة وفقيرة بعكس الكاثوليك الذين يلقون العناية الفائقة من مطرانهم . ولما تتمع به مطرانيتهم من نشاط وعطف .

البـــدو

يشغل البدو مكانة مرموقة في الحياة الاقتصادية في جبل العرب ولذلك نرى من الضرورة الكلام عنهم . تقيم كل قبيلة لوحدها في الصيف على المرتفعات وفي الشتاء في المنخفضات . ويقل عددهم في الشتاء كثيراً اذ انهم يذهبون الى الشرق اي (يشرقون) ابتداء من اوائل الخريف اذا هطلت امطار تكفي لسقاية مواشيهم في البادية ويعودون اي (يغربون) في اوائل الربيع وينصبون

خيامهم بالقرب من القرى حتى اذا ما بدأ الحصاد اخذوا يسرحون مواشيهم في السهول والكروم . وكثيراً ما يسببون الاذى للاشجار وكروم العنب بشكل خاص . ولهذا لم يخل الامر من شيء من النزاع بينهم وبين سكان القرى .

ويحصي البدو عادة بعدد خيامهم وعدد الرجال الذين يربو عمرهم على العشرين عاما . فالنساء والاولاد والمراهقون لا يشملهم هذا الاحصاء . وكان عدد بدو الجبل يقدر حوالي عام ١٩٤٠ بـ ٨٧٩٥ نسمة وعدد خيامهم بـ ٢١٥٥ خيمة . ويتوزعون على شكل ست قبائل نأتي على ذكرها حسب كثرة عددها .

١ – المساعيد :

يقدر عدد خيامهم ٥٨٥ خيمة وعددهم ٢٠٠٠ اصلهم من شرقي الاردن وكانوا في الجبل قبل قدوم الدفعة الاولى من بني معروف . وهم اليوم رعاة اكثر من نصف مواشي هذه . نراهم في الصيف منتشرين في وسط الجبل وجنوبه وفي قضاء السويداء وعلى هضبة نبع البدو وفي ضواحي تل الجنية وعلى منحدرات سالة الجنوبية . وفي الشتاء نراهم في تل الاصفر في الجبانة (جنوبي الجبل وفي وادي راجل وفي الاردن احياناً .

٢ – الحسن :

يقدر عدد خيامهم بـ ٥٣٠ خيمة وعددهم حوالي (٢٠٠٠) فهم اقدم قبائل الجبل ويلتجئون الى السلوط بدو اللجاه عندما يضطرون الى ذلك .

٣ – الشرفات :

ويقدر عدد خيامهم بـ ٢٠٥ وعددهم ١٠٢٥ اصلهم كالمساعيد من العراق وهم رعاة مواشي قرى المقرن الجنوبي وصلخد والسويداء يقضون الصيف في شرقي الجبل ويقضون الشتاء في وادي الشام والصفا والحرة .

٤ – العظمات :

يقدر عدد خيامهم ٣٨٠ خيمة وعددهم ١٦٠٠ اصلهم من شرق الاردن قدموا الى الجبل قبل ان يأتي اليه بنو معروف فهم حلفاء المساعيد ورعاة مواشي

المقرن الجنوبي وبصورة خاصة حول امتان وملح والغارية وام الرمان والشفون وعنز وتنزل بعض خيامهم احياناً في ضواحي شهبا ويقيم زعيم هذه القبيلة في شرق الاردن .

الشنابلة

ويقدر عدد خيامهم بـ ٢٢٥ وعدد نفوسهم ١١٧٠ أصلهم وأصل قبيلة لحسن واحد ولكنهم انفصلوا عنهم في القرن الثامن عشر . ومنذ ذلك الوقت استقروا في قضاء السويداء ويقضون هناك معظم ايام السنة بدون ان يغادروا خيامهم حتى في فصل الشتاء ونصادفهم عادة في السويداء والكفر والرحا وسليم وعثيل وقنوات ومفعلة وبريكة .

السردية

يقدر عدد خيامهم بـ ٢٠٠ خيمة ونفوسهم بـ ١٠٠٠ نسمة ولهم صفة مميزة وهي انهم انحدروا من قبيلة تنوخ وهي قبيلة أتت من الجزيرة العربية في القرن الثالث الميلادي عن طريق العراق ثم قدموا الى الجبل عن طريق معرة النعمان في القرن التاسع . على ان العائلات الدرزية تعود الى نفس الأصل . وتسود بينهم وبين الدروز علاقات ودية . وتقضي قبيلة السردية الصيف في حوران حول بصرى وفي الجبل حول ام الرمان وذيبين والقردية واما الشتاء فيقضونه في البادية حول ام الجمال .

ويأوي الى الجبل كثير من البدو المارة أمثال السلوط في قضاء شهبا وبعض الغياث في الرحبة والنعيم والشرارات والعيس في قضاء صلخد .

ووجود البدو في الجبل بهذه الكثرة يدل دلالة واضحة على خصب هذه المنطقة سواء من ناحية المرعى او المأوى

مشكلة توطين البدو وضرورة ذلك من الوجهة القومية

وتتجه الانظار أخيراً الى توطين البدو لما في ذلك من فائدة لهم وللدولة

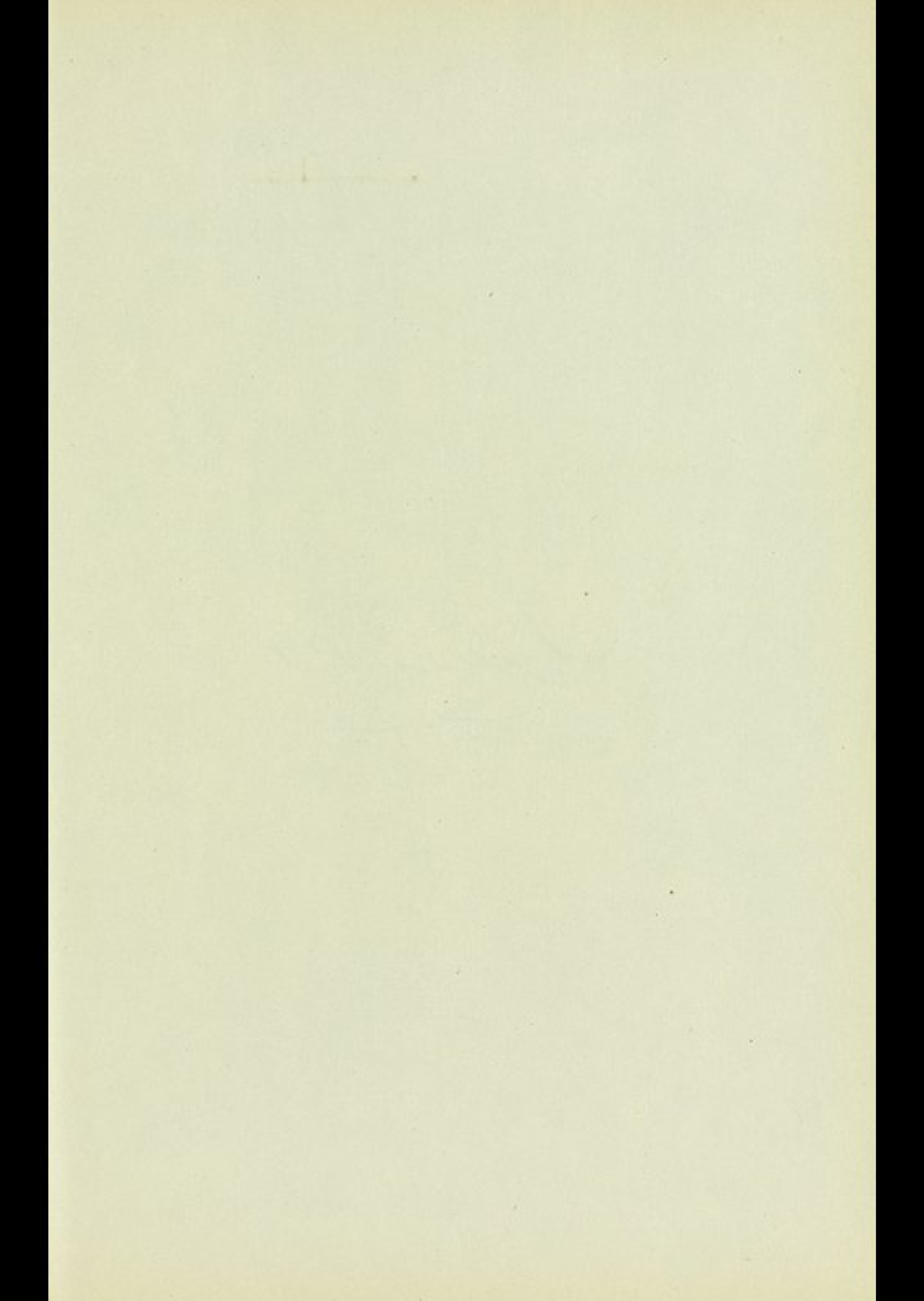
في الوقت ذاته . وبالتوطين ينتقل هؤلاء البدو من الحياة البدوية المشردة ا
الحياة الريفية التي فيها الشيء الكبير من الهدوء والاستقرار فتنتشر الثقافة بين
أوساطهم ويصبحون اعضاء عـــاملين في المجتمع وتستفيد الدولة من جهودهم
وسواعدهم وأفكارهم ويصبحون مواطنين بكل مالهذه الكلمة من معنى. وعوضاً
عن ان تكون قرى كثيرة خالية من السكان يصبح بالامكان تعميرهـــا من
جديد واعادة الحياة اليها وانعاشها بجميع الوسائل اللازمة للحياة .

وتوطين البدو ضرورة قومية قبل أي شيء آخر لان الحيـاة البدوية
لاتساعد على خدمة الوطن خدمة فعلية لان ضرورة التنقل في الصحراء سعياً وراء
الماء والكلأ لاتسمح للبدوي بحب وطن معين ولا تجعله مرتبطاً بعهود وقوانين
معينة ايضاً بل تدفعه بطبيعة الحال الى حياة البداوة والفوضى والتشرد .

غير ان البادية تحتاج الى من يستثمر ثرواتها النباتية ولذلك فرضت على
الانسان ان يحيى نوعاً معينا من الحياة ، وهذا النوع هو الحياة البدوية . غير
ان الدولة جادة في تخفيف أعباء الحيـاة عنهم ، وذلك بحفر الآبار الارتوازية
ليمتنع البدوي من التنقل المستمر وراء الماء والكلأ .

وعلى كل حال فان توطين البدو لايخـــلو من الصعوبات . اذ لايمكن
توطين البدوي .

مظاهر الأدب
في الجبل



مظاهر الادب في جبل العرب

يحق لنا ان نبحث الناحية الادبية في الجبل بحثاً وافياً لانك ما ان دخلت بيتاً من البيوت الا ووجدت احاديث الاقدمين وامثالهم وقصصهم على السنتهم . ونادراً ما تمر امام مضافة من المضافات الا وسمعت صوت الرباب اما يئن وينوح واما يتغنى بالبطولات ، بالايام ، بالمعارك فتدفعك الحمية وتتمنى لو انك تشهد معارك جديدة مع العدو او لو انك شهدت هذه المعارك التي يردد هذا الرباب صداها وذكراها .

وينقسم الادب في الجبل الى قسمين ادب عامي وادب فصيح . والناحية النثرية ضئيلة جداً امام الناحية الشعرية وهانحن نبدأ اول مانبدأ بالشعر العامي

كان الشعر العربي مزدهراً في الجاهلية يوم كان لكل قبيلة من قبائل العرب لغتها الخاصة قبل ان توجد الاسواق ثم القرآن الكريم فتحل محلها لغة قريش التي ظلت لغة العرب حتى تفرقهم الى طوائف واقاليم يعيش كل منهـــا عيشة خاصة في ظل حكم مستعمر . وانحصرت اللغة الفصحى في الكتب وعاد الشعر الى ماكان عليه قبل الاسواق والقرآن . فاصبحنا نرى لكل قبيلة شاعرها الخاص يدافع عنها ويهاجم باسمها ، ينطق بشعر قريب الى النفوس بعيـد عن الصنعة . ولا يقل الشعر العامي خصباً وجودة عن الشعر الفصيح ، لان الشعر العامي يدخل الى قلوب العامة بلا استئذان .

وقد انتقل قسم من بني معروف الى جبل حوران فاحتكوا باهل البادية وخالطوهم بالسلم والحرب والعادات العشائرية فحفظوا اشعارهم وسردوا قصصهم فنظموا الشعر على طريقتهم فكان أن أوجدوا شعراً جميلاً يعبر عن آمالهم وآلامهم ، ويؤرخ جهادهم وحروبهم وغزواتهم .

قُدم الدروز الى الجبل واستوطنوا فيه بعد صراع دام مرير مع البدو من جهة ومع جيرانهم الاقوياء من جهة ثانية فكان ان تغلبوا عليهم واستقروا فيه . وجردت عليهم السلطات العثمانية الحاكمة جيوشاً ضخمة ، فقضوا على هذه الجيوش الجرارة فدفنوا من جيوشها الآلاف وقتلوا من قوادها . ومرت عليهم ايام مشهورة كانوا فيها على جانب عظيم من اليقظة لا ينام الرجل منهم الا وسيفه تحت وسادته خوفاً من مفاجأة العدو كما جاء على لسان شبلي الاطرش :

عالسين سيفك لا يفارق وسادتك

خليك فرز من الرجال حريص

وكانت لهم ايضاً ايام مشهورة مع الفرنسيين . فكان ان ارتوت ارض هذا الجبل بدمائهم ودماء اعدائهم . وكان الشعر الحماسي يعبر عن عواطفهم ويقودهم الى حيث المعارك . وعندما تنتهي هذه المعارك ويؤسر احدهم تفيض قريحته بشعر الحنين والفراق . وعندما تهدأ العاصفة يعودون الى ذكرى حروبهم فيمدحون ابطالهم الذين قتلوا او ابلوا البلاء الحسن في المعركة ويتغزلون ويرثون قتلاهم بشعر رثائي ممزوج بالفخر والحكمة .

وعندما جاء بنو معروف الى الجبل وجدوا فيه قبائل بدوية شتى لها شعرها واصطلاحاتها ووجدوا أهل السهل الحوراني ولهم شعر كشعر الاعراب ينظمونه بالأوزان ذاتها واللغة ذاتها وكان اول شعر نطقوا به على طريقة البدو وأهل حوران يغني على الرباب . وكان الشعر في باديء الأمر لا تكلف فيه ولا صنعة . ثم دخل عليه التكلف فيما بعد وتعقد كلامهم واستعملوا الجناس . والكلمة العامية لا تأتي متحركة بل هي مبدئياً ساكنة الا فيما ندر لتقليد الشعر الفصيح أحياناً وهذا التقليد أضر كثيراً بشعرنا العامي لأنه أبعده عن العامي وعن الفصيح في نفس الوقت . وأوزان الشعر العامي تعادل أوزان الشعر الفصيح او تزيد وتشبهها . منها الشروقي ويدل اسمه على انه لعرب الشرق وهو أول وزن من أوزان القصيد يتغنى به في المضافات يرافقه الرباب . وهو هاديء طويل عميق المعاني .

والهجيني الذي يطلق عليه اسم « الحداء » يتغنى به الفرسان اما راكبو الخيل أو الابل .

والفن ويطلق عليه هذا الاسم لشدة اعتناء قائله بالصناعة الشعرية والتفنن بالمعاني . أو لأن الذين ينشدونه يدورون بشكل صف اربعة او خمسة يغني أحدهم والباقون يرددون اللازمة فقط .

والجوفي وهو لحن مأخوذ من أهل الجوف « دومة الجندل » وهو لحن حماسي حربي يثير النفوس ويحمس الأفراد . ويكثر من هذا النشيد عند الحاجة اليه أثناء الغزوات او الحروب . ولا تصل الجموع الى ساحة المعركة الا وهي نشوى لا يهمها كثرة الجيوش المعادية وقلتها ولا تقف قبل ان تتوسط صفوف الأعداء وتهزمهم او تبيد . وهذا البيت من الشعر يدل على الايمان الذي يدفعهم الى القتال :

ان قتلتم بالنشامة الموت سنة وان سلمتو سالمين من الشماتة

وتفسير هذا البيت الذي ينص على انكم أيها الأبطال ان قتلتم فالموت سنة الله في خلقه ، واذا سلمتم من الموت فقد سلمتم شماتة الحساد ولا لوم عليكم لأنكم أبليتم البلاء الحسن في المعركة .

أقدم شعراء الجبل

من أقدم شعراء الجبل المعروفين اليوم الشاعران أسعد نصار والشيخ أبو علي هاني الحناوي . وهذان الشاعران شهدا فتوحات ابراهيم باشا المصري وأسعد نصار اقدمهما تاريخاً وله قصائد قوية يرد بها على شيوخ القبائل المعادية لبني معروف الى جانب الغزل الرقيق .

أما أبو علي الحناوي فله قصيدة رائعة يصف بها حرب اللجاه التي دارت بين جيش ابراهيم باشا المصري وبني معروف . وجاء بعدهما شبلي الأطرش واحمد بحصاص وعبد الله كمال واسماعيل العبد الله ، وهزاع الحلبي ومنصور عزام وهزاع شرف وحمد الخطيب ... وعلي عبيد ونجم العباس وصالح عمار ابو

الحسن ... وقد طبع ديوان شبلي وديوان منصور عزام وديوان علي عبيد (ربابةالثورة) .

كان أبو علي الحناوي واسعد نصار لايعرفان مذلة النفس والانكسار فكانا في شعرهما يفتخران او يهددان او يصفان ولا يشكيان ولا يبكيان بل يفتخران بالشجاعة والايمان بالله وذكرى المعارك .

فمن قول ابو علي الحناوي يصف الحرب بين بني معروف والجيش المصري :

أول فتوح الحرب دبح البصيلي　　أخذنا خمسماية حصان فرد نهار

يعني بذلك ان الحرب بدأت اول مابدأت بذبح البصيلي قائد حملة ابراهيم باشا وربحوا خمسماية حصان في يوم واحد .

وقال اسعد نصار يفتخر على زعيم قبيلة ولد علي الشيخ فندي التيار :

حنا بني معروف نحمي الجار لو جار　　نقني المزند فتيلك مانداريه
وسيوفنا الحدب تغري كل زنار　　وحرابنا لو صدت بالدم نجليه
ماتذكر يوم مردك والذي صار　　ويوم الجنينة يافندي انت ناسيه

يفتخر بأن بني معروف يحمون جارهم ولو جار عليهم ويقنون السيوف الحدباء والحراب التي لايجلوها سوى الدم من الصدأ . أتذكر يوم مردك يافندي وهل نسيت يوم الجنينة (بالطبع التي كسر فيها فندي) .

ومن غزل أسعد نصار وقد نزح من راشيا الى جبل حوران تاركا فيها حبيبة له حال بينه وبين رؤياها جبل الشيخ .

فوق الجبل ياريح سافر بالعجل　　قرب عليك بعيد خطوات المجال
نجمي غطس في برج عالي واختفى　　وطل ونفذ من خلف ظهرك ياجبل

شعراء العهد العثماني

كان لبني معروف على ابراهيم باشا سلسلة من الانتصارات جعلت الدولة العثمانية تهتم بالجبل فصارت ترسل اليه الحملات بقصد اخضاعه فكان له معها ايضاً

سلسلة من الحروب ينتصر عليها ثم تنتصر عليه فتنتقم من قادة العصيان فيه بالقتل والشنق والنفي الى طرابلس الغرب وكريت ورودس والروملي فتقوم بين المنفيين وذويهم في الجبل سلسلة من المراسلات يضمنونها كل مافي قلوبهم من نقمة او بأس او حنين او تحذير من الاتراك وكانت هذه المراسلات شعرية على الغالب وكان هناك شعراء كثيرون أشهرهم شبلي الاطرش واسماعيل العبد الله وهما من الدرجة الاولى وهزاع الحلبي وحمد الخطيب ومحمد الجرمقاني وسواهم من الدرجة الثانية .

ومن صفات هذا الشعر العامي انه عبارة عن رسائل شعرية ينتخب الشاعر لهرسولا شجاعاً عالماً باخلاق أهل البلاد التي يجتازها جلوداً على السفر في الليالي وان تعد عليه عدة تامة . وبعد ان يصف الشاعر كل هذا ويدل رسوله على الدرب ويوصله الى المكان المقصود يقول للمرسل اليهم مايريد ان يقوله بسرعة وايجاز او بتطويل حسب الغرض المقصود . وينهي الشاعر القصيدة بالصلاة او بالتماس شيء من الله وقد تكون المطية ذلولاً او فرساً او سفينة او الريح كقول اسعد نصار :

فوق الجبل ياريح سافر بالعجل قرب عليك بعيد خطواب المجال

وقد لايكتفي الشاعر بمطية واحدة بل يشد عدة مطايا او ركاب ثم يصف كل واحدة منها . فكان لدينا قصيدة العشر ركاب لشبلي الاطرش وقصيدة العشر ركاب لاسماعيل العبد الله وسواهما .

شبلي الاطرش

كان شبلي الاطرش متفائلاً في اكثر شعره . أما اسماعيل العبد الله فمتشائم دائماً ولعل هذا التشاؤم هو الذي منحه صفة العمق التي يمتاز بها . فشبلي اذا تألم نسب كل مايصيبه الى الاتراك . اما اسماعيل فينسب ألمه الى قلة الاصحاب وعدم اعتناء أهل الجبل بخلاصه من سجنه وهو مولود ليشقى ويتعذب رغم أنه كان كشبلي سجيناً من قبل الاتراك ويظهر ذلك بقوله :

من مبتدأ عمري حياتي ردية والموت عيوا لايبيعوه باثمان

ان مكانة شبلي كزعيم كانت تمنحه الغلبة على الضعف والتفوق على كل

الآلام ويعزي نفسه كما يفعل العظماء بعكس اسماعيل الذي يتألم ألم الضعيف الذي يشعر بضعفه ويمتاز شبلي ايضاً بالحنين الى بلاه وداره حتى صار شعره في الجبل كشعر المتنبي بين شعراء العرب ينشد في كل ليلة وفي كل قرية من قرى الجبل. ان حكمه على كل لسان لأنه لم يترك موضوعاً الا طرقه واجاد في المواضيع واشتهر شبلي الاطرش بالغزل وله عدة قصائد في هذا الباب.

كان شبلي مؤسساً لمدرسة أدبية فكان من اتباعه وتلاميذه بعد اسماعيل العبد الله هزاع عز الدين الحلبي وهزاع شرف ومحمد الجرمقاني وحمد الخطيب ومنصور عزام.

فمن قصائد هزاع الحلبي الذي شنقته الدولة العثمانية على اثر حملة سامي باشا الغادر في ١٩١٠ قصيدته اللامية التي يصف بها حرب اهل الجبل مع عرب الضمير ومطلعها:

اول كلامي نحمد الرب العلي القادر المعبود مولانا الازل

واما منصور عزام الذي توفي عام ١٩٣٨ كان خصب الخيال ويختلف شعره عن شعر شبلي واسماعيل بانه لم يكن شعر مراسلة بل يميل الى التأديب ويظهر ذلك من تقديم نصائحه الى ابنه فريد. نوّع أوزان الشعر اكثر من شبلي ومما يؤخذ عليه ان يتصنع في شعره وذلك بمزجه اللغة الفصحى باللغة العامية. هو شاعر عامي غير انه يستعمل اللغة الفصحى المنصوب مرفوعاً والمرفوع مجروراً. وهو من الشعراء الجبليين المخضرمين الذين شهدوا العهد التركي والحرب العالمية الاولى وعهد الاحتلال الفرنسي. وبذلك يعتبر شاعر صلة بين القديم والحديث. اهتم كثيراً بالنصائح والحكم والتعاليم الموجهة الى ابنه فريد، وله ديوان مطبوع يمكن الرجوع اليه. كان يشك كثيراً بالناس وبشكل خاص باقربائه ويظهر ذلك في قوله:

لا توافق الشينين أهل القرية حذراك منهم زفقة الضان للذيب

كان يبتدىء اكثر قصائده بذكر اسمه كقوله:

قال ناشيها بقرطـــاس نميق   ميم نون صـــاد واو راء تلاه

اي قال منصور . . .

ومن اشهر قصائده تلك التي يصف فيها البشر من العابد الضعيف الى عابد المال المتواضع والمتكبر فالذكي فلطيف المعشر فالذي طبعه كلابي ويحذر من النساء . هو شاعر يصف قريته يصف المجتمع الذي يعيش فيه وكأنه غريب عنه خلق لا ليعيش فيه . انما كانت امنيته هي تأديب ابنه وتعليمه ليتخلص من هذا الجو وهذا النوع من الحياة الذي يعيشه فهو يصف سهرات مجتمعه واحاديث الساهرين التي تتصل بواقع حياتهم .

الشعر الجبلي الحديث

كانت مؤامرة سايكس بيكو واحتلال سوريا والجبل بعد الحرب العالمية الاولى وايجاد الدولة الدرزية دولة جبل الدروز المستقلة ... كل ذلك اثار القرائح لدى شعراء الجبل بعد ما كادت تخمد جذوة الشعر فيه . وكان هذا الشعر تمهيداً لثورة ١٩٢٥ . ومن شعراء هذه الفترة **علي عبيد** . هو ربابة الثورة هو الذي أرخ اسبابها وحوادثها ونتائجها لا بل كان هو من ابطال الثورة الذين بعثوها شهد معاركها وذاق مرارة نتائجها . فمن قصائده في التحريض على الثورة ضد الفرنسيين :

يا حيف يا دروز الجبل يا شواهين   كيف ترضخو وتستلموا للاهانا

والعز مطـــلوب الاباة الشهيمين   والموت اهون من شماتة عدانا

ما زال حنا عن المطـامع عفيفين   النصر من علياه ربك عطـــانا

يافلان لا تهوجس وبوعك نشيطين   ترمي عشـــا للطير جيشاً غزانا

ولما شعر الفرنسيون بالخطر يتزايد عليهم اخذوا يضطهدون كل وطني بتكسير الحجارة على الطرقات ويراقبون الرسائل ويشددون المراقبة، ويعطون السلطة الواسعة الى المعلمين وتأتي اخبار ثورة عبدالكريم الخطابي فيقول علي عبيد :

يسمى هذا اليوم حامي التوالي   عبد الكريم الزايد اليوم بفاس

الى ان تتقرر الثورة فيشترك الشاعر فيها لا بل يصبح من زعمائها ويؤرخها شعراً صالح عمار ابو الحسن .

عاش هذا الشاعر زمن الثورة السورية الكبرى ايضاً سجل معاركها وحمس رجالها . نظم في كل فنون الشعر المديح والرثاء والغزل ووصف المعارك واجاد في هذه الناحية كل الاجادة . ولم يشع في الجبل شعر بعد شعر شبلي كشعر عمار حتى ان عمار يعد من يصمد في الحرب حتى آخرها بانه يربح من شعره وهي اكبر مكافأة يطمع فيها شجاع . فقال :

والي بيصمد للتالي   بيربح من قصيد عمار

اي ان عمار سوف لايمدح الا اولئك الابطال الذين يصمدون في الحرب حتى النهاية . اجاد في جميع انواع الشعر من الشروقي الى القصيد الى الفن الى المطلوع الى المعنى . اما غزله فيتجلى في قصائده الفنية . وهو لا يخرج عن مصطلحات بقية الشعراء في الوصف لحسن القوام وبيض الخدود وسود العيون وطيب الاصل والرائحة ولكنه يحب الغلو فلا يرى شيئاً يوازي محبوبته. ويكثر من الاسف وتعداد محاسن الفقيد في رثائه يصفه بالكرم والوفاء وله قصائد بارعة يرسل فيها عروس شعره تجول في البلاد فيصف لها كل زعيم وهي لاترضى ووصفه قاس فمن الجبان الى الخائن الى الذليل الى البخيل ثم يعيدها الى سلطان باشا الاطرش بقوله :

قلت لها يا مستورة يا غندورة   انعي عقيد الثورة الباشا سلطان

قالت هذا مطلوبي عرفت النوبي   وهذا اقصى مرغوبي شيخ الشيخان

فتحط العروس رحالها وتستريح .

ومن الذين حذوا حذوه في هذه الناحية محمد ناصر الدين .

وما يعاب على صالح عمار هو انه سلك في شعره مسلك المدح والتكسب.

ومن الشعراء ايضاً **سعيد عزالدين الحلبي** الذي اشتهر بالملاحم وشعره

جيد وصادق العاطفة صريح اللهجة طويل النفس والقوة . وللملاحمه قيمة تاريخية اذ انه يصف فيها المعارك والحروب ويتغنى بامجاد الابطال ومن ملاحمـــه تلك التي مطلعها :

البارحة عيني عن النوم عيت   من هاجس اللي يسهر الجفن مابات

الشعر السياسي

ويأتي في مقدمة الشعراء السياسيين علي عبيد صاحب ربابة الثورة الذي جئنا على ذكره . وقد عاش السياسة منذ الحرب العالميه الاولى حتى قبيل يومنا هذا بقليل وقد توفي في ايلول ١٩٥٩ .وهو زعيم شاعر هو حاكم صلح السويداء قبل الثورة واحد ابطال الثورة هاجر مع من هاجر بعد الثورة الى الازرق في شرق الاردن ثم الى النبك في الحجاز . كان يشجع الثوار كلما احس منهم بعض اليأس وهو يؤرخ الاعياد فينظم قصيدة بمناسبة عيـــد الاضحى يذكر فيها كل ما يجيش بخاطره من الذكريات والافكار والآمال .

استنكر طرد العرب من فلسطين وتمنى لو يأتي خالد بن الوليـد مرة ثانية بقوله :

ترسل لنا من مثل خالد بالوغى   يلفي بجيشه عن طريق الجوف

هو الذي يراسل المهاجرين العرب الذين كانوا يمدون الثوار بالاعانات وهو الشاعر القومي الذي لم يترك مناسبة تخدم القومية العربية الا نظم بها . وهو الذي سجل سجل جميـع الاحداث التي تمت حتى عام ١٩٣٦ العام التي عقدت فيها المعاهدة وحصلت بموجبها سوريا على استقلالها ويعودون على اثرها الى الجبل ويصف كم وجدوا من ضروب الاحتفاء بعودتهم .

شعراء الغزل الغنائيون :

يأتي في مقدمة الشعراء الغنائيين **سليمان عبدي الاطرش** . وهو شاعر موسيقي لابل أشهر موسيقي في الجبل يتغنى بشعره الخاص . يحسن العزف على الرباب والكمان حسن الرواية والقصة . يشعرك بالجو الذي نظم فيـه قصيدته

فتحس بكل ماأحس به . له مطاليع كثيرة ومقطوعات يندر وجودها عند سواه من شعراء الجبل . وشعره سريع الانتشار بين ابناء الجبل فهو يشبه رشيد نخله في لبنان وله قصائد كثيرة تشبه قصائد رشيد نخله .

وله قصائد في التدخين . وصف مضاره ثم حن اليه فحدثت بينه وبين هلال عز الدين مناظرة شعرية تدور حول الدخان رائعة جداً ولا يتسع المجال لذكرها كاملة . بل يمكن الرجوع اليها في كتاب (بني معروف بين السيف والقلم ص ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١ للاستاذ سعيد ابي الحسن . وقد اشترك سلامه كرباج في هذه المناظرة ايضاً . فمن حنينه الى التدخين :

قلبي اتمنى اشتري اليوم باكيت ... توكي اهالي والسكاير مذهب
واليا فتحته وريحة العطر شميت ... يطرب دليك قبل ماتصير تشرب
والما شرب دخان عده كما الميت ... واللي شرب لو كان شايب رجع شب
قل للذي بطل يدخن سكاريت ... ضيعت لذاتك بها العمر تضرب

وهناك عدد كبير من الشعراء يستحقون الدراسة ويضيق المجال هنا لدراستهم فهناك زيد الاطرش وجاد الله سلام وهو شاعر رصين وعميق الفكير ومحمد عز الدين الحلبي . درس في الاستانة . لم ينشر شعره وهو مجاهد كبير ساهم في ثورة ١٩٢٥ وهجر الجبل مع الثوار المجاهدين الى الاردن والحجاز مدة ١٢ سنة واشهر قصائده تلك التي تبتدىء بقوله :

عيني عداها النوم عيت تنامي ... طبه قلق وتنود من غير النعاس

وهناك نجم العباس وسليم الدبيسي وفندي عزام . ومن شعراء البدو « سودي ابو سماحة » وسالم الخضير من قبيلة المساعيد وابو حرب السردي من قبيلة السردية . وعكيب العمار من قبيلة الحسن . وصبيح السراح من قبيلة السرعان .

واما **نجم العباس ابو اسماعيل** فهو مازال حياً حتى كتابة هذا الكتاب أصله ومسكنه ملح نظم الشعر وهو صغير وما زال ينظمه وهو كبير . لاتخلو

مناسبة الا ونظم فيها . وديوانه : « عنوان البيان عن شرح الزمان في سوريا ولبنان وما حدث مع الباشا سلطان في عهد الاتراك والافرنسيين حتى الآن... » وهذا الكتاب عبارة عن تأريخاً لحياة سلطان باشا الاطرش . يتكلف الجناس تكلفاً . ويعاب عليه المرح المتكلف طلباً للرزق . ومن اشهر قصائده تلك التي يصف فيها حرب بني معروف مع بدو السلوط عام ١٩١٥ ومن هذه القصيدة :

البارحة اشفيت انا راس نابي وكظ عالشفين براس نابي
مرسال علم عن ربوعي ونابي علم الثبات ولا تخل التحارير
حضور من الهيت عاراً وبهتان

سلطان بنده يارفاقي كفتنا والبذر في كبد الاعادي كفتنا
نحن المراجل والحرايب كفتنا حريبنا ماتام ليله على خير
نسقيه كأس السم بالسيف والزان

هذا لون من الشعر متشابه تقريباً في جميع نواحيه لايتعدى الوصف والحنين والحكم . واما النواح والرثاء فقد تركه شعراء الجبل للنساء . غير انهم أجادوا بالعتابا ولا سيما شبلي الاطرش .

ومن أشهر الذين أحسنوا العزف على الرباب .

سلمان عبدي الاطرش كامر معنا . والمرحوم احمد مكنا ومزيد الدعبل ونواف ابو شهدا وغيرهم كثيرون .

الشعر الفصيح

وكما نبغ من أبناء الجبل شعراء اهتموا بالشعر العامي كذلك نبغ وجد شعراء فصحاء أمثال سلامه عبيد ابن الشاعر الشعبي علي عبيد . تنقل في وظائف التربية والتعليم من معلم ابتدائي الى معلم ثانوي الى مدير للثانوية الى مدير للتربية والتعليم . وهب نفسه لواجبه . ثم أصبح نائباً في مجلس الامة عام ١٩٦٠ . هو كثير النشاط والعمل . مبتكر في اعماله . واضح في تفكيره . درس في معاهد دمشق ثم انتقل الى لبنان فدرس في الجامعة الوطنية في عاليه ثم أتم دراساته

العالية في التاريخ في الجامعة الامريكية . وهناك أشرف على تحرير مجلة العروة الوثقى .

ورقته تنعكس في شعره الرقيق وصفاً كان أم غزلاً ، وله في الوطنية جولات عملية وشعرية في نفس الوقت رافق النضال ضد الفرنسيين المستعمرين منذ طفولته . وعمل في مدرسته وفي بيته وكان في طليعـة الشباب في النضال . وانعكست حياته العملية على شعره فمن قصائده الوطنية عندما طرد الفرنسيون من سوريا تلك التي مطلعها :

اليوم تفتـــح الطريق فلا هجوم ولا رجوع

وله قصائد رائعة منها تلك التي نظمها عندما ضرب الفرنسيون دمشق ٢٩ ايار سنة ١٩٤٥ ومطلعها :

من دمانا ايها السفاح من دمع اليتامى والأيامى ...

وتؤثر الوظيفة عليه فيقل انتاجه . إلا أن نشاطه لايفتر ...

ومن شعراء الجبل يمكننا ان نذكر علي سيف الدين القنطـار . فهو شاعر وأديب . شاعر عامي وشاعر فصيـــح في نفس الوقت عركه الدهر فانعكست حياته بشعره فمال الى الشعر الحكي . له قصيدة زجلية يصف فيها أنواع الرجال وينعي عليهم عدم وفائهم وتسابقهم الى المنافع الخاصـة . وفي شعره الفصيح ينظم على طريقة الاقدمين حيث جودة اللغة وعدم التجديد في الاوزان وطرق التعبير . فمن شعره الفصيح :

وليس وقوفي عن زهوق وانما وقفت وقوف الناقد المتألم
فما راعني الا تخنث فتيـــة وأزياء مموها سبيل التقدم

ومن الشعراء في الجبل كثيرون منهم الشيخ حسين ابي فخر وصابر ملحوظ وله قصائد سياسية تؤرخ الاحداث . ويحاول ان يأتي بجديد دائماً في شعره . وهناك كثير من الشعراء المغمورين الذين سوف تتيح لهـــم الايام الفرصة لنشر شعرهم .

وأما من ناحية النثر فاننا نرى كثيراً ايضاً من أبناء الجبل من تخصصوا باللغة العربية غير ان انتاجهم قليل لا بل بعضهم عديم الانتاج اطلاقاً وبعضهم قام بعدة محاضرات وندوات كلفتهم بالقيام بها شعبة الثقافة والارشاد القومي في السويداء . غير اننا نرى الذين تخصصوا بالتاريخ اكثر انتاجاً سواء من ناحية المحاضرات أو الندوات أو التأليف . ويلاقي أبناء الجبل كثيراً من التعب لا بل الصعوبة الشديدة في نشر كتبهم ، لان حـالتهم المادية لم تساعدهم على ذلك .

وقد حاول المثقفون من أبناء الجبل ان يجدوا بينهم رابطة مساهمة لنشر الانتاج الادبي في الجبل غير ان هذه الجهود كانت تصطدم في كل مرة بالصعوبات المادية . والامل قريب في ان هذه الصعوبة ستذلل .

آثار الجبل

عرف جبل العرب الانسان منذ أقدم العصور . فقد سكنه منذ ماقبل التاريخ وتدل على ذلك الآثار الحجرية التي خلفها هـذا الانسان في بعض البقاع . ولا نعثر على أي أثر من آثار الشعوب القديمة التي تعرضت البـلاد لغزواتها كالاكاديين والبابليين والاشوريين والفراعنة والفرس . وأهم الامم الفاتحة التي خلدت آثارها فيه هم اليونان والرومان . مع العلم بان سكان البلاد الاصليين هم عرب منذ أقدم الموجات السامية التي توطنت في هذه البلاد .

وجدت الادوات الصوانية في اكثر البقاع عند عين بدر وتل الحديد وطريق قنوات تل اخضر امتان وتل القليب .

ترك الصفويون العرب الذين استقروا على المنحدر الشرقي من الجبل وفي الصحراء التي تمتد جنوبا الى شرق الاردن كتابة في تل النمارة وصور جمـال ومحاربين رماحهم بأيديهم .

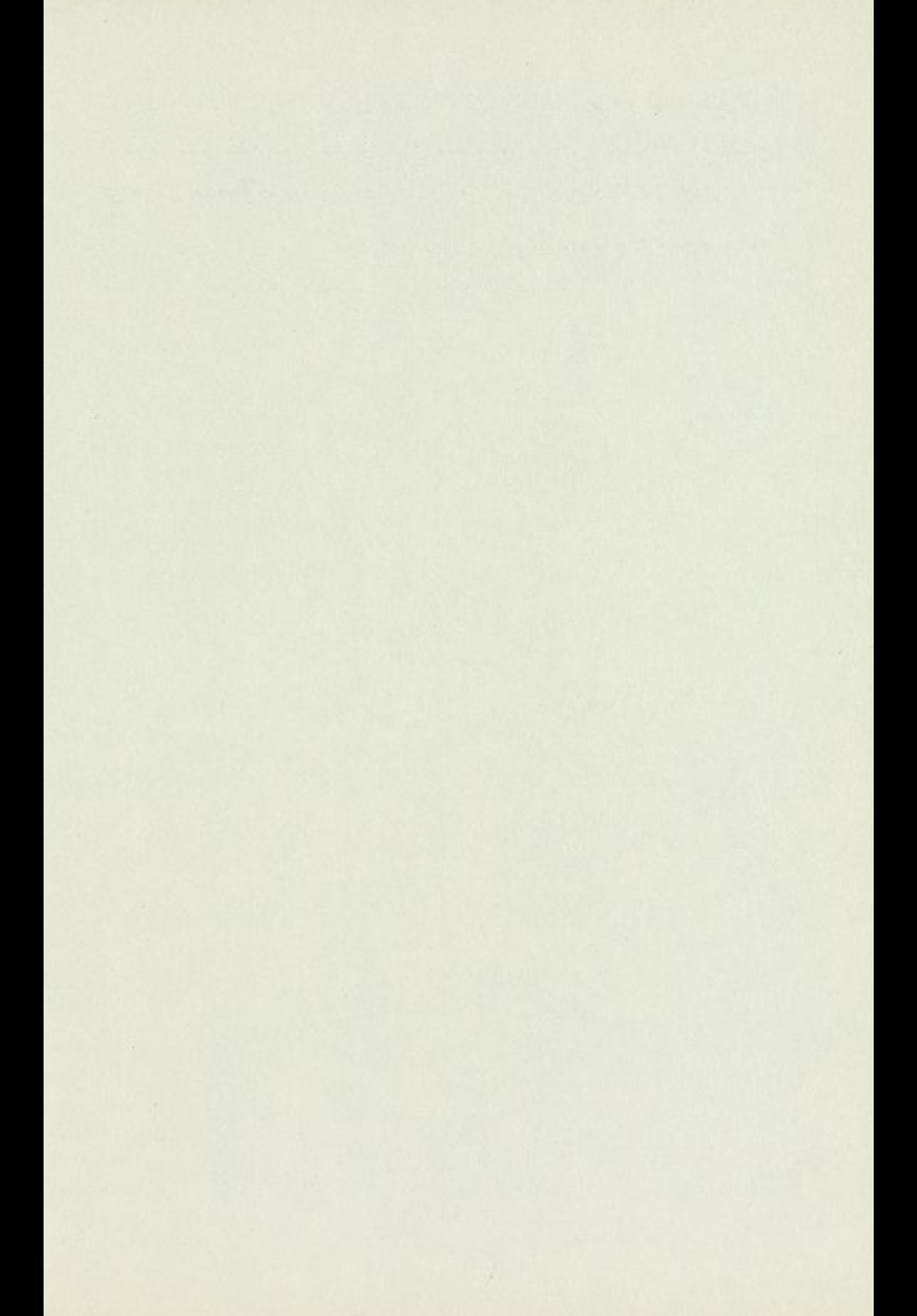
وترك الانباط الذين ورثوا الحضارة اليونانية السلوقية آثارهم العمرانية في السويداء وقنوات وصلخد و كثيراً من الكتابات والابراج . أهمها في قنوات الى يمين وادي الغار . و كذلك في سيع وهو معبد الاله « بعل شميق » والاعمدة الباقية في السويداء هي بقايا معبد الاله ذي الشراة . وبركة السويداء (السورية) هي بركة نبطية وقلعتها قلعة نبطية . وهناك كثير من التلال التي بنى فيها الانباط قلاعهم مثل تل قنوات وتل أبي قاسم وتل المليحة وتل الجنية . وترك اليونان السلوقيون كثيراً من الكتابات و كذلك الرومان تركوا كثيرا من الآثار منها المعابد كمعبد حيران ومياس وقنوات (معبد الاله الشمس ومعبد الاله تروس) ومعابد عتيل وسليم وبريكه والمشنف وشهبا التي بناها الامبراطور فيليب العربي بين عامي ٢٤٤ - ٢٤٩ م ومعابد في ام الزيتون والهيات وشقا وشهبا ويطلق عليها اسم كليبة .

ومسارح في قنوات وشهبا والسويداء . وحمامات في كل من شهبا وقنوات ومساكن كثيرة تتميز بكثرة الأقواس والاعمدة والنوافذ الضيقة والابواب الحجرية . وبنوا الفنادق (الخانات) والقصور كما في شقا وتركوا مقابر كثيرة كما في شهبا (مقبرة الامبراطور فيليب العربي) وفي ريمة اللحف وقنوات وذبين وحما البردان وبكا . وحفروا خزانات للمياه لتخزينها لوقت الحاجة اليها كما في قنوات . وجروا المياه الى كل القرى وحصنوا المدن وبنوا الابراج كما في قنوات وشقا وملح وعرمان . ومدوا الطرق وأهمها تلك التي تؤدي من السويداء الى سيع ومن بصرى الى صلخد ومن بصرى الى شهبا مارة بالسويداء وسليم . وطريق صلخد ـ امتان . وبوسان ـ السويداء واعظم هذه الطرق هي طريق اللجاه ، والطريق التي تؤدي من أقصى الشمال الى البحر الأحمر جنوبا مدها الامبراطور تراجانوس خلدت العجلات آثارها فيها . وتركوا أبواباً في مفترق الطرق كما في شهبا و كذلك أقواس النصر كما في شهبا وبصرى .

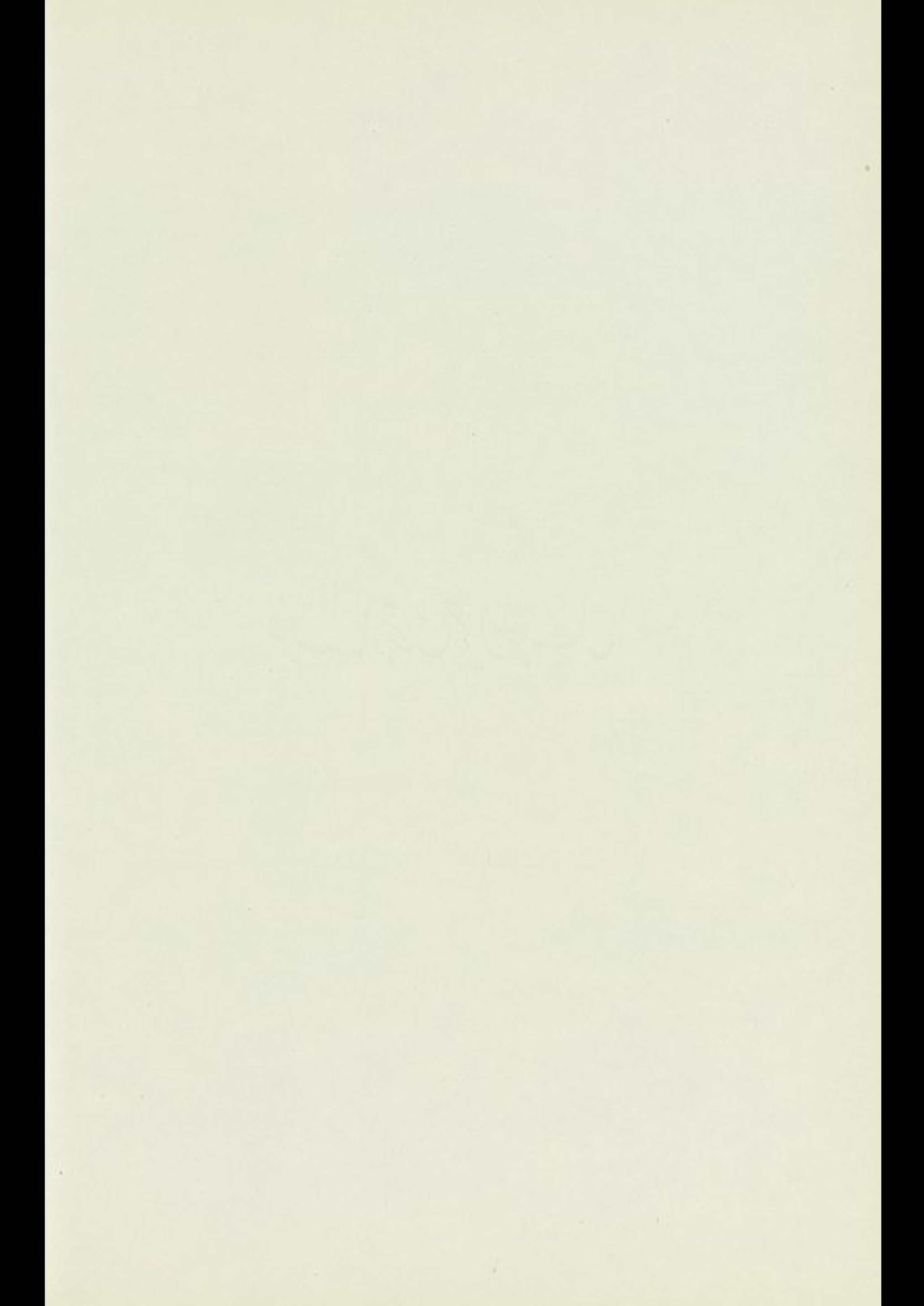
وترك الرومان المسيحيون (البيزنطيون) كثيراً من الكنائس كما في

السويداء وقنوات وحما البردان وعوس وغره وطفحة وعمره وشقا وكثيراً من الاديرة كدير شقا ودير النصراني شرقي ملح ودير ملح . وكانت الابراج تقام الى جانب هذه الاديرة . وتركوا كثيراً من المقابر كما في قنوات والمجدل.

وترك الايوبيون كثيراً من الآثار . أهمها في صلخد ، اذ جعلوها حصناً منيعاً لشن الهجمات على الصليبيين ابان الحروب الصليبية .



فرنسا تحتاج الجبل



ظل الجبل بعد خروج الاتراك من البلاد يدار عشائرياً مدة طويلة ، ولما احتل الفرنسيون دمشق في ١٩٢٠/٧/١٥ اخذوا يبسطون سلطانهم على المناطق السورية ولم يدخلوا الجبل الا في اواخر ذلك العام . وكانت سياستهم أن يجزئوا البلاد الى دويلات متفرقة تخضع للسيطرة الفرنسية لكي يمنعوا توحيد نضال الشعب ضدهم ويكثروا من طبقة المنتفعين بوجودهم ، ولذا فقد اعلنوا استقلال الجبل في ١٩٢١/٤/٥ وأصدر غورو أمراً الى الامير سليم الاطرش بتأليف أول حكومة فيه واستطاع هذا ان يجعل بعض أنصاره يؤيدون الاستقلال ويساهمون في ادارة « حكومته » ولكن توطيد الغزو الفرنسي لم يسر الا ببطء شديد فقد ظل نصف الجبل على وضعه السابق مع وجود الفرنسيين في النصف الآخر الى ان فقد الوطنيون الأمل القريب بطرد فرنسا خاصة والبلاد السورية كلها اصيبت بركود وطني على اثر دخول الاستعمار وحل الحكومة الفيصلية . وقدرت السلطة الفرنسية ان الثورة عليها ستنشب من الجبل فاستدعت احد ضباط أركان حرب الجيش العراقي سامي باشا الفاروقي الذي قاد الحملة التركية على الجبل في ١٩١٠/٨/١٠ ووقفت منه على اسرار الخطط الحربية التي اتبعها بمهاجمة الجبل ورسمه لها خريطة بمواقعه الحربية [١] وألحت باغرائها على المتنفذين وجندت فصائل من الشباب في جيشها وكانت دعايتها تتركز على اذكاء التعصب الطائفي وبث الخلافات المحلية لتبقى لها اليد الطولى على الدوام .

وأرادت فرنسا ان تعطي للصورة المزيفة التي خلقتها كل الخطوط التي توهم بصدقها ، فجعلت يوم الخامس من نيسان عيداً وطنياً اسمته عيد الاستقلال واحتفلت به لأول مرة في ١٩٢٢/٤/٥ وكان الكومندان (ترانكا) مستشاراً

---

(١) تاريخ الثورات السورية . ادهم آل جندي ص ١٨٥

للأمير سليم منذ توليه رئاسة « الحكومة » فلما توفي الامير سليم في ١٩٢٣/٩/٥ وكان ترانكا قد غادر الجبل منذ شهور قليلة عين الكابتن كاربيه حاكماً للجبل[1] .

الادارة الفرنسية في الجبل :

قسم الجبل الى ثلاثة عشر ناحية وشكلت ادارات للمالية والمعارف والاشغال والداخلية يرأس كلا منها موظف فرنسي وترتبط بالحاكم العام ومع أنه وظف بعض المواطنين في هذه الادارات الا ان السلطة الفعلية كانت بيد الفرنسيين ومارس كاربيه وأعوانه مختلف ضروب الضغط والسيطرة فكان شديدة الوطأة على السكان منذ قدومه حتى خرج قبيل الثورة الكبرى[2] في ١٩٢٥ . واصبح ابناء معروف على تصرفاته وذكروا نائب المفوض السامي في دمشق بأن الوعود التي قطعت تجعل للجبل حاكماً من ابنائه فجاء الرد من من المفوض السامي في بيروت الجنرال فيجان بذار اصدره بتاريخ ١٩٢٤/١٢/٣ يثبت فيه كاربيه كحاكم للجبل[3] .

واحتج واضحاً ان الاستعمار كان ينظر الى تشتيت البلاد كأمر يجب دوامه فالجبل لايرتبط لا يرتبط بدمشق تكون صلته مع المفوض السامي في بيروت مباشرة .

ومن الطبيعي ان يستغل الموظفون الفرنسيون مراكزهم للاثراء السريع والبطش والتحدي وهم يتحكمون دون رقيب على أعمالهم وسنورد في الفصل الخامس بأسباب الثورة نماذج متنوعة لتصرفاتهم المخزية .

الثورة الاولى في الجبل :

صدق حدس الفرنسيين وتقديرهم لأن الهدوء الذي قوبلوا به لم يدم

---

(١) عبد الله النجار - بنو معروف في جبل حوران ص ١٤٧

(٢) المصدر السابق نفسه - ص ١٤٨

(٣) امين سعيد - الثورة العربية الكبرى ص ٢٩٤

ونشبت الثورة ضدهم بعد أول عيد للاستقلال أقاموه بقليـل ، ويتلخص سببها المباشر بلجوء الشهيد أدهم خنجر الذي كان قد أطلق النار على غورو وهو في طريقه من دمشق الى القنيطرة بتاريخ ١٩٢١/٦/٢٣ فحوكم غيابياً وتقرر اعدامه .

وفكر بعد فترة من الاختفاء ان يلجأ لسلطان الاطرش بالقريا لمـا عرف عنه من عداء للفرنسيين ولأنه كان أول قائد عربي يدخل دمشق في طليعة الجيش العربي الفيصلي . ووصل الى القريا مساء ١٩٢٢/٧/٢١ [1] ومعه بضعة فرسان ملثمين وقبل ان يلتقي بسلطان قبضت عليه القوة الموجودة في مديرية الناحية وطلب من المدير ان يرى سلطانا ولكن هذا رفض وساقـه في نفس الليلة الى السويداء .

وعلم سلطان الاطرش في اليوم الثاني بقضية لجوء ادهم خنجر وحجزه من قبل السلطة لان ادهم أرسل له كتاباً من السويداء مع قائد سجونها يخبره فيه بلجوئه واعتقاله وبأن المشنقة تنتظره ويؤكد فيه استعداده للمثول أمـام اية محكمة تعقد للنظر في قضيته .

فأرسل سلطان أخاه علياً للسويداء حتى يتوسط مع ترانكا لتسليم ادهم ويتعهد بالمحافظة عليه حتى يقدم الى المحاكمة ولكن ترانكا رفض ذلـك وتهدد (سلطان) ووجد في موقف بعض الوجهاء تأييداً له .

ولما علم سلطان الاطرش بالخبر ارسل (مفزعاً) [2] الى القضاء الجنوبي وطلب ممن يريد خصام الفرنسيين ان يأتي للسويداء .

وهكذا لم يمر يومان حتى كانت السويداء محاصرة من الثوار ، ولم يبق أمام السلطة الا محاولة التفاهم فأصر الثوار على اخذ أدهم معهم وابرقوا الى سليم

---

(١) عبد الله النجار ـ بنو معروف في جبل حوران ص ١٣٣

(٢) المفزع : هو الشخص الذي يخبر القرى بالحادث الهام ويطلب اليهم النجدة وينتقل فارساً من قرية لأخرى .

الاطرش حاكم الجبل الامين الذي كان يومها في دمشق وأرادوا انتظاره على الطريق وبدلا من وصوله فقد اصطدموا برتل من الدبابات قادمـاً للسويداء بطريق (تل الحديد) [1] واتضح لهم ان مفاوضة السلطة لم تكن الا محاولة منها لكسب الوقت وان مهمة الدبابات ليست الا تفريق المحاصرين وسوق ادهم خنجر الى بيروت فصدموها صدمة قوية ودارت مع الرتل معركة خاطفة سميت فيما بعد **بمعركة تل الحديد** وكانت نتيجتها تحطيم اربع دبابات وفرار الخامسة واستسلام اربعة جنود بينهم ضابط وقتل الآخرين ولم يستشهد من الثوار أحد.

وقبل ان يغادروا مكان المعركة وصل سليم الاطرش من دمشق ورأى القتلى والاسرى فطلب من الثوار الهدوء وتعهد بحل القضية وديا مع الافرنسيين فتسلم الاسرى وذهب بهم للسويداء .

وشعر سلطان بخطأ تسليم أسراه لانهم كانوا خير فداء لأدهم خنجر ولكن وعود الامير سليم لم تفلح فاقناع الافرنسيين لم يكن سهلا وهكذا فقد تأزم الموقف وتداول الثوار بأمر الهجوم على السويداء .

وبعد اربعة ايام من الحصار وبعد ان توسطت في حل المشكلة وفود كثيرة وعد الفرنسيون بتسليم أدهم خنجر ، واشترطوا ان يتفرق الثوار ، ويظل سلطان مع عدد قليل لاستلامه ، وقبل المحاصرون الوعد ، فتفرقوا لأن التهيئة لم تكن موجودة ولا يصح ان ينفرد الجبل بتقريرها قبل التشاور مع المناطق السورية الاخرى .

تفرق الثوار وبقي سلطان مع عدد قليل منهم وذهب الى قرية قريبة جنوب السويداء تدعى (العفينة) بانتظار وصول ادهم ولكن الفرنسيين أرسلوا طائرة استكشاف تأكدت من فك الحصار ثم ضربوا القرية بالطائرات فهدموا دار سلطان وأوقعوا الرعب في نفوس اهل البلدة فتفرقوا منها وكانت هذه هي المرة الأولى التي يضرب بها الجبل بالطائرات .

---

(١) تل الحديد : هضبة تقع غرب السويداء وكان الطريق القديم يمر منها .

وأدرك أهل الجبل ان اياما مريرة تنتظرهم مع دولة لاتحترم وعودها ولا تأبه لكث العهد والغدر بالآمنين ولا تفرق بين امرأة وطفل وشيخ حين تصب قنابلها ونيرانها .

ولدى عودة سلطان الى القريا جهز مايلزمه في سفر طويل ، وخرج بأهله والمقربين منه الى بادية بني الحسن في جنوب غرب الجبل وقرر مناوشة الفرنسيين من هناك . ومن الطبيعي ان يصبح جمع مثل العدد الاول صعباً لأن السرعة لاتجدي في قتال دولة كفرنسا ان لم تقترن بتهيئة طويلة .

في ديار بني الحسن ضربت بيوت الشعر واتخذت مقراً للثوار القليلي العدد وجرى اتصال مع رجال الحكومة السورية الفيصلية الذين كانوا يومها في عمان فقدم منهم رشيد طليع ووعدهم بان الاحرار لن يسكتوا على غدر فرنسا واتفقوا واياه على الاستمرار في العصيان .

وأرادت السلطة مضايقتهم فأخذت ترسل قوة من الجيش الى القرى التي إلتحق بعض افرادها بسلطان لكي تحصد غلالهم وخاصة «بيادر» [1] القريا وبرد ولم يكن امام الثوار الا الرد عليها فتصدوا القوة من الجيش الفرنسي قرب برد يوم ١٩٢٢/٨/٧ فأوقعوا بها خسائر فادحة ولا يزال قبر احد ضباطهم مكان المعركة حتى اليوم .

وبعد مدة بعثوا رسولا الى سلطان يحمل كتابا من يوسف الشويري صديقه ، وفيه ان السلطة الفرنسية في بصرى قررت ايفاد احد الضباط ليتفاهم مع الثوار ويحقق مطالبهم على ان يتم الاجتماع في قرية (سمج) ولم يكن هناك مجال للشك في اخلاص الشويري فاتى عدد من الثوار على رأسهم سلطان في اليوم المحدد الى (سمج) وقرروا عدم المبيت فيها فناموا قريبا منها ورأوا مع الفجر ان الجيش الفرنسي وقد طوق القرية ثم دخلها ونكل بأهلها وكاد يقتل يوسف الشويري من الضرب المبرح وحاول عبثا ايجاد الثوار فيها .

---

(١) البيادر ج بيدر هو المكان الذي تجمع عليه الغلال في الصيف لاستخراج حبوبها .

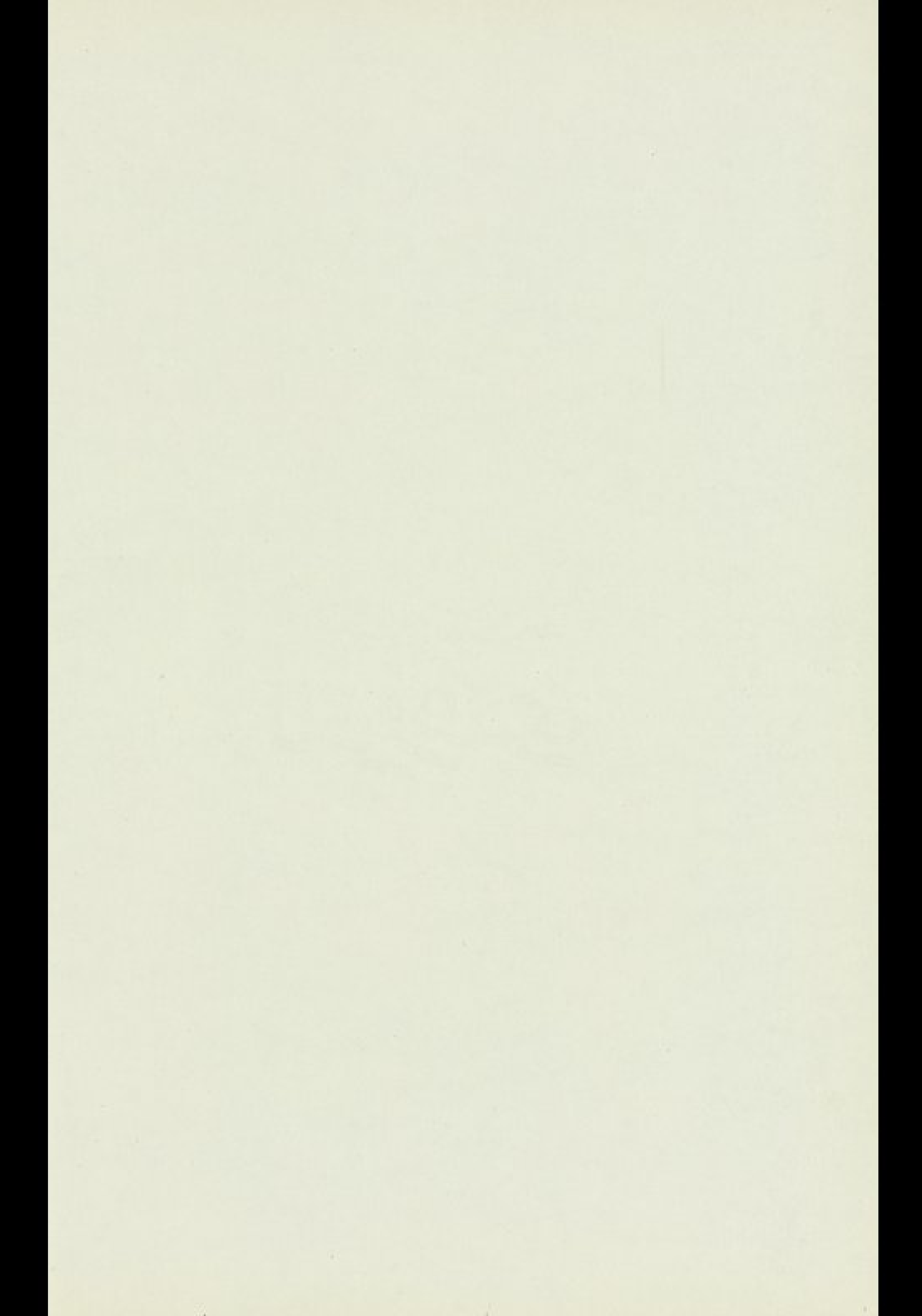
وبعد ان خلت القرية رابط الثوار في واد لابد من اجتياز الجيش له، وفاجأوه بنار حامية فبوغت وأخذ يطلق الرصاص على غير هدى وظلت المعركة مستمرة اكثر من خمس ساعات حتى حلول الظلام و كسب الثوار فيها كثيراً من الاسلحة والذخائر ولم يسقط منهم في ميدان الشهادة أحد .

ولم تجر بعدها معارك ما، إلا ان الفرنسيين ضربوا قرية ام الرمان بطائراتهم في ١٩٢٢/٨/٢٧ وظل الثوار يعيشون في خيامهم سنة كاملة .

وكانت الوفود الوسيطة لا تنقطع وكلها تطلب منهم العودة لأنه لا يصح بقاؤهم بعيدين وحدهم ويجب الانتظار والتهيئة لفرصة أخرى وعلموا من آخر وفد زارهم في نهاية آذار ١٩٢٣ ان توانكا قد اعفاهم من كل مسؤولية وسيعلن العفو العام في عيد الاستقلال القريب .

وكانت الآراء قد اتفقت بينهم وبين الاحرار المبعدين في عمان على العودة والانتظار فرجعوا الى السويداء في ١٩٢٣/٤/٥ ولم يبق في احتفال العيد أحد لأن الناس استقبلتهم بغاية الحماس والحنين ، وغاظ توانكا تركه وحيداً مع جنوده محتفلا بالاستقلال الذي فرضوه فحاول الغدر بالثوار مرة اخرى، ولكن حماس الجماهير وغضبها جعله يعدل عن رأيه الذي ابداه، ويعلن العفو العام عنهم واحلالهم من مسؤولية . وكان ادهم خنجر لا يزال في السويداء فنقلوه بالطائرة الى بيروت واعدموه .


الجيل يستعد
للثورة الكبرى



ماهي الاهداف الفرنسية في الجبل ؟

لم تكن اهدافهم فيه تختلف عنها في المناطق السورية الاخرى فلقد اقنعوا عصبة الامم ومجلس الحلفاء الاعلى بالموافقة على انتدابهم وجاء في المادة ٢٢ من عهد عصبة الامم « ان الانتداب وقتي ، وان مهمة الدولة المنتدبة مقتصرة على بذل الارشاد والنصائح للبلاد التي تنتدب عليها ريثما تتمكن من الوقوف على رجليها » ولكن فرنسا اعتبرت سوريا غنيمة حرب وعاملتها كما يعامل العبيد وكانت امكانيات الاستغلال الاقتصادي لسوريا ولبنان وفسح مجال واسع امام الفرنسيين للعمل والاسترزاق اهم غايتين لها .

وخطب مسيو جيرار في الجمعية الوطنية الفرنسية بباريس بتاريخ ١٩٢٢/٦/٢٣ مصرحاً ان الغرفتين التجاريتين في ليون ومرسيليا كان لهما التأثير الكبير في حمل الحكومة على ركوب هذا المركب وارسلت غرفة ليون لجنة لدرس الحالة الاقتصادية قبل ان تباشر مع زميلتها المارسيلية الضغط على الحكومة التي استجابت لهما وضحت بالآلاف من ابناء فرنسا في سبيل غايتهما ، وكان أمام جيرار وهو يخطب تقرير مفتش جيش الشرق الافرنسي الذي ذكر هذه الحقائق [١] .

ولكن الآلاف المؤلفة لم يكونوا الا من ابناء المستعمرات المجندين في جيش فرنسا ، ونقلت جريدة المارتان بتاريخ ١٩٢٠/١٢/١١ خلاصة مناقشة بين مسيو (لايج) رئيس الوزارة الافرنسية آنئذ وبين مسيو بمبار سفيرها في استامبول وأوضح السفير فيها ان الامر الصادر عن الحكومة بتاريخ ١٩٢٠/١٢/١٠ يجعل الحكم الفرنسي على سوريا مباشراً ودائماً خلاف تعهدها امام لجنة

---

(١) حنا خباز ص ١٢٤

الانتدابات بعصبة الامم فأفحم لابيج ولما سأله بمبار اية سوريا تحتلون ؟ والى متى ؟ اجاب بوقاحة : كل سوريا والى الابد [1] .

وخطب غورو الجنرال الذي احتل سوريا أمام مسيو بوانكاره وزير المعارف ورئيس الجمهورية الفرنسية فيما بعد ، خطب بتاريخ ١٩٢٢/٢/١٨ قائلا : ان لفرنسا حقوقا في البلاد التي احتلتها ترجع الى ايام الحروب الصليبية [2] .

ونشر (المقطم) بتاريخ ١٩٢١/٣/٢٩ تصريحاً للكولونيل (لابيج) رئيس الحامية الفرنسية في اللاذقية يقول فيه : نحن هنا في سوريا وسنبقى الى الابد ، لا نحذف من حصتنا الاحتلالية شبراً .

وهكذا نرى ان فرنسا نظرت الى انتدابها على سوريا كاحتلال فعلي . وسخرت من نصوص عهد عصبة الامم فاعتبرت حكمها ابديا ، وكذبت على التاريخ ،فادعت ان لها حقوقا ترجع الى ايام الصليبين وكان اول عمل صنعه غورو في دمشق ان داس على قبر صلاح الدين الايوبي وقال : ها نحن عدنا يا صلاح الدين .

وكان الدافع الاجرامي لها الطمع الاقتصادي الذي غلفته باحلام العظمة الفارغة فانعكست اهدافها على سياستها في الجبل وعجلت بنقمة الناس واندفاعهم للثورة عليها .

المساوىء الفرنسية التي عجلت بقيام الثورة :

كان هناك وعد من الفرنسيين ان يكون على رأس حكومة الجبل حاكم وطني ،واستلم الامير سليم الاطرش هذا المنصب وعين ترانكا مستشاراً له ولكن المستشار لم يترك للحاكم أية صلاحية فاعتزل المسؤولية في اوائل سنة

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٦
(٢) المصدر السابق ص ١٣٧

١٩٢٣ وأخذ ترانكا يدير البلاد بحكم مباشر . واستجابة لالحاح الأهلين على السلطة لتنقيد بوعدها قدم مسيو شوفللر المندوب المفوض السامي لدي (حكومتي) دمشق والجبل الى عرى وأقنع الامير سليم بالعودة الى (الحكم) فعاد بتاريخ ١٩٢٣/٧/٢٤ وعين كاربيه مستشاراً له[١] وأخذ كاربيه يعطي صورة رهيبة للضغط والارهاب والتدخل في كل الشؤون ولما توفي الامير سليم في ١٩٢٣/٩/٥ نصب نفسه حاكما للجبل ولم تنفع جميع المحاولات التي بذلت لتغييره بحاكم وطني كما تقدم . وعاش الجبل في عهده فترة سوداء لقي فيها كل انواع الظلم والمهانة والسلب والاستبداد على يديه ويد موظفيه وجواسيسه ولا يزال المعمرون في الجبل يتذكرون ذلك العهد وفي أجسام الكثيرين منهم آثار للضرب أو لتكسير الحجارة وفي روحهم جراحات عميقة لا تندمل .

ومن الصعب ان نلم بكل التفاصيل المخزية التي ارتكبتها السلطة واذا كنا سنذكر بعض الحوادث بأسماء أصحابها فما هي الا عينات لوضع استمر سنتين .

وقد تعددت المظالم وشاع خبرها في الجبل وخارجه وكانت قاسية لا يمكن ان يقدم على ارتكابها سوى فرنسا وهذه بعضها :

١ – **التجسس على المواطنين :** اعتمدت السلطة على جواسيسها وأطلقت يدهم في الوشاية الكاذبة حتى تحول جهاز التعليم الى جهاز لمراقبة المواطنين ، وكانت السلطة تأخذ بأقوال جواسيسها دون تحقيق ولا يهمها صدقهم كثيراً وانما غايتها ان تلقي في السجون عدداً أكبر وتعذب من الناس أفواجاً جديدة .

فلقد سجن حامد قرقوط من ذيبين خمسة أشهر وتمزق جلده وكسرت أضلاعه من الضرب ثم تبين ان الوشاية كانت كاذبة أصلا ولم ينل مقترفها عقاب . وسجن الشيخ سعيد طربين وأخوه سليمان وغيرهما مدة شهر ونصف مع تكسير الحجارة دون أن يسألا عن شيء .

---

(١) عبد الله النجار – بنو معروف ص ١٤٧

ونال الاعتداء الموظفين كما نال غيرهم فقد أوقف قائمقام صلخد وضرب وأهين أمام الناس دون تحقيق ما وهو السيد فهد الاطرش والد الفنان العربي الكبير فريد الاطرش .

وأوقف سليمان نصار مدير ناحية سالة مدة شهر ونصف قضاهـــا في تكسير الحجارة دونما سبب .

وكان حظ المسيحيين كحظ الدروز فأوقف ثلاثـــة منهم من خربا وضربوا وأهينوا وكسروا الحجارة .

وكانت هـذه الحوادث تتكرر كل يوم فأية وشاية تكفي لتزج أي شخص بالسجن حيث يلقى الضرب الشديد والاهانة وتكسير الحجارة دون سؤاله عن صحة ما نسب اليه أو السماح له بالدفاع عن نفسه .

٢ ـ اهانة الاهلين تعمداً : أراد الفرنسيون ان يفرضوا على الناس احترامهم بالقوة فكان لزاماً على كل شخص يرى أحدهم ان يحييه ولو كانت الاعراف تقضي بالعكس فالمار يحيي الجالس مثلا والواحد يحيي الاثنين اذا كانوا سائرين وأما تحية الافرنسي فلازمة سواء كان هناك وطني واحد او جمع غفير او كان الاجنبي جالساً او سائراً .

ونكل ممثلو فرنسا بكل من تخلف عن اداء هذا (الواجب) ولو كان تخلفه غير مقصود .

فقد تمزق جلد السيد حسن كبول من (ريمة اللحف) ضربا بالسياط لانه لم يلق السلام على (الكابورال دي بوشيل) .

وسجن السيد محمد رضوان من السويداء خمسة عشر يوماً وضرب ضربا مبرحاً وطرد من وظيفته لأنه لم يتنبه لمرور احد الضباط الفرنسيين فيحييه .

٣ ـ الاستقبالات الحافلة لموظفيهم : تمت هذه الاستقبالات بالضغط الشديد وحدث ان تغيب السيد حسين حديفه من قرية الكفر عن استقبال

(كاربييه) فسجن خمسة عشر يوماً وضرب وأهين ثم غرمت قرية الكفر كلها عشرين ليرة عثمانية ذهبية .

ولم يرض كاربييه عن استقبال اهل عرمان له فغرمهم مبلغ عشرين ليرة ذهبية كذلك .

٤ ـ **تغريم الاهلين**: كثر تغريم الناس لمختلف الاسباب فقد غرم أحد أحياء السويداء ثلاثة عشر ليرة ذهبية لان أحد مصابيح البلدية قد سرق ثم تبين ان السارق احد جواسيسهم .

وضاعت هرة لزوجة الليوتنان موريل فغرم أهل السويداء كلهم عشر ليرات ذهبية ثمناً لها .

٥ ـ ادخل احد الجواسيس في روعهم ان كل من يسعل يلعن الفرنسيين، وسجن العشرات من الاشخاص لان السعال فاجأهم بحضور الافرنسيين وبقي السيد خزاعي الحلبي شهرين كاملين في السجن بجريمة (سعاله) أمام افرنسي.

٦ ـ الرشوة : لم يكن موظفوهم يقضون أية مصلحة للمواطن ان لم يدفع رشوة كبيرة حتى فاقوا بها الاتراك وأثاروا الاشمئزاز العميق من الجميع.

٧ ـ كان من حق اي دركي (شرطي) ان يضرب من يشاء او ساعة يشاء وكانت العصا لا تفارق يده اينما سار .

٨ ـ اتخذ كاربييه زي المتدينين فأطال لحيته ولبس العمامة وكان مصابا بشذوذ جنسي فاتخذ له عدداً من الفتيان يعاملونه كما تعامل النساء وكان ينتقيهم علناً وبزيه المتدين مما اعتبره الناس تحدياً لهم .

ولم تكن هذه الاعمال مقتصرة على بعضهم دون الآخر وانما كان كل افرنسي صورة للظلم والارهاب والقسوة والباحث عن تاريخهم في سوريا يرى أفعالهم في كل مناطقها صورة لافعالهم في الجبل .

تنبه الروح الوطنية وانتشار الوعي والاستعداد للمقاومة :

استطاع الفرنسيون ان يجدوا بعض المناصرين لسياستهم في الجبل

فتجنبوا مقاومته عند دخولهم وتم لهم ما أرادوا من عزله عن المناطق السورية الأخرى، ولم تظهر حركة ايجابية اول الامر تتصل بالوطنيين فيه من دمشق أو غيرها لان زوال الحكم الفيصلي بتلك السرعة أفقد الوطنية روح المبادرة زمناً ليس قصيراً . واعتقدت السلطة الفرنسية ان الاكاذيب التي كانت تنشرها على الدوام مثل استقلال الجبل وتخويف سكانه من اعتداءات الحوارنة والدمشقيين يمكن ان تعيش طويلا وبلغ التخريف بأحد كتابهم (بورو) ان نشر كتابا باللغة الفرنسية يربط فيه بين أصل الدروز وبين فرنسا بل لقد نسبهم الى مقاطعة (دروا) الفرنسية .

ولكن هذه الاكاذيب التي شقت لها طريقاً الى قلوب بعض المخدوعين والانتهازيين والمتدينين وجدت في طريقها سداً وطنياً منيعاً وقلوباً لم تابه لها لأنها قررت محاربتها . فمنذ اليوم الاول لدخول الفرنسيين أرض الجبل برز تيار وطني لم يرض عنهم ولم يمالئهم وعرف عن سلطان الاطرش منذ البداية أنه أحد أقطاب التيار الوطني .

ومع كل خطأ يقع فيه الفرنسيون وما اكثر الأخطاء والجرائم التي اقترفوها - يزداد الوطنيون أنصاراً فلما نشبت الثورة الأولى لبى نداءها ابناء الجبل بالآلاف .

وتردد صداها في المناطق السورية فدخلت حلبة الصراع عناصر شعبية كثيرة (١) وحاول أهل الجبل في كل مناسبة يأتي فيها أحد المسؤولين الفرنسيين لزيارتهم ان يشكو ظلم السلطة ولكن شكاواهم لم تقبل ، بل كانوا ينبهون سلفاً بضرورة الصمت ويهددون بالعقاب الصارم اذا رفعوا اصواتهم .

وحدث أثناء حكم كاربيه ان عقدوا اجتماعاً سريا في عرى، ووقعوا فيه عريضة تطالب بتعيين حاكم وطني مكان كاربيه، ثم حملت العريضة سرا الى دمشق

---

(١) الثورة العربية الكبرى ج٣ ص ٤٤٢

فلم يصغ لها وأجبر السكان بعدها على توقيع عرائض جديدة تطالب بابقاء كاربييه وتثني على جهوده [1] .

وأتت الاخبار ان المفوض السامي الجديد الجنرال ساراي سيزور الجبل في عيد الاستقلال الرابع ١٩٢٥/٤/٥ فأجمع رأي الاهلين على مطالبته برفع المظالم عنهم وهيأوا له مطالبهم مكتوبة ولما سلموها اله طواها ولم يقرأها وأبدى رغبته بان يقابله وفد منهم في دمشق ، وسافر الوفد كما رغب المفوض السامي وكانت نتيجة المقابلة ان طرد اعضاءه وأمرهم بمغادرة دمشق خلال ساعتين واعتقل العضو المسيحي فيه السيد عقلة القطامي ونفاه الى تدمر لانه كبر عليه ان يتحد المسيحيون والمسلمون في مقاومة فرنسا [2] .

وكان الوطنيون في هذه الاثناء ينتظرون المناسبة لاستئناف النضال كما تعودوه نضالا حربياً يجابه القوة بالقوة فترك سلطان الاطرش داره مهدمة ، وسكن في بيت من الشعر كان المتحمسون يفدون اليه باستمرار .

وانتعشت الحركة الوطنية في داخل سوريا عندما استبدل المفوض السامي فيجان بالجنرال ساراي في ١٩٢٤/١١/٢٤ وأخذ اقطابها في دمشق والمدن السورية الاخرى يتصلون ببعضهم وتألف حزب الشعب برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر فوجه الحزب انظاره الى الجبل واتصل بزعمائه المعروفين بوطنيتهم فعقدت المواثيق الجازمة بأن يتحد الجميع في العمل على اخراج الفرنسيين وضم الأجزاء السورية الى بعضها .

وأصبح الجبل مقترنا بمعنى جديد لم يتضح ايام مقاومة الاتراك وهو ان مقاومة الاستعمار ترتبط بالعمل القومي الشامل في خطة واحدة لجمع اجزاء سوريا الشقيقة واستقلالها .

غياب كاربييه : نال كاربييه اجازة شهرين بتاريخ ١٩٢٥/٥/١٨ يقضيها

---

(١) امين سعيد : الثورة العربية الكبرى : ٢٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦

في فرنسا وعين وكيلا له في غيابه الكابتن رينو وأحس أهل الجبل مباشرة بان الكابوس قد تخلى عن صدورهم فكثرت الاتصالات والزيارات وبرز الوطنيون للعمل الحاسم فشكلوا لجاناً تهيىء للثورة وتتصل بمناطق الجبـل المختلفة وأختير سلطان الاطرش ليرأسها (١) وتقرر ان يكون العمل الظاهري طلب نقل كاربييه وإبداله برينو ليحرج الفرنسيون من جهة وليتغاضى هذا عن نشاطهم من جهـة ثانية وهم واثقون ان المفوض السامي لن يلبي مطـــالبهم فوقع ابناء الجبل عرائض كثيرة تطالب بنقل كاربييه وأبرق الموظفون الوطنيون الى سراي قائلين: نرجو من الجنرال ان يقبل استقالتنا اذا رفض ابدال كاربييـه لاننا لانستطيع العمل معه .

وأبرقت اللجنة العليا الى برونة مندوب المفوض السامي في دمشق طالبة ان يقابل وفدها الذي تكون من ثلاثين شخصاً معروفاً ، وحمـل عريضة قدمها للمندوب في ١٩٢٥/٦/١٦ وقد جاء فيها : ان جبل الدروز جزء لايتجزأ من سوريا تجمعه بها جامعة اللغة والجنس وتربطه بها روابـط اقتصادية مستحكمة الحلقات . وتطالب من فرنسا ان يسود القانون في الجبل وان تسمع شكاواه واخيراً ترجو ابدال كاربييه بحاكم فرنسي هو رينو فوعدهم ان يتوسط لتحقيق مطالبهم عند الجنرال ساراي فتوجه الوفد الى بيروت لمقابلتـــه ولكنه رفض استقبالهم وهددهم بالاعتقال والنفي ان لم يعودوا في الحال على اعقابهم . وكانت خيبة الوفد في مسعاه نجاحاً تاما لخطة الوطنيين في الجبل وآخر خيـط تمسك به المترددون والمتخوفون من الثورة والمؤيدون للانتداب .

فلم يكد يصل السويداء حتى عمت النقمة كل النفوس واجتمع زهرة الشباب في السويداء برئاسة سلطان الاطرش وطلبوا الى المجلس الوطني في الجبل ان يوافق على تنحية كاربيه فاجتمع المجلس وكان يمثل بالاسم السلطة التشريعية واتخذ قراراً اجماعياً بتنحية كاربيه في ٩٢٥/٧/٣ وارادت السلطة ان تتدخل

---

(١) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ص ٢٩٦

فذهب الملازم (موريل) الى مكان الاجتماع وانهال ضرباً بسوطه النحاسي على وجوه الاعضاء (ممثلي الشعب) فرد عليه حسين مرشد بضربة عصا على وجهه، وثارت ثائرة الافرنسيين فلم يعاقبوا موريل الذي اقتحم اجتماع المجلس وضرب اعضاءه ولكنهم وضعوا أربعة شروط لحل القضية صلحاً:

١ - يعتذر الشيوخ والزعماء للملازم عن الاهانة التي لحقت به.
٢ - يدفع أهل السويداء مائتي ليرة ذهبية غرامة.
٣ - ينفى عشرة رجال مع حسين مرشد من السويداء.
٤ - تهدم داره.

وكان سلطان مع كثير من الوطنيين في السويداء يومها، فأرسل الى حسين مرشد انه سيزوره وينبغي ان يظهروا قواهم ليتراجع الفرنسيون فاستقبل عند زيارته بمظاهرة حماسية رائعة أخافت الفرنسيين وتنازلوا عن شرطهم الرابع فنفذ الاهلون الشروط الثلاثة الاولى وخرج عشرة رجال الى القريا منفيين. وواضح ان عدم الرد العنيف على السلطة كان يقصد منه فسح المجال للتهيئة الشاملة والاستعداد الكبير للثورة.

واحس ساراي بعد ان وصلته الانباء بغليان الجبل ورأى في موقف رينو ضعفاً فطلب الى مندوبه في دمشق ان يعزله فعين تومي مارتن مكانه ووصل السويداء بتاريخ ١٩٢٥/٧/٦ وهو يحمل اوامر تقضي بالتمهيد مع المؤيدين لفرنسا لكي يعود كاربييه واعلن ساراي في مذكراته فيما بعد انه لا يأسف على شيء، اسفه على ابقاء كاربييه في الجبل وانه اراد مباحثته بالامر واستبداله بغيره بعد عودته، ولكنه صمم على عدم خضوعه للضغط الوطني ورضوخه لمطالب الاهلين لانه تعود الا يخضع للمشاغبين (١) واشتهى ان يلقنهم درساً فابلغ مندوب في دمشق ليستدعي كل المحرضين ثم يعتقلهم وينفيهم الى مكان يقرره المندوب. وهكذا فقد اعلن تومي مارتن انه قادم للتحقيق وانه يرجو وجهاء

(١) تاريخ الثورات السورية - ادهم آل جندي ص ١٨٥

الجبل بالنزول الى دمشق ومقابلة مندوب المفوض وتقديم شكاواهم اليه ،تشكل وفد كبير على الرغم من معارضة سلطان الاطرش وتحذيره من غدر الفرنسيين وذهب الوفد لدمشق فاعتلقه الفرنسيون وسدوا طرق الجبل حتى يبقى الاعتقال مكتوما ثم اخذوا يراسلون الاشخاص المعروفين حتى يلتحقوا برفاقهم اعضاء الوفد .

وأرادوا بصورة خاصة ان يعتقلوا سلطانا ، وكان قد علم بما جرى مع الوفد لأن احد اعضائه تمكن من الفرار فأرسلوا ضابطاً قابله في القريا ورجاه ان يذهب لدمشق لان مندوب المفوض معجب به ويريد سماع أقواله .

وأدرك الرجل ان الفرصة قد واتت وان السكوت الآن لن يجر سوى خيبة الأمل المتفتح والقضاء على الحماسة التي التهبت في الصدور فبعد ان أخبر الضابط الفرنسي بأنه يعلم ان الوفد معتقل وحذره من مغبة غدر الفرنسيين شكل طليعة ثورية وانتقل من القريا الى قرى القضاء الجنوبي يدعو الناس للثورة ويذكرهم بأن القوة وحدها تريحهم من الاستعمار البغيض .

ولم يلتحق بالثائرين اعداد كبيرة في بداية الأمر وظل شأنهم ضعيفاً حتى وصلوا عرمان فاستقبلتهم بحماسها المعروف وكثر عددهم واستراحوا فيها يومين اتصلوا اثناءهما بالجهة الشرقية من الجبل . وحلقت فوقهم طائرتان فرنسيتان فأسقطوا احداهما .

ثم توجه الثوار الى صلخد وعـددهم يزداد في كل لحظة وقرروا ان يتمركزوا في « العـين » القريب من صلخد ومنه يكاتبون انحـاء الجبل الشمالية التي لم يصلها العلم الأكيد ببدء الثورة بعد .

وهكذا فقد حدث مالا بد من حدوثه ، وبدأت الثورة الدموية الكبرى على الفرنسيين التي عمت مناطق سوريا كلها فيما بعد ، وسجل ابناء الجبل وابناء سوريا بطولات اسطورية فيها ، وكانت الايام الاولى منها مثالا فريداً على اندفاع الشعب كله كتلة واحـدة في سبيل تحقيق أمانيه فجابه وهو أعزل قليل العـدد فرنسا العظيمة صاحبة الجيوش المسلحة بأفتك الاسلحة واحدثها يومذاك .

المعارك الأولى الكبيرة

معركة الكفر : علمت السلطة بتحركات الثوار فسيرت حملة وراءهم بقيادة نورمن تتبع خط السير الذي اتبعوه وقبل ان تصل الى القريا أرسلت بعض الخيالة لارهاب أهلها فتصدى لهم علي الاطرش أخو سلطان وأفهمهم انه سيقاوم الحملة اذا مرت في القريا فغير نورمن طريقه واتجه نحو الشرق فعسكر على ماء الكفر بانتظار قدوم الثوار لان طريقهم لابد ان يمر منه في مسيرهم الى الجهة الشمالية من الجبل . وعلم الثوار المرابطون في العين بوصول الحملة الى الكفر واحتلالها النبع فأرسلوا من ينذرهم بضرورة فتح الطريق امام الاهلين ولكن نورمن أهان الرسول وطلب من اسعد مرشد – كما حدث هذا فيما بعد – ان يحرس له الأمتعة حتى يجلب اللصوص الثائرين بعصاه

وانتشر خبر عناد القائد الفرنسي واحتقاره للثوار فحملوا عليه من العين والمسافة بينها وبين الكفر تزيد على الخمسة عشر كيلو مترا فسبقهم قادة الثورة لينظموا هجومهم على القوة . ولكن ايقاف الهجوم لم يكن سهلاً فلم يصل الى الكفر كل الثوار ومع هذا فقد اندفعوا نحو الاستحكامات الفرنسية كما يندفع السيل وقبل ان يتمكن الفرنسيون من الفرار كان الثوار في خنادقهم يبطشون بهم بسلاحهم القليل وشجاعتهم الرائعة فأبيدت الحملة كلها وعددها ٣٣٩ جنديا . ولم ينج سوى اربعة انفار وغنم الثوار زادها وعتادها فتسلحوا بأسلحتها وواصلوا سيرهم نحو الشمال . وسقط في ميدان الشرف خمسون شهيداً .

ومروا بالسويداء فحاصروا قلعتها التي لجأ اليها نورمن ومن معه من موظفين فرنسيين ونسائهم فأبقوا حامية تحاصرها واتجهوا نحو قنوات ومنها أرسلوا المفزعين (طالبي النجدة) الى قرى الجبل كافة فلبى الجميع دعوة الثورة ولم تتأخر قرية عن الاشتراك بها وتقاطرت الوفود الى (قراصة) المكان الذي اتفق ان يكون مركز حشودهم لقربه من ازرع حيث يعبىء الفرنسيون قواهم .

وشاع ان الفرنسيين يستعدون للقيام بحملة كبيرة فأخـــذ أهل الجبل يتهيأون لها بسرعة فائقة ورحلوا النساء والاطفال من القرى الامامية التي ستجري المعارك فيها ولم يبق في الجبل قادر على حمل السلاح إلا انضم للثوار وكانت الايام القليلة التي تلت معركة الكفر أروع مثال للوحـــدة والتضامن أمام الخطر الاستعماري المقبل .

معركة المزرعة : وأرادت فرنسا خديعة الثوار من جديد فأفرجت عن عبد الغفار الاطرش الذي كان معتقلا مع الوفد وأرسلته بسيارة خاصة الى الجبل بعد ان شاهد في ازرع القوى الكبيرة التي يحشدونها واقتنع بضرورة العدول عن الثورة . ولما وصل الى الجبل بتاريخ ٢٩ آب ١٩٢٥ حاول ان يقنع سلطان وباقي الثوار برأيه ولكن الحماسة ازدادت عندما سمعوا ان القوة اصبحت في ازرع وانتشروا على طول الطريق الذي ستسلكه استعداداً لملاقاتها بعد ان اقنعوا عبد الغفـــار بالانضمام اليهم وعدم العودة لرد الجواب كما كان مفروضاً . واجتمعت اعداد ضخمة من ابنـــاء معروف ومن بدو السردية والمساعيد في (قراصة) لكي تصد الجيش الزاحف الذي تقدم من ازرع بخطـة حربية ، فمهدت المدافع والطائرات بنيرانها له ووصل قراصة في ١٩٢٥/٧/٣٠

وكان على رأس الحملة الفرنسية الجنرال ميشو الذي اشتهر أمره خـلال الحرب العالمية الاولى ولا يقل عدد جنودها عن ثلاثة عشر الفاً وهي مجهزة بكل مايلزمها من ذخائر وأعتدة حربية بما فيها المدافع والدبابات ،

ولما صدمها الثوار في قراصة استطاعت ان تتغلب عليهم وتشق لها طريقاً نحو الشرق وكاد اليأس يقضي على الثوار فتفرقت جموعهم وأراد كل رجل ان يدبر أمر عياله وتهجيرهم الى المناطق الآمنة فتقدمت الحملة طالبة ماء المزرعـــة وعسكرت بموقع يدعى تل الخاروف . وفي اليوم الثاني ١٩٢٥/٧/٣١ هاجم تل الخاروف عـــدد من الثوار فلم يتمكنوا من الوصول اليه وفقدوا معظم خيولهم .

وكان اطلاق الرصاص مستمراً منذ وصل الفرنسيون قراصة واستمر ليلا نهاراً حتى مساء السبت ١٩٢٥/٨/١ فاجتمع رؤساء الثوار في قراصة وقرروا التراجع نحو الشرق وملاقاة الفرنسيين بين الدور والمزرعة . وفي يوم الاحـــد استطاع الفرنسيون ان يتغلبوا عليهم ويكسروهم ويصلوا المزرعة ويتخذوا فيها استحكاماتهم مما جعل أعـداداً اخرى من الثوار تتفرق والبـاقين يقررون التراجع نحو الشرق وملاقاة الجيش غرب السويداء في مكان يدعى «الشقراوية» ولكن حدث مساء الاحد ان هاجم بعض الثوار المرابطـين على جانبي الطريق قرب قراصة مؤخرة الجيش فانتصروا عليها وغنموا الذخيرة والسلاح فشاع الخبر اثناء الليل ودارت المراسلات بين القرى القريبة من المزرعة وكان الملتقى في فجر اليوم التالي .

وما أصبح الجيش الذي علم نبأ فقد ذخيرته حتى وجد الثوار يهاجمونه من جميع الجهات هجوماً صاعقاً فترك استحكاماته لينتشر على مساحة واسعـــة ولكن الثوار ردوه من جميع الجهات وحاصروه على الطريق وفي شريط ضيق حوله فدارت معركة رهيبة لم تستمر اكثر من ساعتين وكانت من معجزات الثورة وروائع انتصاراتها .

لم يكن عدد الثوار الذين هاجموا مع الفجر يزيـــد على المائتين وتحقق النصر الكبير قبل ان يكثر عددهم لأن كل قرية تصلها الانباء تقصد الميدان ولم يتح لاعداد كبيرة ان تشترك في المعركة إلا في نهايتها .

مائتا ثائر لايملكون سوى قلة من البنادق يهاجمون جيشاً قوياً لا يقل عن ثلاثة عشر الفا فينكسر أمامهم شر كسرة ويفر نحو الغرب فتلاحقه طلائعهم ولا ينتهي القتال الا بعد خروجه من أرض الجبل وقد خلف وراءه تسعة آلاف قتيل وكل اسلحتهم وأحرق الثوار دباباته وغنموا مدفعاً من عيار ١٠٥ وآخر من عيار ٧٥ ومدفعين عيار ٦٥ .

وزاد عدد الشهداء على المائة وسقطت كثرتهم في الهجوم الاول الذي بلغوا به المتاريس فأزاحوا عنها حماتها وكانت بداية الهزيمة [١] .

فترة المفاوضات وفشلها :

قوي بأس الثورة بعد الانتصار الكبير الذي حققته وعقدت العزم على مواصلة القتال . ووصل الى الثوار في وقت واحد وفد من قبل الفرنسيين وآخر من الوطنيين في دمشق فأما الوفد الممثل لفرنسا فطلب عقد الصلح وخوف الناس من الاستمرار في الثورة قائلاً ان فرنسا دولة كبيرة ولا يستطيع الجبل ان يصمد لها خاصة وانه يحاربها وحده ولا يمكن له ان يعتمد على حوران او دمشق او أية منطقة اخرى وكان يتخذ موقف الناصح للثوار إلا ان تسخيره لفرنسا لم يخف على الثوار ومع هذا فلم يغلقوا معه الباب لكي يكسبوا الوقت ويتفقوا مع الوفد الآخر . ثم طلب الفرنسيون هدنة لدفن موتاهم فنالوها وأرسلت معهم فرقة لكي تحميهم ودلت الثورة بذلك على روح انسانية عالية .

وكانت الاتصالات سابقة للثورة كما قدمنا واتصل عدد من الوطنيين برجالها كمحمد الأشمر وبدر الدين الحسني ورؤساء حزب الشعب مثل الدكتور شهبندر ونسيب البكري . ولما وصل الوفد الذي يمثلهم بعد المزرعة أوضح له قادة الثورة انهم مصممون على مساعدة أية منطقة تثور على فرنسا واتفقوا على ان يشعلوا الثورة في جميع انحاء سورية مبتدئين بدمشق وتواعدوا على يوم معين تسير فيه قوة من الثوار الى دمشق فتجتمع بالمجاهدين في مكان معروف ثم يحتلون النقاط المهمة وبالفعل فقد اتجهت من الجبل القوة المتفق عليها ولكن الوطنيين في دمشق لم يستطيعوا تجميع قواهم لملاقاتها فلاحقتهم الطائرات وأصلتهم نيرانها الحامية قرب العادلية ورجعت الى الجبل فالتحق

---

(١) كان كاربيه حاضراً معركة المزرعة وكان يمني قائده بالاستقبال الحافل لشخصه ولكنه نجا مع الفارين واستشهد من ابطال بني معروف سليمان العقباني الذي لعب دوراً عظيماً في القتال وسلاحه السيف وحده .

عبد الرحمن شهبندر ونسيب البكري و كثيرون غيرهم بالثوار . ومن المزرعة التي أصبحت مركزاً لقيادة الثورة ومكاناً لحشد قواتها ، أخذت الحملات تتجه الى الغوطة والقلمون واقليم البلان (جبل الشيخ) ولبنان .

واجتمع قادة الثورة من الجبل ودمشق في داما بتاريخ ١٩٢٥/٨/٢٥ وانتخبوا سلطان باشا الاطرش قائداً عاماً للثورة السورية الكبرى .

وتوزعوا الاعمال بينهم بقـــدر ماتسمح لهم الظروف بالتنظيم فكانوا يردون على المناشير التي تلقيها طائرات العدو وتهدد الجبل بانتقامهـــا الرهيب ويراسلون مختلف المناطق السورية لتشد أزرهم ويرسلون الحملات لتزعج الافرنسيين وتستولي على ذخيرتهم وإقتنت الثورة في هذه الاثناء سيارة وحيدة سلمتها للسيد يوسف العيسمي لكي يكون انتقاله ميسوراً بين الجبل والاردن حيث يلتجيء الوطنيون المبعـدون من سوريا والذين أصبحت مهمتهم ايصال صوت الثورة للرأي العام العالمي عن طريق الصحف اليومية والمجـلات والعرائض التي تقدم للمؤتمرات الدولية وأسهم حزب المؤتمر الذي كان قد اتخـذ في القاهرة مركزه أسهم بالدعوة السياسية للثورة وكان على صلة تامة بها.

ومن البديهي ان التفاوض مع فرنسا لم يؤد الى نتيجة ما واتضح ان نيتها المماطلة لتجميع قواها ، وأدرك قادة الثورة ذلك فانصرفوا بدورهم لتمتين قواهم وتوفير الذخيرة والمؤونة لها وأراد الموظفون المدنيون المحاصرون في قلعة السويداء الخروج منها فسمح لهم الثوار بذلك وأخذ سلطان باشا كشفـا من مدير المال بموجودات الصندوق فكانت ٣٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، ثم أوصلتهم قوة من الثوار الى قرب دمشق .

معركة المسيفرة : عزل الجنرال ميشو في ٣ | ٩ | ٩٢٥ وعين غاملان مكانه فوصل بيروت في ١٣ / ٩ / ٩٢٥ وبعد ثلاثة أيام كان في ازرع على رأس حملة أخرى متجهة للجبل وقسم قواه الى قسمين عسكر أحدهما في المسيفرة وظل الآخر في ازرع واتى خبر للثوار ان القوة الموجودة في المسيفرة قليلة ومعها كل

الذخيرة فقرروا مفاجأتها في الظلام ليلة ١٦ / ١٧ ايلول وسارت جموعهم بهدوء تام حتى اقتربت من القرية التي يمتد حولها سهل مترامي الاطراف وانطلقت في جوف الليل رصاصة من يد خائن لم يعرف تماماً . فانتبه الجيش النائم وأطلق اسهمه النارية فانكشف الثوار على الارض السهلية وليس أمامهم واق يتمترزون حوله فاندفعوا نحو استحكامات الجيش والرصاص الغزير يحصـدهم حصداً واستطاع بعضهم ان يجتاز الخطوط ويصل القرية ولكن كثرتهم تراجعت امام غزارة النيران والأضواء الكاشفة تضعهم في متنـاول الرصاص وتحجب عنهم العدو ومع هذا فقد انبطحوا على الارض واستمرت المعركة طيلة الليل وأشرق النهار التالي ١٩٢٥/٩/١٧ والمعركة دائرة فالجيش في استحكاماته والثوار يجربون الوصول اليه فيتساقطون . ثم أتاهم من يستنجد بهم لتخليص رفاقهم الذين دخلوا القرية وأرادوا تخليصهم تحت جنح الظلام ولكن حدث قبل المغيب بقليل ان خرج المحاصرون في القرية ووصلوا رفاقهم تحت الرصاص . ورجع الجميع نحو الشرق بعد ان صدوا نجدة قوية للجيش آتية من ازرع .

تراجع الثوار نحو الثعلة وقد خسروا أكثر من مائتي قتيل وعدد كبير من الجرحى . وفي اليوم التالي جمع الفرنسيون القتـلى والجرحى فأجهزوا على الأحياء ، ثم أحرقوا الجميع . وقـدم القسم الآخر من الجيش الى المسيفرة ثم اتجهوا للسويداء . ولم يستطع الثوار ردهم ففكوا الحصار عن القلعة ولـكن الهجمات التي شنت عليهم أرجعتهم من السويداء الى المسيفرة ، فعادت القلعة للثوار . بعد ان أخذ الفرنسيون معهم صندوق المـال والذخيرة المتبقية خلال الحصار الطويل . وقد حضر الدكتور شهبندر ونسيب البكري ورفاقهما معركة المسيفرة والمعارك التي تلتها .

معارك السويداء وعرى والمجيمر والمزرعة الثانية :

انتظر غاملان قدوم النجدات اليه في المسيفرة يومين ثم اتجه نحو السويداء منتشراً على مساحة واسعة من المجيمر الى عرى الى رساس وقابله الثوار على الخط

الفاصل بين الارض السهلية والارض الجبليـة ، ولم يستطع التقدم نحو الشرق لاشتداد الضغط عليه في المجيمر وعرى فاتجه نحو الشمال ولازمه الثوار حتى وصل المزرعة وفكر ان يدخل السويداء منهـا ولكنه لم يستطع لأن بسالة الثوار وشجاعتهم لم تعرف حداً تقف عنده . واستمرت المعركة عشرة ايام كامـلة والرصاص لم ينقطع فيها وباب الشهادة يستقبل أفواجـاً من الابطال المجهولين وغاملان مصر على زحفه ووصل رسول من حماه بطريق شرق الاردن والمعركة قائمة ومعه كتاب الى قائد الثورة موقع من وجهاء حماه وفيه انهم سيتحركون يوم ١٩٢٥/١٠/٤ ويرجون ان لايوقع الجبـل صلحاً منفرداً لأن الثورة لكل سوريا . وبالفعل فقد خف ضغط غاملان على الجبل بعد قيـام الثورة في حماه وارسل نصف جيشه لانقاذها وتراجعت حملته نهائيـاً تجر فشلها المخجل في ١٩٢٥/١٠/٩ وكان نشوب الثورة في حماه من اسباب هزيمة غاملان ونجـدة موفقة للجبل .

الجبل يوجه ضرباته لقوى الفرنسيين في خارجه :

لم يعد الفرنسيون للجبل خلال شتاء ٩٢٥-٩١٦ ولكن طائراتهم كانت تنطلق من بصرى وازرع تقصف تجمعات الثوار والقرى الآمنة باستمرار وتلقي المنشورات التي تنذر بالنقمة في الربيع وأخذ جواسيسهم يسعون بالوقيعة بين الوجهاء مستغلين الخلافات القديمة وباذلين الذهب الكثير . ولا ريب ان كثيراً من النفوس قد تغيرت خلال فترة الانتظار . ولا سيما ان المحـل عم الجبل سنة ١٩٢٥ فأصبح للمال مفعوله السحري الذي لايقل أثراً عن مفعول الخلافات العائلية التافهة .

وطوال فصل الشتاء كان ثوار الجبل يشتركون مع اخوانهم في دمشق واقليم البلان والقلمون ولبنان ، يشتركون معهم في المعارك الكثيرة التي خاضوها والتي يخرج تفصيلها عن نطاق بحثنا مع ان البطولات التي رافقتها أدخلت كثيراً من الاسماء في سجـل الخالدين ودلت على وعي المواطنين واندفاعهم للبذل والتضحية والتصدي لفرنسا في قمة طغيانها .

وهكذا فقد مر الشتاء دون معارك في الجبل ولما أقبل الربيع كان ساراي قد أبدل بمفوض سام مدني هو المسيو دي جوفنيل عضو مجلس الشيوخ الفرنسي وعين لاخضاع الجبل الجنرال اندريا الذي جهز حملة كبيرة ورابط في ازرع والمسيفرة وبصرى ، ثم أخذ يبذل الوعود المغرية لمن يسلم من الدروز وينخرط في الجيش .

وعمل دي جوفنيل على تهيئة الجو السياسي الملائم له فاتصل بالانكليز واعضاء حزب المؤتمر وكل من له علاقة بالثورة وظهر كأنه يريد حل الامور سلمياً وانتشرت عبارته المشهورة : الحرب لمن يريد الحرب ، والسلام لمن يريد السلام .

ولا شك ان جهود المؤتمر السوري كانت عظيمة ولكن مفاوضاته مع دي جوفنيل فشلت أخيراً لان هذا لم يكن يريد إلا الخداع فلم يوافق على الوحدة السورية او اجراء انتخابات حرة وأتى الى بيروت في ١٩٢٥/١٢/١ وهو ينوي القضاء على الثورة مهما كلفته من اموال ورجال . فأوعز الى الجنرال اندريا بالقاء منشورات على الثوار فتم له ذلك ، وطلب الى الدروز ان يضعوا السلاح لتفاوضهم فرنسا بمستقبل بلادهم وكانت الدسائس تتخلل هذه المنشورات فلم يأبه لها الثوار ولم تؤد الى نتيجة عملية .

وحاول دي جوفنيل من جهة ثانية ان يوطد الأمن في المناطق السورية فقرر اجراء انتخابات نيابية في حمص وحماه وحلب قاطعها الشعب ولم تثمر .

واضطربت البلاد في حلب وبعلبك وبيروت وصيدا وأصبح الثوار يسيطرون على كل هذه المناطق ولم يبق بيد الفرنسيين سوى اماكن حشودهم العسكرية . ورمى دي جوفنيل آخر حجر في سلة وعوده فاتصل بالشريف عبد المجيد الذي كان يقيم في بيروت ووعده بانشاء عرش له بسوريا اذا إستطاع تهدئة الامور وزار هذا دمشق ورجع خائباً .

وهكذا فقد مضى الشتاء بطوله والحركات الثورية متوقفة ولكن القوات

الفرنسية كانت تتهيأ المعركة الفاصلة حتى لقد بلغ عدد القوات الفرنسية في سوريا مائة الف جندي مجهزين أحسن تجهيز وأحدثه .

وبدأت العمليات الحربية بتطهير اقليم البلان والقلمون ودمشق من الثوار . ولما تم لهم ذلك قرروا الزحف على السويداء من ازرع والمسيفرة وبصرى في وقت واحد .فبدأ الهجوم على السويداء في ۲۳/٤/١٩٥٦

احتلال السويداء :

تحركت القوات الفرنسية نحو الجبل واحتلت القرى الغربية دون مقاومة تذكر لان الثوار قرروا ان يجابهوها في الارض الوعرة غرب السويداء وفي صباح الاحد ٢٥/٤/١٩٢٦ نشبت معركة كبيرة مهد لها الفرنسيون بنيران الطائرات والمدفعية الثقيلة التي استمرت تضرب الثوار أمامهم وكانت اعدادهم ضخمة ، ولكن الثوار قاتلوهم ببسالة نادرة ، وتقدم الجيس على جثث الشهداء فدخل السويداء ظهر ذلك اليوم ، ولم يكن بها احد على الاطلاق لان الثوار أخلوها وزحفوا نحو الشرق ليقيموا لهم تحصينات جديدة .

سياسة اندريا بعد احتلال السويداء :

أخذ اندريا يحصن المدينة وما حولها ويتصل بالزعماء ويغريهم بالاستسلام ويبذل لهم الذهب الكثير ، وكان اخطر نجاح حققه هو إقبال كثير من الوجهاء واتباعهم على الخضوع له فالمواطن يدفع بندقية او خمس ليرات ذهبية ليؤمن عياله وممتلكاته ويحق له ان ينخرط في الجيش الذي الفه من ابناء بني معروف .

وكان هذا الاستسلام . ثم تطوع الكثيرين مع فرنسا اكبر ضربة وجهت للثورة منذ قيامها . فالمعارك منذ الآن ستدور بين ابناء الوطن الواحد ولن يهم فرنسا عدد الضحايا فالجميع أعداؤها .

وحدث بالمقابل ان التحق كثير من الجنود المغاربة (التونسيين والمراكشيين والجزائريين) بالثوار وأبلوا في الحرب أحسن بلاء بما لهم من خبرة ودراية [1] .

---

(١) امين سعيد - الثورة العربية الكبرى ص ٤٧١

وبعد ان استقر الثوار في الجهات الشرقية من الجبل وفي منطقة اللجاه عقدوا اجتماعات عديدة للبحث في مستقبل الثورة فقرروا ان يرسلوا نساءهم واطفالهم الى الزرقاء شمال عمان ليكونوا في مأمن من بطش الافرنسيين بينما يستمر الرجال في الدفاع عن الجبل حتى آخر قطرة من دمائهم .

وعقدوا في اول ايار سنة ١٩٢٦ مؤتمرا في مفعله قرروا فيه المثابرة على الجهاد حتى تنال البلاد امانيها وإباحة اموال المتطوعين في الجيش الفرنسي وهدر دمائهم ، وجمع المجاهدين وتنظيمهم . ثم عقدوا مؤتمراً ثانيا في مفعله بتاريخ ١٩٢٦/٥/٢٩ قرروا فيه مواصلة الحرب حتى تنال سوريا استقلالها والتمسك بالوحدة السورية ، وايصال صوت الثورة الى الامم المتمدنة ومناشدتها العمل على ايقاف الاعمال الاجرامية التي ترتكبها السلطات الفرنسية .

ولقد استمر المجاهدون على آرائهم وتمسكوا بها ولم يهادنوا فرنسا يوماً واحداً الى ان تحققت مطالبهم سنة ١٩٣٦ كما سيأتي :

حروب المقارن : (١)

أخذ الجنرال اندريا بعد استقراره في السويداء يوجه الحملات الاستطلاعية من الفرق التي شكلها لاختبار مقاومة الثوار . ثم قرر ان يبدأ باحتلال المقرن الشمالي فقاد بنفسه حملة نحو شهبا اصطدمت في طريقها بقوة من الثوار قريباً من (سليم) فكسروها وتفرقوا . ثم تابعت طريقها نحو شهبا فدخلتها في ١٩٢٦/٥/١٥ ولم تستقر بها مدة طويلة لضغط الثوار عليها فعادت للسويداء بعد ان أعلن قسم كبير من القرى المجاورة لشهبا الاستسلام .

وزار في تلك الاثناء رشيد طليع الوزير السابق في حكومة فيصل ، وسلطان باشا الاطرش القرى الواقعة شرق شهبا فتأججت الحماسة في صدورهم

---

(١) المقارن : ج مقرن وهو الناحية او الجهة ففي الجبل أربعة مقارن : الغربي ويشمل جزءاً من قضاء السويداء وجزءاً من قضاء شهبا والشمالي وهو بقية قضاء شهبا والشرقي بقية قضاء السويداء والجنوبي وهو قضاء صلخد .

وقويت روحهم الثورية . فعاد أندريا ثانية الى شهبا سالكا طريق المزرعة فقاتله الثوار في كل خطوة خطاها و كبدوه اكثر من سبعمائة قتيل [1] قبل ان يحتل شهبا نهائياً للمرة الثانية . واقام فيها استحكامات فنية وشحنها بالمدافع و الدبابات مما جعل افواجاً جديدة تستسلم له .

وأراد الزحف على القضاء الجنوبي وفيه أهم عناصر الثورة واكثر رجالها فسلك نحو صلخد طريقين ، فقسم من القوة انطلق من بصرى ماراً بذيبين وام الرمان والغارية ، ثم صلخد . وقسم آخر اتجه من السويداء الى الكفر ومنها الى صلخد .

والتحمت قوة الجيش الآتية من الجنوب في ٩٢٦/٦/٢ مع الثوار قرب ذيبين واستمرت المعركة يومين كاملين وفي ٩٢٦/٦/٣ دخل الجيش الفرنسي صلخد فكان احتلالها ضربة قاضية على الثورة لأن اكثر القرى المجاورة لها أعلنت استسلامها على الأثر . [2]

ولم يكن اندريا يوالي زحفه لأنه يريد تقوية مركزه بانتزاع احتياط الثورة منها والاكثار من المتطوعين في صفوفه فبينما تصد فرقة غارات الثوار على مراكزه يستمر أعوانه وجواسيسه في الدعاية الى الاستسلام . ومع هذا فلم يحدث ان دخل قرية دون قتال لان الثوار اشتبكوا معه في كل شبر من الجبل .

وأصبحت قوى الثورة تتمركز في جهتين : المقرن الشرقي حيث الارض جبلية والمسالك وعرة وارض اللجاه المشهورة بمعاصيها والقريبة من الخط الحديدي الواصل بين دمشق وحوران .

ووجه اندريا قواه نحو المقرن الغربي للوصول الى اللجاه فاستطاع احتلال

---

(١) امين سعيد - الثورة العربية الكبرى ص ٧٦ ؛ ويؤكد ان احتلال شهبا كلف الافرنسيين اكثر من الف قتيل .

(٢) ادهم آل الجندي - تاريخ الثورات السورية ص ٢٢١

نجران وعريقة في ١٩٢٦/٨/٦ ودأبت طـائراته على ضرب قرى وادي اللواء ومخيمات الثوار في اللجاه وأرسل ضدهم حملات كثيرة لم تستطع التقدم إلا ببطء شديد فاستمرت الحرب قائمة في تلك الجهة حتى الثالث من نيسان ١٩٢٧ بعدان قاوم الثوار اكثر من ستة شهور وأبدوا من البطولات النادرة صنوفاً عجيبة واشتهر أمر كثير من المعارك في تل صميد ومجادل وداما والصورة وغيرها .

وانسحب المجاهدون من اللجاه نحو الصفـا الواقع شرق الجبل في قلب الصحراء .

وفي هذه الاثناء نفسها كانت قوى الفرنسيين تحتل المقرن الشرقي الذي دافع عنه سلطان باشا نفسه ودارت معها جملة معارك كان اكثرها خطراً معركة الشبكة والشريحي والرشيدات التي بدأت في ١٩٢٦/٩/١١ واستمرت اربعـة ايام كاملة واضطر الفرنسيون لشق طريق امام الدبابات والأعتدة الثقيلة وصد هجمات الثوار العنيفة وأبدى كثير من أبطال الثوار فيها ألوانا مجيدة من الشجاعة واشتهر أمر محمود ابو يحيى الذي استشهد فيما بعد في ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦

وكانت نكبة المجاهدين بالفرق التي شكلهـا اندريا من ابناء الجبل لأنها خبيرة بالمسالك ومتعودة على حرب الجبال كالثوار انفسهم (١) .

واشترك عدد من القادة الوطنيين فيها مثل **شكري القوتلي وعـادل ارسلان وشاكر العاص وكثيرون غيرهم .**

وتغلبت اخيراً قوى الشر بكثرتها على بطولة المجاهدين التي كانت ذخيرتها في تناقص مستمر فاحتل الجيش المقرن الشرقي بكامله خلال شهر ايلول ١٩٢٦ فالتحق قسم من الثوار باللجاه وانسحب قسم آخر الى الصفا وفي نيسان ١٩٢٧ وجه اندريا حملة كبيرة جداً الى الصفا تعززها الطـائرات والدبابات والمدفعية فاستطاعت ارغام الثوار على الانسحاب .

وخلال شتاء ١٩٢٦-١٩٢٧ كان عدد من الثوار قد استقر في الازرق

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢١

وأخذ يقوم بتشكيل عصابات كثيرة تهاجم مراكز الافرنسيين وتقلق هدوءهم ولم يمر اسبوع دون معركة حامية مع قواهم المتفرقة واشهر هذه المعارك تلك التي وقعت في تبصما وطليلين وابو زريق . ولكن نتائجها العسكرية لم تكن هامـة لانها لم تحقق سوى انتصارات جزئية غير كافية لاسترجاع الاراضي المحتلة .

وفي أوائل حزيران ١٩٢٧ كان المجاهدون كلهم خارج الجبل بعدد يزيد على ألفي نسمة بما فيهم النساء والاطفال .

الانكليز والثورة السورية :

حاولت فرنسا ان توهم الرأي العام في بلادهـــا بان الانكليز هم الذين حركوا الثورة في سوريا ولكن الوقائع كانت تكذبها باستمرار واعترفت على لسان رجالها الرسميين اكـــثر من مرة بفضل الانكليز في قمع الثورة وحفظ صداقة الفرنسيين .

فقد اتخذ الانكليز تدابير مشددة باغلاق الحدود بين الاردن وسوريا واعتقلوا كل وطني كان يأتي من الجبل الثائر الى الاردن وقد دعا الاميرعبد الله ـ المنفذ المخلص لسياستهم ـ وجهاء الاردن وحثهم على التمسك بالهدوء وقال لهم ان الحكومة لاتتأخر عن معاقبة الذين يخالفون أوامرها . ثم أخذ عليهم العهود والمواثيق بان يكفوا عن مساعدة الثورة [١] وذهب الجنرال الانكليزي بيك باشا قائد الجيش العربي في شرق الاردن الى اربد وقال لهم : ان الحكومـــة البريطانية تحتقر كل من يترك بلاده ويذهب الى سوريا للاشتراك في الثورة وانها وسمو الامير عبد الله يرغبان في منع أي انسان كان من السفر الى سوريا ولذلك فهو يطلب منهم ان لايصدقوا مايقال لهم من ان بريطانيا وسمو الامير يرغبان سراً في مساعدة الثورة فالأمر غير ذلك وهما يقفان على الحياد [٢] .

---

(١) امين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى ص ٤٨٢

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٣

وفي ١٩٢٥/٩/٢٠ اذيع في عمان بلاغ رسمي بقفل الحدود السورية – الاردنية طيلة الليل ولا يسمح في عبورها بالنهار إلا لمن يسجل اسمه في المخافر الكثيرة التي انشئت على طول الحدود .

وقد شكر المسيو باقلفه رئيس الوزارة الفرنسية يومئذ للانكليز موقفهم في شرق الاردن وقال انه موقف منطو على الوفاء والاخلاص ، وتجلى التعاون الانكليزي الفرنسي بعد ان تمركزت عائلات الثوار في الاردن .

المجاهدون في الازرق : بعد احتلال اللجاه والصفا انحدر المجاهدون نحو الازرق وكان عددهم يزيد على ثلاثة آلاف نسمة ومن هناك أخذ وايشنون حرب عصابات على مراكز الفرنسيين في الجبل وقاسوا شظف المعيشة لأنهم اعتمدوا على ما يكسبونه من الفرنسيين من جهة وعلى تبرعات المؤتمر السوري والشخصيات الوطنية ، هذه التبرعات التي لم تكن بحال من الاحوال كافية لاطعامهم ويعجب الانسان عندما يعرف ان عشرة سنين قضاها أولئك الابطال يسترزقون الصحراء كما يفعل البدو ولا ينالون الطمأنينة والهدوء لان قوى التي كانت تطاردهم في كل مكان .

وابتدأ الضغط الانكليزي عليهم في خريف سنة ١٩٢٦ لحملهم على الاستسلام لفرنسا طبقاً للولاء والاخلاص بين الدولتين المستعمرتين وفي ١٠/ ١٩٢٧/٤ اذاع الانكليز من عمان بلاغاً اعلنوا فيه ان الزرقاء والمنطقة الممتدة حولها حتى حدود العراق من الشرق وحدود الجبل الجنوبية من الشمال ومسافة لا تقل عنها من الغرب والجنوب ، اعلنوا ان هذه المنطقة تحكم عرفياً ولا يجوز فيها لأي رجل مسلح ان يتجول ويتعرض المخالفون لاقسى العقوبات العسكرية فعزلوا بذلك الثوار عن عيالهم والجأوهم الى الصحراء حيث تنعدم المياه ويندر الطعام . وأقاموا معسكراً كبيراً بالقرب من الزرقاء لتنفيذ هذا الأمر وأخذوا يسجنون كل رجل مسلح يشاهدونه ويحرقون بندقيته امام عينيه .

وواصل الفرنسيون مساعيهم مع الانكليز لتشديد الخناق على المجاهدين بعد أن أعلنوا العفو عن كل من يستسلم فأصدر الكابتن كروب قائد منطقة الازرق يوم ١٩٢٧/٦/١٧ بلاغاً أعطى فيه مهلة للرجال مقدارها ١٤ يوماً حتى يعودوا للجبل وهدد كل من يشاهد بعد هذه المدة بالقتل او السجن .

ثم قدمت الى المجاهدين على الاثر بعثة مكونة من الكولونيل ارنو مدير الاستخبارات الفرنسية في سوريا ومستشار دوعا الفرنسي والشيخ محمود ابو فخر من الدروز المستسلمين والكولونيل كوكس المعتمد البريطاني في عمان والكولونيل ستراتفورد قائد الجيش العربي بالوكالة ، وحاولت اقناع المجاهدين بالعودة الى الجبل على أساس العفو عنهم واستطاعت ان تقنع عبد الغفار الاطرش برأيها فرجع معه اكثر من النصف وظل الباقون وعلى رأسهم سلطان الاطرش وعادل ارسلان و كثيرون غيرهم من مشاهير الثوار مثل علي عبيدو وعلي وزيد الاطرش وعقله القطامي الزعيم المسيحي ويوسف العيسمي وقاسم ابو خير وحسين مرشد وعلي الملحم وغيرهم عددهم ١٥٠٠ نسمة وتعاهدوا على الاستمرار في النضال الى ان تعلن الوحدة السورية والاستقلال الكامل .

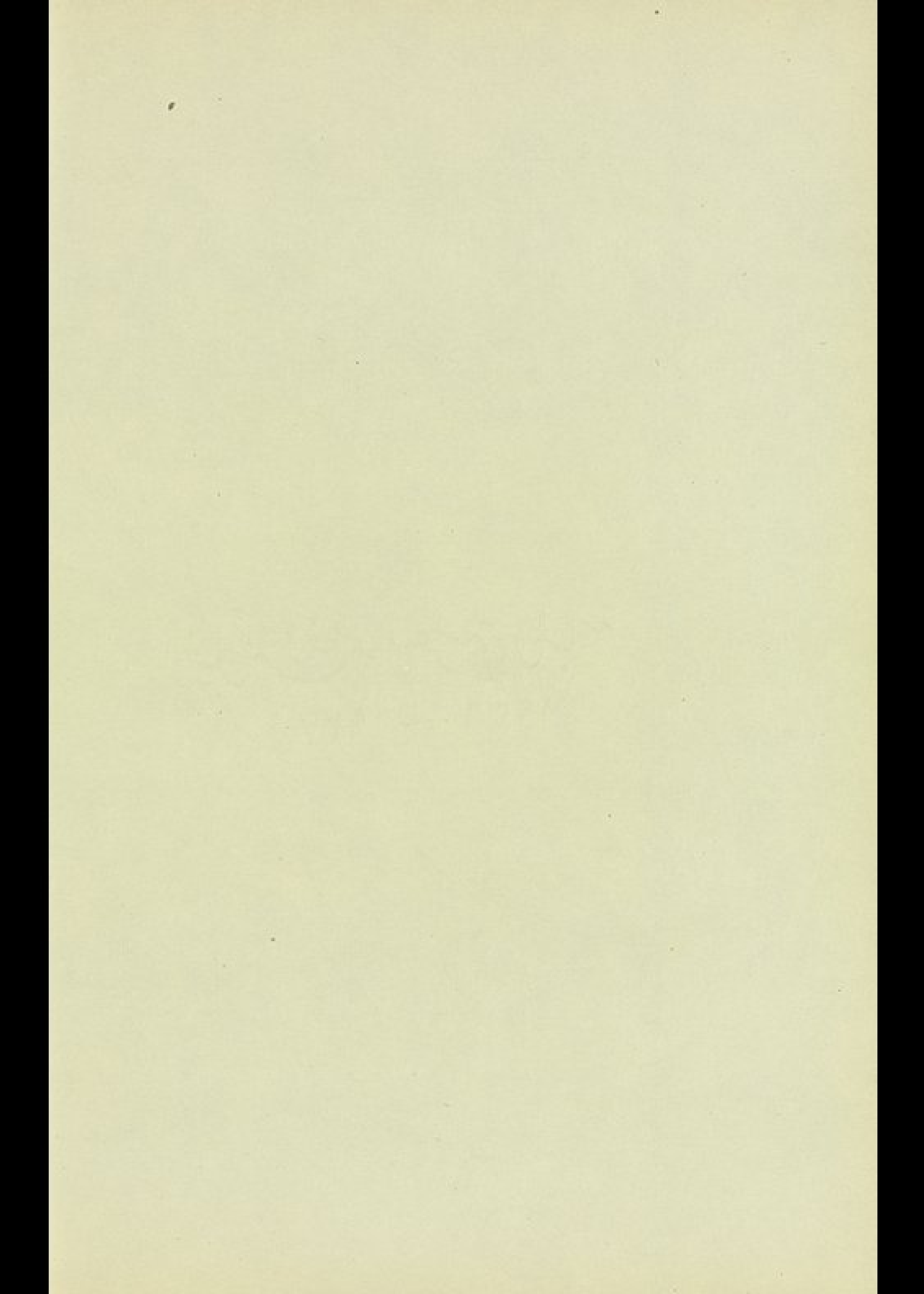
وطبقاً للامر الانكليزي نزح المجاهدون بعيالهم الى مكان يدعى المعميري بوادي السرحان من أراضي الاردن الجنوبي ومكثوا هناك اسبوعاً فلاحقتهم القوات الانكليزية واضطرتهم للجلاء عنه فنزلوا الحصيدات على الحدود الاردنية السعودية ولم تمهلهم القوى الانكليزية سوى ثلاثة عشر يوماً حتى أجلتهم نحو الجنوب فحلوا في النبك التابعة للعربية السعودية وعاشوا فيها خمس سنين ولما صعبت المعيشة عليهم مجتمعين لاعتمادهم على الصيد والرعي وضآلة التبرعات التي كانت تصلهم تفرقوا في جهات متعددة فبقي قسم منهم في النبك وعاد قسم آخر الى الحديثة في السعودية وتوجه قسم ثالث الى الكرك في شرق الاردن بعد أن أخذت الحكومة عليهم تعهدات بعدم القيام بأية حركة واستمرت هجرتهم حتى وقعت المعاهدة السورية الفرنسية في ١٩٣٦ فعادوا الى البلاد في العام التالي

واستقبلوا في دمشق وحوران والجبل استقبالا شعبياً ليس له نظير .

وهكذ فقد برهن المجاهدون بأن العقيدة الوطنية والايمان القومي يخلقان البطولة فيجعلان منطقة فقيرة كالجبل تتحدى فرنسا أيام عزها ويدفعان الطليعة الثورية الى مجاهل الصحراء مفضلة التمسك بمبادئها والاصرار الوطني الذي لا يلين على رغد العيش في ظل الاستعمار .

الثورة التي انطلقت في صيف ١٩٢٥ وهي تحمل شعارات الاستقلال والوحدة السورية لم تتراجع مع كل ما قدمته من أضاحي عن طريقها فظلت تحارب فرنسا الى ان رضخت أخيراً لمطالب الشعب فوقعت المعاهدة في باريس ونالت البلاد وحدتها المنشودة واستقلالها الذي تعزز فيما بعد وعلى جثث المزيد من الشهداء .

الجبل تحت الحكم الفرنسي المباشر
١٩٢٧ — ١٩٣٦



الحكم الفرنسي المباشر في الجبل

بعد انتهاء الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٧م سعى الفرنسيون لتطهير الجبل من السلاح ، والتودد الى ابنائه ، فاستطاعوا ان يستميلوا بعض ذوي النفوس المريضة وان يحملوهم على التعاون معهم ، وجعلوا من الجبل دولة مستقلة مرتبطة مباشرة بالمفوض السامي في بيروت ، واصبح الحاكم الفرنسي هو المتصرف بشؤون الجبل ، يساعده مدراء المعارف والاشغال والمالية الفرنسيون ايضاً ، وكان ديدن هؤلاء إثارة النعرات الدينية والاقليمية وإذكاء الخلافات العشائرية وتكريس الانفصال ومحاربة رجال الثورة السورية وتسفيه أهدافهم في التحرر والاستقلال ، وتقنين التعليم وتوجيهه بالشكل الذي يعزز اللغة والتاريخ والحضارة الفرنسية ، ويطمس في الوقت نفسه اللغة والتاريخ والمآثر العربية . وشكلوا في السويداء مجلساً استشارياً أسموه مجلس « المندوبين » واعضاؤه يمثلون العائلات القوية ، ومن الذين قدر الفرنسيون انهم يسيرون بركاب السياسة الفرنسية ، ولكن عدداً غير قليل من هؤلاء المندوبين كان يتجاوب مع المواطنين في الشكوى والتذمر من ظلم الفرنسيين ومساوىء حكمهم ، وكان بعضهم يذهب أبعد من ذلك فيقيم الصلة مع رجال الثورة خارج الجبل .

الوضع السياسي بعد عام ١٩٣٦ :

كان من شروط معاهدة عام **١٩٣٦** عودة الثوار المجاهدين الى الوطن وانضمام الجبل الى سورية الأم واجراء انتخابات فيه أسوة بالمحافظات الاخرى. وعندما عاد المجاهدون عام ١٩٣٧ جرت لهم استقبالات ضخمة واحتفالات رائعة تليق بما قدموه من تضحيات وصبر ونضال في سبيل التحرر والاستقلال .

وعندما تشكلت اول حكومة وطنية في دمشق ، أرسلت السيد نسيب البكري محافظاً الى الجبل ، وقد واجه كثيراً من المصاعب والمتاعب بسبب بقاء ادارة الجبل وماليته مستقلتين عن الحكومة المركزية بدمشق، وبسبب من عرقلة الفرنسيين وتآمرهم مع الانتهازيين والوصوليين على وحدة البلاد، ثم اتضحت المؤامرة الاستعمارية بان جمع المستشار الفرنسي اكبر عـــدد قدر على جمعه في السويداء ، وقدم لهم حسن الاطرش على انه محافظ الجبل الممتاز الذي يتمتع بالصلاحيات المطلقة في تصريف اموره وفصله عن الحكومة المركزية. امـــا العناصر الوطنية المطالبة بالوحدة فقد تكتلت بدورها واتفقت مع الكتلة الوطنية في سورية ، وشكلت فرقاً نظامية تتدرب على حمل السلاح وعرفت حينذاك باسم « الفرق الحديدية » . وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كانت كفة العناصر الوطنية قد رجحت على كفة العناصر الانفصالية التي أسمت نفسها يومذاك باسم « حزب الدفاع » .

وفي صباح ٢٩ – ٥ – ١٩٤٥ دبر الوطنيون في الجبل انقلاباً ناجحاً ضد الفرنسيين واعتقلوهم في السويداء وصلخد وشهبا ورفعوا العلم السوري على دور الحكومة ، واعلنوا استقلال سورية . وخرجت تظاهرات شعبية ضخمة مؤيدة لهذه الخطوة الوطنية الجريئة . ولم يخرج الفرنسيون من الاعتقـال إلا بواسطة الجيش التاسع الانكليزي الذي دخل البلاد بعـــد ضرب دمشق من جانب الفرنسيين .

وفي عهد الحكم الوطني بدأ ابناء الجبل يسيرون بخطا حثيثـة في طريق التطور والاستقرار . وقد بدا ذلك واضحاً في مجالات كثيرة . ففي مجـال التعليم ارتفع عدد الطلاب الى نسبة كبيرة ملحوظة لم تشهدها البلاد من قبل ، واصبح الطلاب عصب الحركات الوطنية وارضاً خصبة للنشاط القومي . ولئن حال الفقر دون وصول العدد الأكبر منهم الى الجامعة ، فان الحكومات الوطنية المتعاقبة وخاصة في الفترة الاخيرة ، قد خصصت لطلبة الجبل النصيب الوافر من البعثات الدراسية ولم تقصر في الانفاق على التعليم .

وفي مجال العمل القومي لم يكتب النجاح في الجبل للحركات الاقليمية والشعوبية ، في حين لقيت عصبة العمل القومي ذات الأهداف العربية رواجاً بين أبنائه ولكنها سرعان ماتراجعت وانحسرت عندمـــا ارتطمت بصخرة العقلية العشائرية وعجزت عن التجاوب العميق مع رغبات الشعب وحاجاته الاجتماعية والاقتصادية ، ، هذا ويمكن القول بصورة عامة ان حماس ابناء الجبل للقومية العربية بلغ حداً من القوة والشمول بحيث لم يبق فيه مجال لبروز الحركات الاقليمية والشعوبية .

الحركة الشعبية : العصبية العائلية ما تزال أثراً شاهداً على تفكك المجتمع القبلي وسيلاً ميسوراً لاستغلال الشعب والمتاجرة باهدافه من قبل الرؤساء المحليين الذين تضعهم الظروف في مركز الصدارة ولا تتوفر لديهم الجدارة دائماً . وحفاظ بني معروف على هذه العصبية في الماضي البعيد أوجب قيام تسلسل في أهمية العائلات ونفوذها وأوجد في القمة عائلة في كل منطقة يختار منها زعماء القرى (مشائخها) ويفترض فيهم ان يكونوا الحكم بين العائلات الاخرى وصمام الامن لخلافاتهم المحلية ومدافعاً عنهم ومعبراً عن كرمهم ووجاهتهم أمام الآخرين . واستأثر آل الحمدان بزعامة الجبل فترة طويلة ثم أتى آل الاطرش ، واستطاعوا ان يصبحوا مشائخ قضائي السويداء وصلخد .

وكما قبل الجبل دعوة الطرشان للثورة على استئثار آل حمدان والتخلص منهم فقد وقع المستجدون بأخطاء القدماء وساروا على أساليب تحكمية جعلت اتباع الامس ورفاق المطالبة بالعدالة ثواراً عليهم .

فكانت ثورة العامية التي حدت من نفوذ الطرشـــان واقتطعت منهم نصف أراضيهم وثبتت الملكية للسكان . ولكن ثورة العامية تركت الزعامة الاولى في الجبل لآل الاطرش ، وظلوا في اكثر قراهم أصحاب النفوذ والمكانة الاولين .

ومن الطبيعي في وضع كهذا ان يحاول افراد العائلة المتنفذة او بعضهم ان يخدموا مصالحهم الخاصة بقدر إمكانهم .

وهذا ما حدث مع الاطارشة .

وظل القائد العام للثورة السورية الكبرى بعيداً عن اعـــداء البلاد مكتفياً بأعمال الزراعة في أرضه ، وعلى صلة وثيقة بالعناصر المخلصة في الداخل ولكن دعم الفرنسيين لبعض آل الاطرش لم يقف عند حد ، وتسليمهم مرافق البلاد استمر طوال عهد المعاهدة . حتى أصبح محافظ الجبل وقائد الدرك فيه وممثله في المجلس الاقتصادي الاعلى بدمشق ونوابه الاربعـــة في المجلس وقائد منطقة صلخد وأهم الموظفين المدنيين من آل الاطرش سنة ١٩٤٤ .

وبعد أن تحملت البلاد فوق طاقتها لتعيد الوحدة للوطن الممزق وتعمل على رجوع الثوار المناضلين ، تم لها ما ارادت سنة ١٩٣٧ فأرسل محافظ وطني للجبل باعتباره احدى محافظات سورية ، بعد كل ذلك عمـل حسن الاطرش وبعض المنتفعين بالتجزئة على عودتها وزوروا إرادة الجبل ببرقيات وعرائض مزورية فعاد الانفصال باسم الاستقلال المالي الاداري ولم ينته الا في ١٩٤٦ .

وكان الوطنيون يعملون في هذه الاثناء على الحد من نفوذ آل الاطرش مع سعيهم للوحدة لان النفوذ الحرام وليد التجزئة .

وقام في البلاد تكتل يحمل اسم هيئـــة الشعب الوطنية ليقود النضال ويطالب بالوحدة وزوال الاستئثار .

وقد تمت الوحدة بجلاء الاجنبي ولكن الاستئثار بقي .

ولما تخلص الجبل من الاستعمار الفرنسي وجه انظـاره نحو المشروعات العمرانية واقامة المرافق العامة التي تفي باحتياجاته ولكن المستأثرين بالأمور تغاضوا عنها ولم يهتموا الا بمصالحهم الخاصة . مما دفع عدداً كبيراً من أبناء الشعب الى التكتل من جديد وأحيت هيئة الشعب الوطنية باسم « الهيئة الشعبية » .

وحل موعد الانتخابات النيابية في ٩٤٧/٧/٧ فكانت النقطة التي تأزم الموقف عندها وسببت اللجوء الى العنف في السويداء وسقط فيها قتيل وجريح ولم تظهر نتائج الانتخابات لان بعض صناديق الاقتراع قد حطمت في قضائي

صلخد وشهبا فأجلت الحكومة موعدها الى ١٧/٧/١٩٤٧ ولم يمهلها تطور الحوادث التي ساهمت فيها كثيراً فلم تحدث الانتخابات في موعدها الجديد واستبعدت الى أجل غير مسمى .

ووجد بين أنصار الحركة الشعبية من صاغ اهدافاً لهـا في مناشير وبيانات وكانت اهدافها تقدمية تطالب بمنع الاستئثار العائلي وتلح على تطبيق القانون في الجبل كما في غيره من المناطق السورية وتطالب بمعاقبة الذين استغلوا مناصبهم للاثراء والفساد وتجعل من الحركة الشعبية قفزة تاريخية يخطوها الجبل فيدلل على تأصل حب الحرية والمساواة فيه .

هذه الأهداف النبيلة التي آمن بها الكثيرون لم تكن عند بعض زعماء الحركة سوى وسائل للدعاية فالحكومة المركزية تساعدهم بالمـال والسلاح وتحرس خطاهم مع انها تمثل الاقطـاع البشع في البلاد وتشكل بؤرة الفساد الكبير والاستغلال الطائل فدعمها لمثل هذه الحركة يشوهها ويجعل التساؤلات ترتسم حولها ولقد اثبتت الايام فيما بعد ان ممثلي الحركة الشعبية في البرلمان أصبحوا كمن دعمهم في البدء أعضاء في المنظمات التي تحمس الاقطاع وغدا أجل الرجعية ومهما يكن من أمر فلقد شهد صيف ١٩٤٧ غلياناً في جميع المناطق وخاصة القضاء الجنوبي فنزح آل الاطرش من قراهم وخرج بعضهم أثر التهديد بالقتل كما حدث لابراهيم الاطرش في قلعة صلخد وشكلت الحركة الشعبيـة حرساً خاصاً يحرس القرى الموالية لها ويمنع المعادين من دخولها .

وفي ٢/١١/١٩٤٧ اجتمعت وفود قرى القضاء الجنوبي في صلخد وسارت نحو ذيبين وام الرمان فخرج آل الاطرش منها وناموا في بكا وفي الصبـاح التالي هـاجمهم أنصار آل الاطرش الذين كانوا مجتمعين في القرية فدارت بين الفريقين معركة خاطفة كان حصادها تسعة عشر قتيلا من الفريقين وغالبيتهم من الشعبيين . ولم تحدث بعدها معركة ما واستمر الخلاف العلني زمنـاً قصيراً ثم عقد الصلح في صلخد في نهاية عام ١٩٤٨ .

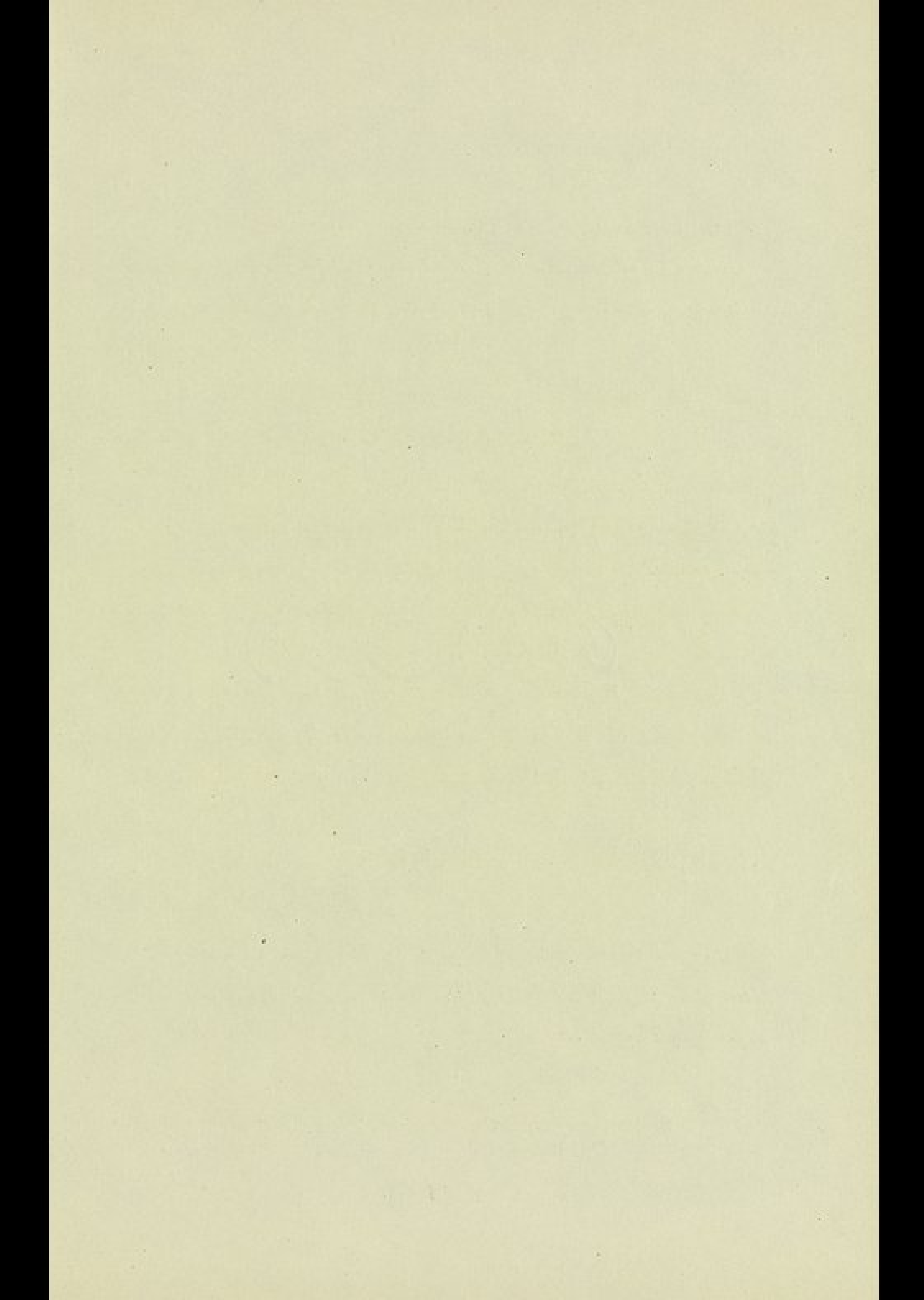
ومع ان الحركة الشعبية اعتمدت على بعض الخصومات العائلية واستندت الى تأييد جهات مستغلة تكره الشعب ومصالحه ومع ان بعض قادتها لم يكونوا مخلصين لها ، مع كل هذا فقد كان لها بعض الفوائد العملية التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - خففت من استئثار العائلة الواحدة وشدت أزر الاتجاه الشعبي وشعر الفرد العادي فيها أنه يدافع عن حريته وكرامته فمهدت بذلك لظهور تيار عربي شعبي جديد في الجبل .

٢ - حققت مبدأ تبادل الموظفين من مختلف المستويات .

٣ - تعاظم ارتباط الجبل بسورية وتلاشت الافكار الانفصالية .

المذهب الدرزي



١ – **نشأته** : عندما دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) قابلهم اهلها مرحبين وسارت مختلف الفئات في موكب المعز بعد ان قدمهم اليه القائد جوهر الصقلي وكلهم يخالفون مذهب الدولة الرسمي فالشعب سني والحكومة علوية .

ولم يكن نظر الفاطميين قاصرا على مصر وإنما اعتبروها نقطة انطلاق لهم لتحرير البلاد العربية والاسلامية وضمها الى ممتلكاتهم .

وكان خلفاؤهم الأولون من كبار المثقفين واعيان الاذكياء فأرادوا الوصول الى أهدافهم عن طريق الحجة والقناعة قبل استعمال القوة والبطش فتميزت سياستهم في مصر بترك الحرية الدينية للناس فلم يجبروا أحداً على التشيع وتركوا القضاة يحكمون على مذاهبهم السنية الاربعة ولكنهم عملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم فحول العزيز بالله ثاني خلفائهم الجامع الازهر الى دار العلوم في ٩٧٨ م . واختاروا دعاتهم واساتذة الازهر من خاصة مريديهم الذين تميزوا بفهم المنطق والفلسفة والكلام وتسلحوا بمختلف ضروب السلوك والنشاط الفكري لاقناع تلاميذهم . وأضافوا الى التعليم الديني نشر الفلسفة وعلم المنطق والنجوم وغيرها .

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله مدرسة عالية أسماها دار الحكمة سنة ١٠٠٥م لتعليم المذهب الشيعي المتطرف .

وقدم اليها بعض الغلاة من الفرس الاسماعيليين فأخذوا يدرسون آراء جديدة يضعون فيها الحاكم بمرتبة مقدسة فوق مراتب البشر وأبدى بعضهم نشاطاً زائداً لفت الانظار وخاصة حمزة بن علي بن أحمد الداعية الفارسي المشهور فاحتج الناس عليهم وطلبوا الى الحاكم توقيفهم فلم يفعل واشتد الأمر إحراجاً فتآمر على الحاكم بعض اقربائه واغتالوه فتفرق الدعاة المتطرفون في انحاء البلاد

العربية وحملوا معهم الافكار التي دعوا اليها في القاهرة. وينسب مذهبهم الى أحد دعاتهم الشاميين نشتكين الدرزي المتوفي في ١٠١٩ م والذي خرج عليهم فيما بعد وأصبح ممثلاً للشر والغدر في نظر اتباع المذهب إلا أن اسمه استمر يطلق عليهم مع انهم يتسمون بالموحدين ويبرأون من نشتكين.

وليس هناك كتاب يحدد اصول المذهب ولكن الكتب الستة المخطوطة المتداولة بين المتدينين والتي تنسب الى مدرسة الحكمة، تعبر عن وجهة نظرهم العامة كفرقة من فرق الاسلام المتعددة.

٢ - **تعاليم المذهب**: نشأ المذهب الدرزي في احضان دولة تحترم العلم وتجعل الثقافة سلاحها للسيطرة على العالم الاسلامي. ولذلك نجد الآثار الفلسفية واضحة فيه فهو يأخذ شيئاً من حكمة الفرس ومعتقدات الهند ومنطق اليونان ويحاول التوفيق بينها وبين معتقـــدات الاسلام ويمكن إيجاز اصوله إيجازاً شديداً فيما يلي:

١ - **النبوة**: يضع المذهب الدرزي كبار المفكرين والفلاسفة موضع التبجيل والاحترام فافلاطون وأرسطو وجالينوس وغيرهم اشخاص بحثوا عن الحقيقة ومثلوها بسلوكهم الاخلاقي فمن الواجب تخليد اسمائهم ان لم يكن تقديسها.

٢ - **التقمص**: أخذ الدعاة فكرة التقمص أو التناسخ عن البوذية بطريق العلوم الفارسية واليونانية ثم طوروها بما يتفق مع نظرة الاسلام للانسان التي تجعله سيد هذا الكون فالبوذية ترى ان الانسان الشرير يعاقب عند انتهاء حياته بانتقال روحه الى حشرة دنيئة ويجازى الصالح بأن يولد من جديد انسانا أو حيوانا مقدساً، ولكن التقمص التوحيدي يقتصر على الانسان ويمنع انتقال الروح البشرية الى حيوان أو نبات.

ومن الطبيعي ان تربط هذه الفكرة بين الأجزاء التي قد تبدو متناقضة في الظاهر وان تفسر الآراء الغيبية الغريبة التي اعتنقتها فرق الشيعة المتعددة فالأئمة موجودون دائماً والمهدي المنتظر حي في كل لحظة وظهوره انما يعني الافصاح عن نفسه فحسب لان الأئمة والمهدي وجميع الناس انما يبدلون أجسادهم في الاجيال المتعاقبة وأما الروح فهي خالدة.

٣ ـ **التعاليم التعبدية والاجتماعية** : تختلف تعاليم المذهب الأخرى عن المذاهب السنية الاربعة اختلافات طفيفة فالزواج مثلا يحدد بزوجة واحدة اخذاً بالآية الكريمة « وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة» والآية «ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . ويفسر الصوم والصلاة والزكاة والحج تفسيرات تخالف ظاهر السنة فالصوم يعني الاقلاع عن القول الفاحش كما ورد في الآية الكريمة (فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم إنسيا) والزكاة تعني التقوى كما في الآية الكريمة: (وآتيناه الحكم صبياً ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا). الى غير ذلك من التفسيرات الخاصة ولا تختلف باقي أحكامه عن السنة في شيء فالاعياد واحتفالاتها واحدة وطقوس الجنازة والصلاة عليها والعقد والزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالمعاملات ما هي الا نماذج لوصايا مختارة من المذاهب السنية الاربعة

٣ ـ **انتقاله من مصر الى الشام** : لم يطل عهد الدعوة في مصر ولم يقدر لها النجاح الكبير هناك لتوقفها بموت الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢١ م. ولانها حوربت من قبل الفئة الحاكمة باعتبارها تميل الى التشدد والمغالاة في تطبيق الأخلاق المثالية على الحكومة والشعب فغار نبعها في وادي النيل ليتفجر في فلسطين ولبنان وحلب وتم ذلك بدخول قبائل الازد التنوخيين الى لبنان واعتناقهم لها في القرن الثاني عشر .

وعاشت الدعوة حتى الآن في نطاق مغلق لأنها أقفلت بموت دعاتها وأخذ معتنقوها انفسهم بالعنف والشدة مما ألجأهم الى المناطق الجبلية فلما ضاق لبنان بهم على أثر منازعاتهم الداخلية . انتقل بعضهم الى جبل حوران وعرف باسمهم منذ أوائل القرن الثامن عشر .

ولم تستطع الدعوة على صرامة تعاليمها ان تقضي على خلافاتهم القبلية المشهورة فسالت الدماء الغزيرة مراراً بين القيسيين واليمنيين منهم وكانت أعنف معركة سنة ١٧١١ م وسميت بموقعة (عين دارة) التي نزح على أثرها أوائل الدروز من لبنان الى الجبل . فاذا انتبهنا لاستمرار الحروب القبلية بين ابناء

معروف في الوقت الذي تنوسيت فيه إلا من البادية . وقرنا هذه الملاحظة الى سكنى الجبال والتمسك بالعادات العربية الاصيلة كالكرم والشجاعة والعفة وغيرها ، لأدركنا ان العرب كانوا مادة الدعوة التي تمثل المعارضة باعتبار السلطة السياسية يومها كانت بيد الاتراك والصليبيين والفرس وغيرهم من الموالي . ولا نزال نسمع حتى اليوم بوثائق كتبت منذ عهد طويل ترجع نسب بعض الاشخاص الى قبائل عربية مشهورة في القدم .

٤ – **سرية المذهب** : نشأ المذهب الدرزي التوحيدي علنياً في بداية أمره وبرعاية السلطة الفاطمية نفسها ولكن مقتل الحاكم وفشل الدعوة في مصر وتعقب خلفاء الحاكم لأتباعها . جعل دعاة الشام يستترون وينشطون في السر لدعوتهم وكما قلنا سابقاً فباب المذهب قد أقفل بانتهاء أمر أصحابه الأولين .

ويعيش الآن في الخفاء لالشيء إلا لأن الضغط قد نال كبار رجاله منذ عشرة قرون ولم يجرؤ فقهاؤه على الاتيان بجديد فيه .

وحاول رجل من أفاضل المتدينين وأعلام الفقهاء وهو الامير السيد التنوخي حاول في القرن السابع عشر ان يشهر المذهب فكتب له شروحاً وافية وأذاعها بين الناس وأقام في دمشق يناظر أئمتها ويفقه طلابها ويملأ منابرها وأزال بعمله كثيراً من الظنون التي كانت تحوم حول الدروز .

وأتى بعده بعض المشايخ الذين أرادوا اقتفاء سيرته كالشيخ الفاضل ولكن التيار المحافظ انتصر على التجديد فأعاد الكتمان بعد المجتهدين كسابق عهده وجعل الكتب التي ألفها الامير السيد نفسها سرية ومكتومة .

ويعيش الآن مذهب التوحيد في صدور المتدينين وفي كتب مخطوطة موزعة بين أصحابه ولا يحق لأحد من الدروز أنفسهم ان يطلع عليه إلا بعد موافقة رجال الدين على سلوكه واقتناعهم بصدق نيته . لذلك نجد القلة القليلة وحدها تطلع عليه وتحرص على كتمان مافيه .

ولا شك ان انتشار الوعي الثقافي والقومي وصدق الاحساس الوطني في الجبل يجعله بعيداً كل البعد عن الطائفية البغيضة والتعصب الديني الذميم .

المصادر

خباز حنا : بين سوريا وفرنسا ج ٢

النجار عبد الله : بنو معروف في جبل حوران

سعيد امين : الثورة العربية الكبرى ج ٣ ط مصر

حتى فيليب : تاريخ العرب (مطول)

أبو عساف حمد : مقابلة شخصية بتاريخ ١٣ / ٤ / ٩٦٠

جانبية حمود : مقابلة شخصية بتاريخ ١٩ / ٤ / ٩٦٠

أطرش علي ذوقان : مقابلة شخصية بتاريخ ٢٠ / ٤ / ٩٦٠

أطرش سلطان : مقابلة شخصية بتاريخ ١٠ / ٤ / ٩٦٠

جندي ادهم : تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي دمشق ٩٦٠

العيسمي يوسف : مقابلة شخصية بتاريخ ١٨ / ٤ / ٩٦٠

قباني فارس : مقابلة شخصية بتاريخ ٢ / ٤ / ٩٦٠

ابو راشد حنا : حوران الدامية

كتب الحكمة المخطوطة

مجموعة الطقوس الدرزية في الزواج والموت والوصية

الجامعة الاسلامية وموقف الدروز منها محاضرة مطبوعة لرفيق وهبة مصر ١٩٣٩

ابو يحى متروك : مقابلة شخصيةبتاريخ ٩ / ٥ / ٩٦٠

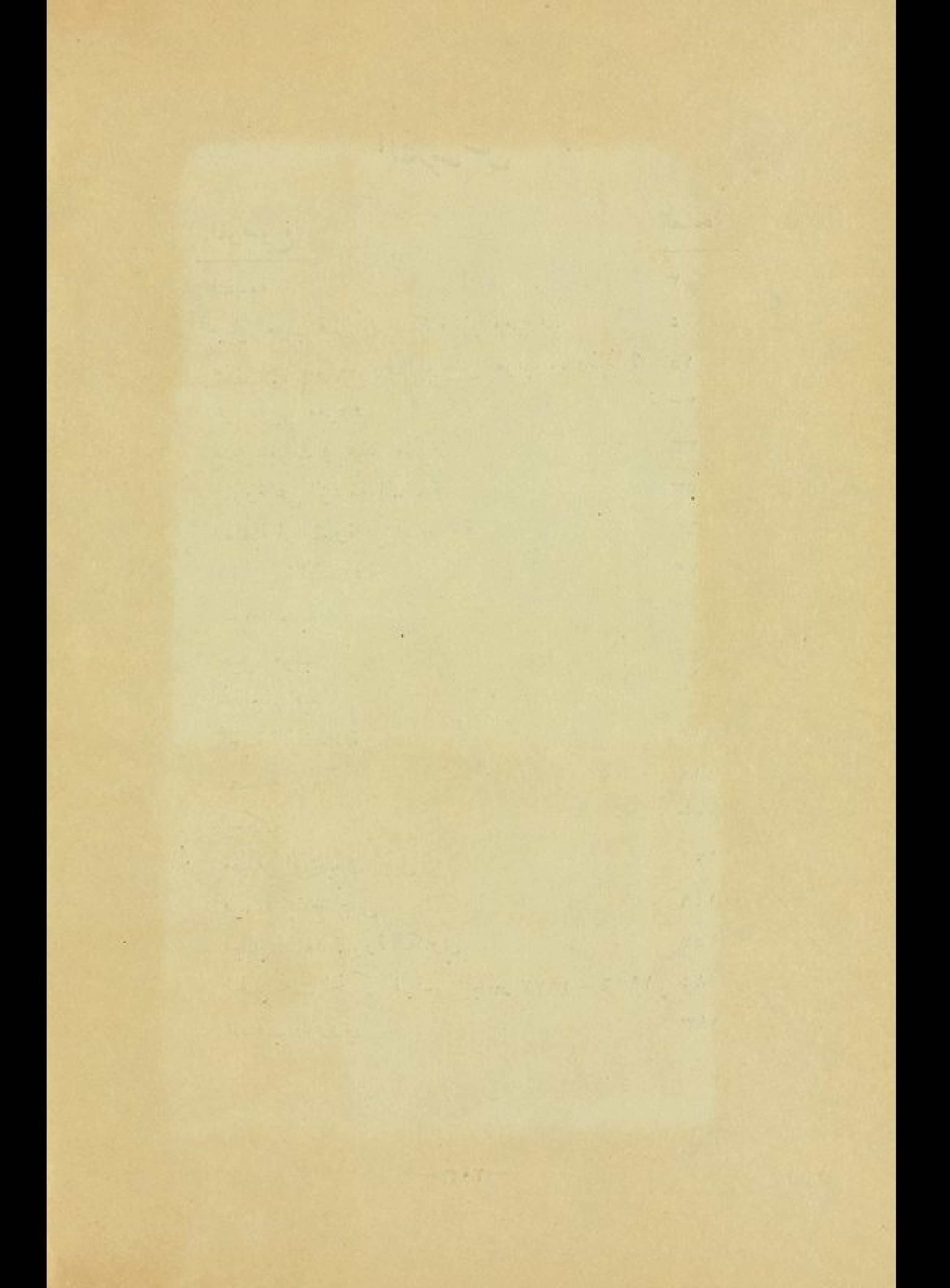
تصويب

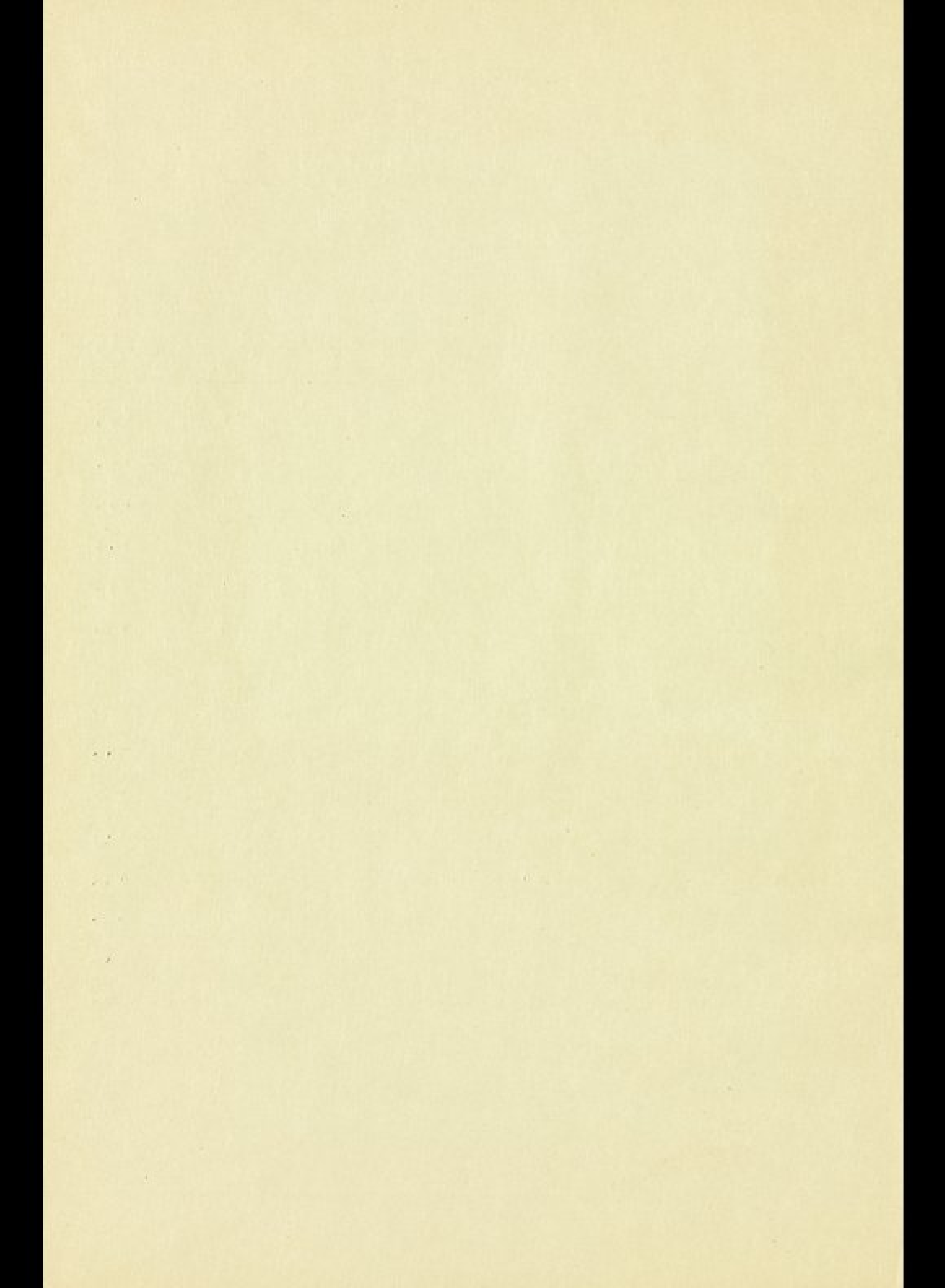
الصفحة	الخطأ	الصواب
٩	عيتل	عتيل
٩	المدينة	المدنية
١١	السهل	والسهل
١٢	أقرباء	أقرباءه
٢٨	فيه	منه
٣٠	بني	بنو
٣١	النفوذ	من النفوذ
٣٥	مطاليبهم	مطاليبه
٣٦	فيللي	منيكلي
٣٨	امسبكي	امسيكي
٤٣	ومن هون	وهون
٤٣	الثلال	التلال
٤٤،٤٧،٤٨،٤٩،٥٠	المقوش	المغوش
٤٥	ابن سمير	ابن سمير لهم
٤٧	نجن	بجن
٤٧	فرايا.	مزايا
٤٩	البكرية	البكري
٤٩	القارية	الغارية
٤٩	الرمان	ام الرمان
٥٠	يغني	يفني
٥٥	افرادها	افراد القبيلة
٥٥	عضم	غصم

الصفحة	الخطأ	الصواب
٥٦	الحورانيون	الحمدانيون
٥٩	قطبس	قطبش
٦٦	عقيل	عتيل
٦٦	عربي	عزي
٦٦	معقلة	مفعلة
٦٦	زين الرطل	زين الدين الرطل
٦٦	السلام	السلامة
٧٢	بوم	يوم
٧٢	وحصاء	ومصاد
٧٤	الشفراوية	الشقراوية
٧٤	العراض	العراضي
٧٤	القرنجي	الفرنجي
٧٧	الملجم	الملحم
٨١	تعدد	تتعدد
٨٤	يسجلونها	يسجلوا لها
٨٥	غير	خير
٨٥	ربط	رفع
٨٥	شمر	سمر
٨٧	حميد	صميد
٨٨	الآخر	الأخرى
٨٩	الحظلة	الحطلة
٩٤	الغارط	الفارط
٩٤	وثم يقف	ويقف
١٠٧	ويام الزيتون	وأم الزيتون

الصفحة	الخطا	الصواب
١١٥	الفجفيات	الفجفيات
١٢٦	بعد ان سممم	بعد ان حاول ان يسمم
١٢٩	الشفون	المشقوق
١٢٩	القردية	القرية
١٣٣	لغتها	لهجتها
١٤١	اللجهة	اللهجة
١٤٢	السرعان	السرحان
١٤٤	ملحوظ	فلحوط
١٥٢	شديدة	شديد
١٥٢	امتج	اصبح
١٥٢	بذار	بقرار
١٧٤	عدد كبير	عدداً كبيراً

الفهرس





مما صدر حديثاً عن

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

بدمشق

السعر ق.س	اسم الكتاب	المؤلف	يطلب من المكتبات التالية بدمشق
١٢٥	الجثة المطوقة	كاتب ياسين	دار دمشق
١٤٠	ابن الفقير	مولود فرعون	دار دمشق
٣٥٠	الصبي الاسود	ريتشارد رايت	دار اليقظة العربية
٢٠٠	انطباعات مغترب	عبد المسيح حداد	دار اليقظة العربية
٣٥٠	ابك يا بلدي الحبيب	آلان باتون	دار اليقظة العربية
١٦٠	فنون وصناعات شرقية	منير كيال	صالة الفن الحديث العالمي
١١٠	الثوار مروا بيتنا	عادل أبو شنب	صالة الفن الحديث العالمي
٢٦٥	أرض السحر	شفيق جبري	صالة الفن الحديث العالمي
٦٠٠	روضة الورد	سعدي الشيرازي	كبريات المكتبات
١٨٠	توبـاز	بانيول	مكتبة أطلس
١٠٠	حياة الفنان فتحي محمد	سلمان قطاية	صالة الفن الحديث العالمي
٢٧٥	الصواريخ والاقمار الصنعية	وجيه السمان	مكتبة أطلس
١٦٠	افريقيا الغربية في ظل الاسلام	نعيم قداح	مكتبة أطلس
٤٥٠	تاريخ الاشتراكية الاوربية	ايلي هاليفي	مكتبة أطلس
٦٠	قصة الارض	منير الشريف	كبريات المكتبات
١١٠	الاعترافات الكاذبة	ماريفو	دار دمشق
٣٠٠	اتجاهات الفنون التشكيلية	عفيف بهنسي	كبريات المكتبات
٣٠٠	محافظة اللاذقية	جبرائيل سعادة	كبريات المكتبات

السعر « ٣٠٠ ق.س أو ما يعادلها »

مطبعة الوزارة

